حيطان عالية



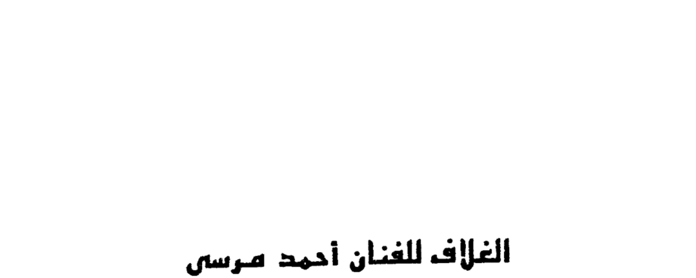
ادوار الخراط

إهـــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

حيطان عالية



الغلاف للفنان أحمد مرسى

إدوار الخراط

حيطان عالية

دار ومطابع المستقبل

٢٣ شارع صفية زغلول الإسكندرية ت ٤٨٣٢٤٥٣

١١ شارع كامل صدقي الفجالة القاهرة ت ٥٩١٠٦٢٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٥٩

الطبعة الثانية ١٩٩٠

الطبعة الثالثة (كاملة) ١٩٩٥

اهداء

إلي حبيبتي .. زوجتي .. فهي التي
تعطي حياتي معناها، ولولاها
ماكان من الممكن أن يظهر هذا الكتاب

إدوار

١٩٥٩ - ١٩٩٥

حيطان عالية
وجو شاعرى

الدكتور محمد مندور

قرأت هذا الاسبوع مجموعة اقاصيص للاستاذ ادوار الخراط بعنوان «حيطان عالية» وهو كما جرت العادة عنوان القصة الاولي في المجموعة.

وادوار الخراط يبدو من أكثر كتاب القصة عندنا ثقافة، وثقافته تجمع بين الثقافتين العربية والغربية، وقد استفاد من ثقافته العربية ثروة لغوية كبيرة وخبرة في استخدام اللغة العربية بل والتجديد في وسائل تعبيرها بوحي وتوجيه من لغة تخاطبنا الشعبية ووضع هذه الخبرة اللغوية في خدمة موهبة شعرية لاشك فيها وقدرة حادة علي الملاحظة فجاء اسلوبه جديدا وأكاد أقول فريدا بين كتاب القصة المعاصرين ليس

فيه استرسال التدفق التلقائي ولا تعقيد التفيقه والاجتلاب بل فيه قوة الشعر وتركيزه ونفاذه وتطريز خيوطه في دقة ومهارة.

ولكن ادوار الخراط ينبئنا علي غلاف مجموعته انه قد كتب القصة القصيرة في سنة ١٩٤٣ أي وهو طالب بحقوق الاسكندرية ثم كف عن كتابتها منذ سنة ١٩٤٥ حتي سنة ١٩٥٥ وواضح من التواريخ التي كتبها الخراط امام القصص التي تتكون منها هذه المجموعة انه قد كتبها كلها في مرحلة شبابه الأول وإذا كان قد وضع أمام بعض تلك القصص تاريخين مثل اغسطس سنة ١٩٤٣ ونوفمبر سنة ١٩٥٨ امام قصة (الشيخ عيسي) فقد فهمت من ذلك انه قد عاد إلي مثل هذه القصة فأجال فيها النظر من جديد وربما يكون قد غير في بعض تفاصيلها ولكن أكبر الظن انه لم يغير في فكرتها ولا هيكلها وبذلك يمكن القول بأن كل هذه المجموعة أو أغلبيتها الساحقة قد كتبها الخراط في صدر شبابه وإن يكن هذا الشباب يبدو لنا ناضجا نضوجا مبكرا خبيرا بالحياة خبرة عجيبة غير مألوفة لاشك أن مطالعاته وبخاصة في الآداب الغربية التي يتقن بعض لغاتها وعلي رأسها اللغة الفرنسية قد وسعت من آفاقها وعمقت من مداها حتي لتلوح لنا هذه القصص من كتابة رجل ناضج عرك الحياة.. وهو يصور الشهوات ويتعمق آثارها باسلوب شعري مركز يغطي مافيها من قسوة بالغة فقصصه ليست من الادب المكشوف الدميم المنفر في قبحه حتي في لحظات الانفجار

الجنسي بل تظل الشهوات التي يصورها مغلفة في ضباب شعري كثيف قد ينبه غريزة الجنس الكامنة في كل انسان ولكنه لايستثيرها ولا يهيجها ولا ينفرها بقبحه وبهيميته فهذا موظف صغير في مخازن القباري بالاسكندرية يترك عمله الممل المضني في قصة «حيطان عالية» ليعود إلي بيته فلا يجد في هذا البيت الزوجة التي تهش للقائه وتمكنه من اشباع شهوته الجنسية الملتهبة لعله يجد في ذلك ترويحا عن ضني يومه بل ولا يجد منها رعاية لابنته المريضة فيغادر البيت إلي القهوة شارد النفس ذاهلا عما حوله حتي ليلعب النرد مع شخص غامض لم يستطع ولا استطعنا أن نعرف من هو وما علاقته بهذا البائس وفي النهاية يشاهد وهو في يقظته رؤيا بشعة يري فيها ابنته وقد انتقلت إلي القهوة بسرير نومها عارية الجسم وبهذه الرؤيا المروعة تنتهي القصة ويعود بطلها المسكين إلي بيته لعله يستطيع أن يندس بين أحضان زوجته ليجد فيها ماتشتاقه شهوته المدمرة من دفء وكأن تصوير هذه الشهوة باسلوب شعري قوي وما يحدثه ظمؤها من هلوسة في الحواس هو الهدف النهائي من القصة.

وهذا الشيخ عيسي في القصة التي تحمل هذا الاسم ينازع ابنه مخلوف الذي فقد أمه يوم ولادته في حبه للفتاة «ناديه» ورغم تصوف الشيخ عيسي نراه يصر علي أن ينتزع الفتاة الشابة من ابنه ليتزوجها دونه بل ويطرد هذا الابن من بيته ويغادر الابن القرية ليعمل بالقاهرة

في مصنع وتزف الفتاة دامعة القلب إلى الشيخ عيسي رغم انفها بل رغم أنف أبيها الذي لم يوافق علي زواجها من الشيخ الا خوفا من شعوذته وقد تسلطت علي ذلك الشيخ شهوة عارمة للفتاة المسكينة. بل وهذا هو أبونا توما في القصة التي تحمل اسمه تتسلط عليه نفس الشهوة رغم انقطاعه كراهب للعبادة في أحد الأديرة بالصعيد وتصيبه تلك الشهوة بلوثة تدفعه إلي قتل زميله الراهب «متي» وتأمل الجراح التي احدثها في جسمه بسكينه وقد لاحت له هذه الجراح وكأنها رحم.

يمثل هذه القسوة العنيفة صور ادوار الخراط شهوة الجنس في قوة فريدة مفزعة وان يكن قد غلفها كما قلنا بضباب شعري كثيف فجاءت مجموعة قصصه (حيطان عالية) شيئا فريدا في أدبنا القصصي المعاصر وإن كنا نرجو ان يصرف طاقاته الادبية الممتازة إلي جوانب أخري من حياتنا وحياة شعبنا ليتناولها بنفس القوة والشاعرية

لقد كتب ادوار الخراط هذه القصص متأثرا فيما يبدو بكتاب القصص التحليلية مثل كاتب فرنسا الكبير «مارسيل بروست» وغيره وهذا نوع من القصص قد لا يروق من يبحثون في القصص عن الاحداث ولكنه فن خاص له أصالته النابعة من تعمق الشهوات النفسية بل الجسمية المدمرة ومن الأسلوب الشعري النابض بالحرارة العامر بالصور والتلوين

وإذا لم يكن هناك بد من أن نضع تحت بصر القارىء أمثلة لأسلوب

الخراط فلنأخذ مثلين من قصة «الشيخ عيسي» وليكن أحدهما وصفُه ليقظة الاحساس الجنسي المبكرة عند الطفل «مخلوف» ابن«الشيخ عيسي» الذي سيصير فيما بعد غريمه إذ أحس الطفل مخلوف بهذه الحاسة وهو جالس بين مرضعته والطفلة «ناديه» في بيت ابيها «عبد الدايم» وقد صور الخراط هذه اللحظة بقوله «كان مخلوف يذهب وهو صغير إلي بيت عبد الدايم يستند إلي مرضعته أم السعد وناديه بنت عبد الدايم إلي جانبه وفي الدفء النسائي المنبعث من المرضعة العجوز والبنت الطفلة معا يصغي إلي أسطورة ليلية غامضة ذات قوام لين كثيف كأنه لزوجة الاحلام الراسبة في الدم»

وأما المثل الثاني فنلتقطه من وصف الخراط للحظة التي تلت تبيّن الاب والابن لرغبتهما المشتركة المتنازعة في الزواج من ناديه حيث يقول : «كان الشيخ وولده جالسين علي المصطبة بعد عشاء لم يعرف له احدهما طعما مستندين إلي الوسائد وصامتين والمصباح الزيتي الضئيل يحترق في كوته والجمل علي تخوم الضوء والظل، يبرك في الحوش شاهقا، يجتر احلامه التي لاتنتهي.. كائن وحيد يعيش في عالم موحش كأنه الحقيقة الوحيدة»

(نشر في «الجمهورية»
في ٨ نوفمبر ١٩٥٩)

فتى دفعته الحداثة إلي مجاهل المدينة الفاضلة

الدكتور غالي شكري

في السنه الأخيرة من الخمسينات فوجئت الحياة الادبية المصرية بصدور مجموعة من القصص القصيره لادوار الخراط الذي كنا نعرفه حتي ذلك الوقت مترجما وباحثا وناقدا من طراز خاص، فقد ترجم عن الفرنسية والانجليزية للكبار في آداب أمهم من أمثال تولستوي وتشيكوف وأريستوفان والبير كامي، وكتب في الوجودية والسريالية والنقد، ولم نكن نعلم حتي عام ١٩٥٩ حين صدرت مجموعته «حيطان عالية» أنه يكتب القصة ايضا.

ومن مسيرة حياته التي لم يكتبها، ولكنه أفضي ببعض فقراتها نعلم

أنه اطلع في الاربعينات من هذا القرن علي المجلات الطليعية حينذاك، وأعمال الجماعة السريالية «نحو المجهول» وكتابات البير قصيري في الفرنسية، والجماعات اليسارية، وكذلك جماعة الثقافة الجديدة في الاسكندرية. هذه الطليعة الثقافية والابداعية كانت قليلة الأثر في المناخ العام، ولكن ادوار الخراط يعتبرها البذور الحقيقية والمخصبة في الثقافة المصرية الراهنة.

وفي صباه كان يشعر بانتماء مزدوج إلى المناخ الثقافي العام، حيث كانت هناك المجلات الذائعة «الرسالة»، «الثقافة»، «أبو للو» والأدباء الكبار من أمثال العقاد وطه حسين. وفي الوقت نفسه كان شديد التأثر بسلامه موسي الذي لم يكن شديد التأثير في المجتمع.

وفي أول الأربعينات كان الخراط (ولد ١٩٢٦) قد بلغ الرابعة عشرة حين واجهته أزمتان، الأولي مع الدين، والأخري مع الحرية، وفي منتصف الأربعينات برزت قضية العدل الاجتماعي والحركة الوطنية في مواجهة الاستعمار كأزمتين جديدتين احتويتا كل وجدانه وعقله، ومن «حيطان عالية» المؤرخة قصصها ندرك أن هذه هي الفترة التي شرع يكتب فيها، إذ أنه بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤ كتب «الشيخ عيسي» و «في ظهر يوم حار» و «طلقة نار» و «أبوناتوما» و« حكاية صغيرة في الليل» دون أن ينشر أياً منها في صحف أو مجلات ذلك الوقت، ربما بسبب يفاعته، ولكن ماذا نقول في الخمسينات التي كان يستطيع أن ينشر فيها علي صفحات الدوريات العديدة ولم يفعل، لقد نشرها بين

دفتي كتاب دفعة واحدة. وكان هو نفسه الناشر.

في أواخر الاربعينات كانت تعنيه مسألة محددة هي «الشكل الفني» علي حد تعبيره، ومسألة عامة هي «الادب المصري الحقيقي الذي يعبر عن روح مصر، وضرورة وجوده في السياق العام للحضارة الانسانية» علي حد تعبيره كذلك.

في الاسكندرية التي وُلد فيها، هو الصعيديّ، راح يتردد علي الأنشطة الثقافية للاتلييه وجماعة الصداقة المصرية الفرنسية، وبالاضافة إلى جماعة الثقافة الجديدة كانت له جماعته التي ضمت سامي محمود علي ومصطفي بدوي وعبد الحميد صبره وألفريد فرج وأحمد مرسي والراحل في سن مبكرة منير رمزي الذي كتب شعراً متميزا في الانجليزية نقله الخراط إلى العربية، وكانت هذه الصحبة وماتزال من أصحاب المواهب المبدعة في العلم والأدب والفن.

ومن المؤثرات الأجنبية الهامة التي لعبت دورا في تشكيل إتجاهه الفني والثقافي حينذاك يأتي في المقدمه الشعر الرومانتيكي الانجليزي وخاصة شيلي وكيتس، وفي الرواية د. هـ. لورانس والرواية الانجليزية عموما، وفي المسرح والفكر برنارد شو، وهـ جـ ويلز والزوجان ويب ومطبوعات الجمعية الفابية، وفي الادب الروسي أهم إنجازات الرواية والقصة القصيرة، ثم الفكر الماركسي في مصادره الاساسية باللغة الانجليزية، خاصة رأس المال لماركس و «ضد دوهرنج» لانجلز و «الدولة والثورة» للينين و «الادب والثورة» لتروتسكي، هذا بالاضافة إلى

الأدب العربي القديم.

يري ادوار الخراط ان الحلم الرئيسي الذي تحقق علي نحو أو آخر هو انبثاق البذور الاولي التي وُضعت في الاربعينات ـ وقد سحبت عليها الخمسينات ستارا ـ في أدب الستينات، ويقول «أظن انه لو لم توضع هذه البذور في الاربعينات لما اتخذ أدب الستينات الشكل الذي اتخذه بالفعل، هذا اذا لم اذهب بعيدا إلى حد القول ان أدب الستينات مدين بأخصب مافيه لفترة الاربعينات».

علي أية حال فإشكالية التواصل أو الانقطاع بين الأجيال ليست مدار البحث هنا، خاصة وانها إشكالية مركبة حين نعرف ان بعضا من أهم إنتاج الاربعينات لم يظهر الا آخر الخمسينات (كما هو الحال مع الخراط نفسه) أو في منتصف الستينات (كما هو الحال مع «العنقاء» و «مذكرات طالب بعثة » للويس عوض). كذلك فان بعضا من أهم إنتاج بدر الديب ويوسف الشاروني وبشر فارس لم يصل أحيانا إلى الاجيال التالية بسبب النشر في مجلات احتجبت أو دوريات غير مصرية أو طبعات محدودة نفدت في وقتها، ولا تدلنا الأبحاث الميدانية في ثقافة جيل الستينات علي أن التواصل مع الاربعينات كان حتميا.

والخراط يشير من زاوية اخري إلى مدي التعقيد في الإشكالية حين يقول «مالم يتحقق هو الحركه المتصلة والنمو الداخلي لفترة الاربعينات حيث كان من الممكن ان تصبح عاملا مؤثرا في الثقافة المصرية والعربية كلها بمعني ان انقطاع هذه الموجة في الاربعينات لأسباب سياسية

واجتماعية غالبا أدي في تصوري إلى نوع من التأخير في ازدهار الثقافة المصرية ودخولها السياق الانساني المعاصر بالقوة التي هي جديرة بها».

نحن إذن برفقة خمس قصص من بينها واحدة «الشيخ عيسي» كتبت في أغسطس عام ١٩٤٣ وأعاد الكاتب فيها النظر في نوفمبر عام ١٩٥٨، وأخري «حكاية صغيرة في الليل» كتبت عام ١٩٤٤ وأعيد فيها النظر عام ١٩٥٨ ايضا وقد سألت الكاتب عما يعنيه باعادة النظر فانبأني ان الأمر لايزيد علي تعديل جملة أو استبدال كلمة أو حذف عبارة، ولكن التكوين الاساسي باق كما هو.

أما القصص الثلاث الباقية، فقد كتبت منها اثنتان هما «طلقة نار» و «أبونا توما» عام ١٩٤٤ بينما كتبت «في ظهر يوم حار» عام ١٩٤٣ حينما كان الكاتب لايتجاوز السابعة عشرة من عمره.

ولربما كان عنوان «حيطان عالية» هو أول مستويات المعني في المجموعة كلها، وليس مجرد عنوان لإحدي قصصها :

* مخلوف في قصة «الشيخ عيسي» : «ترتفع علي جدران نفسه نباتات غريبة طفيلية من العفاريت المتهددة والغيلان والحسناوات والجنيات... لا يأمن جانب الشرير الذي عساه يشق الأرض في أية لحظة، كالعفاريت، ويخطف منه حسناء غيلة، ويترك له علي الحائط آثار أصابعه الخمسة المغموسة في الدماء»

* جابر في قصة «في ظهر يوم حار» : « لم يكن يحب أن يدع

النافذة أو الباب مفتوحا، عادة مستحكمة، ان يحيط نفسه دائما، طالما كان ذلك ممكنا، بجو محكم وثيق، ويحس نفسه تتشتت منه مالم يحكم سدها» وفي مثل هذا السجن تتحول المرأة إلى تمثال، والمراكبية إلى «صورة فرعونية، منحوتة علي معبد قديم، صورة حجرية لا هواء فيها»

* أنيس في قصة «طلقة نار» : «اختار بيتًا من البيوت التي كانت تُعد لعمال التراحيل في القطن والمواسم، واتخذ منه سكنه في حُمّي من العناد والاباء. ورفض كل مساعدة من القرويين الذين أسرعوا لخدمته في خفية عن أبيه، ودفعته الصدمة إلى نوع من التحدي، فكان ينام في بيته ذاك الحقير علي حصيرة قديمة، لايقبل شيئا ولا يطيق شخصا... ويرد كل رسل أمه واقربائه».

* الراهب في قصة «أبونا توما» : لايسكن الدبر مع زملائه ويختار صومعة أشبه بالمقبرة أو الكهف في حضن الجبل.

* قاسم في «حكاية صغيرة في الليل» : يعيش بين الحيطان والصمت. وانقلب « كل توازن في العالم المضيء الساكن الذي مات »، والأثاث « يجثم في الأركان ويقوم في وسط الغرفة كشواهد قبور متصلبة. »

كلها إذن حيطان عالية حول النفس والجسد، أي أنها منذ البدء ليست مشهدا خارجيا، وانما هي حيطان عالية بالنسبة الي ... لابحد ذاتها. ومن هنا فهي مستوي رئيسي لتراكيب المعني في القصة

الواحدة، وفي جملة القصص علي السواء. والحديث هنا مقصور علي قصص الأربعينات وحدها، ومن ثم فالحيطان العالية مرتبطة علي نحو أو آخر بتلك المرحلة التي حاصرت الكاتب اليافع بما دعاه «القهر». الحيطان اذن ليست رمزاً بل دلالة كلية تستوعب مجموعة الدلالات الجزئية. انها حيطان الخوف من الأب (في قصتي «الشيخ عيسي» و «طلقة نار»)، وحيطان الخوف من الأنثي (في قصص «في ظهر يوم حار » و « طلقة نار » و « أبونا توما »). ولعله إلى جانب الخوف من الأب والانثي هو خوف من النفس علي مستوي الذات أو من الماضي والمستقبل علي مستوي الموضوع. ولكنه في جميع الاحوال هو الخوف الناشيء عن الحصار الذي يرادف القمع.

هذا المدلول المركزي لعنوان «حيطان عالية» يصاحبنا منذ البدء إلى هذا «الحصار ـ القمع» الذي يفضي إلى العزلة. ولم تكن صدفة لذلك أن يستبعد الكاتب أداة التعريف فيقول «حيطان»، لأن تعددها وتنوعها لا يرتبط بمعرفة أو دلالة سابقة علي التحقق الجمالي. وهذا التحقق هو الذي يمنحها صيرورتها اي أن الحصار ـ القمع ليس معني ذهنيا مفارقا، وانما هو بنية جمالية تتساوق مع دلالة التركيب الذي يستند بدوره علي «العزلة» كفضاء حتمي شعوري في وقت واحد.

* * *

وبالرغم من أن هذا الجدار أو الأساس البنائي يغري بالصياغة

، التحتية التي تنفصل فيها جزئيات التكوين من شخصيات وأحداث ومواقف، إلا أن الكاتب في سنه المبكرة كان واعيا بقيمة السرد الحكائي والدور الذي تلعبه «الحدوته» في إقامة العلاقات بين الأساسات الأولية من القيم والمعايير أسفل البناء، وبين النظام الدلالي الذي تتجلّي في أعلاه مجموعة البني التي نسجها في السياق الكامن بين جذور المعني وفروع الدلالة. وهو هنا كان يحقق ملمحا مصريا في الوجدان الجمعي يتصل بالسرد الزمني المتتابع حسب المنطق الداخلي لعلاقات الحدوتة أو الموال أو السيرة الشعبية.

ان العلاقة التبادلية بين قاعدة القيم الراسبة في قصص «حيطان عالية» وبين ذري الدلالات المتوهجة فوق البناء عبر طوابق من المعني، هي العلاقة بين شخصية رئيسية من جهة وشخصيتين فرعيتين يتناوبان الانقطاع والاتصال بالشخصية الاولي. هذا التناوب يتماهي والموقف الصدامي ـ الصراعي الذي يؤدي بالمعني إلى تركيب جديد، وهكذا.

والكاتب يختار عناصر تكوين الشخصية أو الحدث أو الموقف من أكثر الخزائن اللغوية إمتلاء بالمفارقة والاحتمال والقدرة علي تبطين الحس الفاجع بالسخرية. ومن هذه العناصر التي قد تكون بعيدة كليًا عن المقومات الواقعية للشخصية أو الحدث، يبني الكاتب شخوصه وأحداثه الأقرب إلى الصياغة الأسطورية لتصل إلينا القيمة والعلاقة في التباسات عاطفية دؤوبة.

اننا مع «الشيخ عيسي» ـ ابن الرجل الذي دوخ الفلاحين وسامهم

العذاب قبل أن يموت ـ واذا به يعيش وحيدا في الدوار الكبير «يقرأ في مصحف كبير وكتب الذكر الثقيلة.» وكذلك الأمر مع «أبونا توما» الذي يقضي أيامه ولياليه بعد الصلاة «في نسخ الكتب المقدسة والأشعار.. وزخرفة الحواشي بالرسوم الطاهرة وتدوين سير الشهداء والقديسين».

وكان جابر في «ظهر يوم حار » هو الوحيد الذي يعرف القراءة الكتابة واحتاجت إليه «بنت البيه» أن يكتب لها قائمة المشتروات التي جاءت لتأخذ ثمنها من والدها. ولا تفوت الكاتب الاشارة إلى أن جابر «كان يقرأ بإلحاح» عن الطبقة التي تنتمي اليها الفتاة. أما انيس في «طلقة نار» فهو طالب طب، وقاسم بيه في «حكاية صغيرة في الليل» قضي شبابه كله «يعيش في كتبه»، وهو يعيش الآن وحيدا في فيللا «يكمل كتابه الكبير في القانون، منفردا، لاتؤنسه إلا أحلام قديمة متحجرة غير متحققة».

اننا اذن في الحصار ـ القمع، نشهد العزلة بين حيطان عالية تتغير بنيتها من حائط إلى آخر وتشكل عزلة تتنوع دلالتها من قصة إلى أخري، أما المحاصر، المقموع، المعزول فهو « المثقف» سواء تجلي في الشيخ أو الراهب أو الطالب، فهي تجليات ليست مقصودة لذاتها، وانما لقدرة عناصرها علي تحقيق التكافؤ بين القيمة والدلالة، وتحقيق الأثر المطلوب من إختبار «حالات» المثقف من زوايا مختلفة.

حالة الحصار الاولي هي مقتل الأب الذي استبدله الكاتب في عملية

البناء بمقتل الابن. الشيخ عيسي «مايزال فيه جوع لايعرف تفسيره. جوع عميق في أحشائه، جوع ملح لا إرضاء له. وذات ظهر «تشتد عليه وطأة رغبات مسجونة ساخنة». ولايجد مايطفيء النيران إلا بالزواج من ناديه التي أحبها ابنه مخلوف. ولايدخل عليها إلا حين يتأكد بنفسه أن ابنه يعشقها. تزدوج علاقة اللذة في ري العطش بين أحضان حبيبة الابن: مخلوف هو ابن الفتاة الصغيرة التي تزوجها أبوه وماتت أثناء ولادته. ومخلوف هو حبيب الفتاة الصغيرة التي ساقها أبوه إلى الأمام «بسوط جائع». جائع إلى قتل الابن الذي كان يخشاه دائما و«يحب فيه إله طفولته ويمقته أيضا».

وهذا هو أنيس يأخذ سعاد القاهرية إلى الريف، وقد ظن الاب غائبا في تلك الليلة. ولكن الاب يعود من غيبته، وما يلبث أن يأخذ سعاد لنفسه «ورنّت في أذنيه مع ضحكة أبيه ضحكتها»، فكل شيء كان قد انحسم من زمن «بعيد، قديم، موغل في القدم». وهكذا وجد نفسه يمسك بالسلاح وقد تملكته رغبة عاتية في «أن يسحق كل شيء، بضربة واحدة، كل شيء حتي الفتات. ودوت في العزبة النائية طلقة نار». وربما كانت الطلقة في الهواء، ولكنها في جميع الأحوال تقتل الأب الذي استبدل الكاتب فعله بقتل الابن.

وحتي أبونا توما في قصته، هو الوحيد الذي يقتل دون التباس في وضوح اليقين. يقتل الراهب الآخر الذي يجدل سعف النخيل وكأنه في

صوت النداهة التي أغوت توما كان قد قتل الاب الذي لم يكن أمامه سوي قتل الابن : أبونا متيّ الذي جسد الاب والابن والمرأة في إهاب واحد، فصوت الأنثي الذي بعثت به الرياح إلى توما انبثق من صدره ووعيه الغافي، ولكن توما أيقن من أن الصوت مبعثه متيّ فقتل نفسه وابنه وأنثاه بضربة واحدة. ولكن الابن والمرأة كانا قد سبقاه إلى القتل.

المرأة بدورها تفتح القلب لتدخله وتصفي دمه، انها الذراع اليمني للابن في قتل الاب. الشيخ عيسي يسوقه الجوع لقتل الابن إلى اغتصاب أنثاه، ولكنها «تحتفظ لنفسها بأسرارها التي تذبل في أعماق رحمها بلا ثمرة، فلم تخلف له نادية». وهو ـ الأب ـ بات يشعر من العقم «كأنه أرض فسيحة خلاء وبورٌ ينزّ فيها الملح» الأب هو القتيل في نهاية المطاف. وحتي سعاد القاهرية في «طلقة نار» والتي تبدو كأنها أداة الأب في قتل الابن، كانت في واقع الأمر السلاح المضاد منذ البداية : أي منذ تكونت الراقصة في الكباريه، لاتطمع لغير حماية المستقبل، فستأخذ ماله وسمعته وسيئنّ وجعًا من تحدي شبابها. انه القتيل سلفا. وبالرغم من أن عكس السياق هو الذي جري في «حكاية صغيرة في الليل» حيث أن يسري (= الاين) هو الذي أخذ هدي من قاسم بك (= الأب) وكأنه قام فعلا بالقتل، الا أن هدي التي لم تكن لتستطيع أن تقتل الابن شاركت بكل ماتملكه من مبررات القيم في قتل الأب.

وقتل الاب الذي يستبدله الكاتب أحيانا بما يشبه قتل الابن هو النسق الرئيسي الذي ينتقل بنا إلى تركيب جديد لمستوي المعني الرابض

في الأطروحة المعروفة عن مقتل الأب.

هذا النسق يولد في تناغم «الحصار - القمع» الذي يفرض علي المثقف حيطانا عالية، فاذا به المثقف المعزول وليس المنعزل أو المعتزل، عزلة القهر هذه هي التي تدفع به إلى محاولة قتل الأب كخزانة لا واعية من القيم والمعايير، فهو القتل الثقافي الاجتماعي السياسي. هذا القطع الابستمولوجي يتحقق حلميًا علي صعيد البنية الجمالية بمحاولة الأب قتل الابن.وهذا هو الجديد الذي يدفعنا إلى إستبعاد الأطروحة التقليدية عن مقتل الأب، حيث ينطلق منها كاتب «حيطان عالية» ليشيد بناء آخر مغايرا يتجاوز المدلول النفسي - الجنسي المباشر إلى نظام خيالي تتماسك البنية فيه بمادة عينية مأخوذة من جزئيات واقعية محسوسة. الا أن الربط بينها يقيم بواسطتها «جسما» يتكافأ مع ظلال المعني ويتعادل مع جذر الدلالة. وهكذا فان لجوء الكاتب إلى شخصيات واحداث ومواقف «غير ثقافية» إن جاز التعبير، وذات تكوين ثقافي دالّ في الوقت نفسه، أتاح له إستحضار «مقتل الأب» في غير سياقه المألوف. وهو العمل الذي يتطلب تفكيك المنطق السائد علي قيم وعلاقات راسخة في البنية الاجتماعية المتداعية. علاقة «الأب» بالفلاحين في «الشيخ عيسي» و «طلقة نار»، وعلاقة الفلاحين بصاحب العزبة «في ظهر يوم حار»، وعلاقة الجسد بالعالم في «أبونا توما» و «حكاية صغيرة».

يقوم الكاتب بتفكيك الترتيب القيمي، ويعيد تشييده علي نحو

مختلف بوضع المحرمات الشهيرة «الدين والجنس والسياسة» موضع سؤال. والسؤال يصل إلى الحد الأقصي باستخدام العلاقة بين الشيخ المسنّ والأنثي الصغيرة (ناديه، سعاد، هدي)، وأيضا باستحضار شيخ الطريقة الصوفية والكاهن الراهب كأنماط معيارية وأنساق قيمية في وقت واحد.

يحضر الفعل الجنسي في قصص أربع حضوراً يرادف القتل، ويحضر القتل في قصة واحدة «أبونا توما» حضوراً يرادف الفعل الجنسي. والقتل هنا بنْية دلالية تشير إلى ذاتها لا إلى غيرها، فهي ليست مقتل الاب ولا هي عملية استبداله بقتل الابن، الوجه الآخر لمقتل الأب. وانما هي القتل نفسه كفعل مستقل. لايتوازي الفعل الجنسي والقتل ولا يتكاملان ولا يتقاطعان ولا يرمز أحدها للآخر، وانما كلاهما بنية دلالية واحدة : الجنس يفعل القتل. والقتل الجنسي هو انعدام الخصوبة وجفاف الشهوة، أو ما أحس به الشيخ عبسي وهو يضاجع ناديه الصغيرة من «فراغ موحش عريض» هو العقم والبوار في أرض « ينزّ فيها الماء الملح». أو هو الحاجز الأشقر ذو العينين الزرقاوين، يحول دون اكتمال المتعة في احضان نجية وقد أعطت نفسها لجابر، ولكنه لم يكن أخذ نفسه من «الأخري» التي كان يقرأ عن طبقتها بالحاح. اثمرت نجية وهي في السادسة عشرة من زوجها الذي لم تعرفه ولم تحبه طفلاً مات فطلقها الرجل. ثم تزوجت من صاحب «الحواس الخشنة» فلم تحبل. وهاهي

تضاجع جابر الذي قد تأتي منه بولد فلا يطلقها زوجها. ولكن الحاجز الأشقر الأخضر العينين يستحيل بالفعل الجنسي إلى فعل قتلٍ لما هو أعمق في داخل الداخل، حتي وإن حبلت نجيه.

والفعل الجنسي في «طلقة نار» هو الذي يصاحب القرار «بئس الدراسة وبئس الكليات والجامعات إنْ هي الا فضائح». اما أبونا توما فيمارس الفعل في حده الأقصي حين يقتل «أبونا متي » ثم يرمي سكينه « وهو يتلمس الصدر المنفتح في فرح شرس، ويزيح الدماء النازفة بلهفة كأنها الشغف، وهو يزوم، والدماء تئز في رأسه، ويداه الجافتان الناحلتان تتلمسان هذه الدماء الحارة الناعمة اللزجة، وهذا الجسد الآدمي النابض الذي يموت، في لذة كبيرة. يتحسس العضلات اللدنة المتهدلة التي ترتعش تحت أصابعه الغائرة، كأنها الرحم المفتوح. وترامي في أذنيه نداء قديم كأنه يأتيه من حلم حلو بعيد : أبونا توما. وهي تبتعد، بنعومتها ودفئها، بصوتها اللين الحريري المتمطيّ وهو يتلمس الدماء اللزجة واللحم الساخن. يتغلغل بجمع يده في الجسم الممزق. وهي تتراجع في نغمات أنثوية راضية : أبونا توما.. توما.. ».

الفعل الجنسي في حياة توما هو القتل أو أن عملية القتل هي ذاتها العمل الجنسي، دون أن تكون هناك شبهة أطروحة عن الجنسية المثلية التي تغري بها شخصية الراهب المجاور لراهب آخر.. فهناك أنثي كاملة الأوصاف «سمعها فجأة تتأوه في أنات عميقة ممتدة مع الريح، متهدجة في شكاة : يابونا توما.. بونا توما». انه النداء الأول والنداء الأخير،

كان مع الريح فأصبح من الدم ينبثق.

يستخدم الكاتب ضمير الغائب في لحظة حضور ان جازت تسمية المقصود بالراوية حين يسرد «الماضي» ويشهد علي الحاضر، ويسلم الحوار إلى البني الداخلية للشخصيات المختلفة. وهو يستخدم نوعين من الحوار، احدهما ينتمي إلى مستوي لغة السرد (العربي الفصيح)، والآخر ينتمي إلى العامية. النوع الأول هو الحوار الداخلي الذي شاء الكاتب أن يميزه عن السرد كأن يبدأ فجأة سطرا جديدا بعد فقرة وصفية دقيقة للشيخ عيسي فيقول :

ـ أهو يُعني بخوفهم منه الان ؟ يحسبون له الف حساب »

والسطر ليس تعليقًا من الخارج. انه حوار داخلي، وقد كتب بالعربية الفصحي كأنه جزء من السرد متميزاً عنه من ناحية، وعن الحوار المباشر بين اثنين من ناحية أخري. الحوار الثنائي تصوغه العامية المصرية علي هذا النحو :

ـ الفراخ دي مش حتبطل تنفخ ؟

ـ إيه ياسيدنا الشيخ، عايز حاجة ؟

ولايختلف الأمر في جميع القصص عن هذه الصياغة التي لاتدمج الحوار الداخلي في السرد فتفسح له مكانا خاصا، ولكنه ينطق بلغة السرد ذاتها. بينما يتحول الحوار الخارجي إلى العامية. وهي مفارقة سلبية لأن الحوار الداخلي ـ إذا إقتدينا بمنطق الكاتب ـ لا يتصل بلغة

الراوية، وإنما ببنية الشخصية. وفي هذه الحال، فهي اللهجة العامية التي شاركت بنصيب موفور في توصيف الوجدان الشعبي للشخصيات سواء كانت من الريف أو المدينة وأيا ماكان مستواها العقلي والشعوري.

ولكن المفارقة السلبية تصل إلى منتهاها حين يتدخل الكاتب في البنية السردية بتعليق يشتت أحيانا خيوط النسيج العام ويوقف أحيانا أخري تدفق الشحنة اللفظية المراد إيصالها إلى الفقرة التالية أو الشخصية اللاحقة. يقول مثلاً في «ظهر يوم حار» وكأن السياق حوار داخلي : «من يدري ؟ قد يتحول هذا الشعاع إلى لهيب كبير يغدو محرقة، ويلتهم هذه الزرائب وما وراءها في ألسنة النار، لهب قد يخمد ويختنق بين الرمال والحطام، وقد.. قد تشب منه النار قوية فتية.. أو تطفئها دموع العجز، والانسحاق وقطرات العرق الباردة المتربة تسقط من جبين كليل». هذا التعليق، حتي ولو افترضنا أنه حوار جابر الداخلي، يقطع التدرج الطبيعي من «الشعاع الغامض الحزين» إلى البيت الذي « يتأمله كمن يراه لأول مرة ».

ولكننا نضع هذه المفارقة السلبية بشقيها جانبا لنبحث في المفارقة الجمالية الكبري بين مقدمات الحصار والقمع والعزلة ونتائج الفعل الجنسي والقتل. وهي ليست مفارقة فكرية أو تعبيرية، بل هي مفارقة الحس الفاجع والسخرية من هذا الإحباط المدمر لرؤية الوجود والانسان

والمجتمع بعيني جيل جديد يطمح لحداثة جديدة. هذه الحداثة التي اقتضت من الفتي اليافع الذي كانه إدوار الخراط قبل خمسة واربعين سنة ان يرتاد مجاهل هذه «المدينة الفاضلة المعكوسة» بوسائل أهمها صناعة الكلمات وابتداع الخيال وأنسنة الأشياء عبر الحلول.

يلعب الصوت دورا مؤثرا في بناء الجملة القصصية لـ«حيطان عالية» كما يلعب التشكيل دورا آخر، ويصبح الإطار الدرامي هيكلا أخيرا يبنيه تكرار الأصوات وتعدد الصور. ولا حاجة بنا إلى القول ان الكاتب في سبيل تحقيق هذا التكرار أو التعدد، قد يستخدم كلمة يندر استعمالها المعجمي، والعكس أيضا قد يستخدم كلمة سائغة تقرب من العامية في صميم السرد.

ونحن نستطيع أن نرصد المفردات والتراكيب التي تكررت في القصة الواحدة ثم في بقية القصص علي النحو التالي : العواء، الليل، القمر، الجوع، الرغبة، الرمل، النيل، الماء، الحلم، الجدار، النار، الغموض، قلبه يتدهور، ثقل يحط في روحه، الكلب، الجمل، الغروب، السماء الموحشة (أو المثقلة)، الحشرجة، الاحتضار، الرحم، اول الخلق، منذ الازل، الضحكة المرة، الضوء، الموت، الظلمة (والعتمة)، سقطت في نفسها، التراب يتساقط في روحه.

هذه المفردات والتراكيب ذات الدلالات الكلية، بعضها القليل يتصل بالبيئة الجغرافية وبعضها الأهم يتصل بجغرافيا النفس البشرية. وكلها تتميز بالحضور المكثف في الذاكرة الجماعية، وانها قابلة للتوالد في

السياقات المتغايرة.

والكاتب يجمع بينها في عدة مستويات للمعني أولها اللغة المعيارية كقوله «مرت أصابعه بشعره في عنفٍ ضيّق، وضم رجليه إلى صدره كالجنين يتململ في رحم أمه». وقد لاتري ضرورة للتشبيه بحد ذاته إذ تكفي ضمة الرجلين إلى الصدر، لولا ان الجنين في رحم الأم يرتبط بقيمة معيارية في تكوين شخصية جابر (في ظهر يوم حار). وانيس يشعر «بالخجل يطأ نفسه ويغوص فيها » (طلقة نار). هكذا يتحول التركيب إلى معيار لغوي كامن. وهو المعيار الذي تتشكل انساقه القيمية من تتابع الصفات لاترادفها : صفارة الباخرة الصغيرة «تترك خلفها طنينا هادرأيئز مع المواقد ويعوي مع المذياع ويقرقر مع شيشة قريبة، (في ظهر يوم حار). والمركب يتقدم مع الأمواج الصغيرة، المهتزة، تميل، وتطفو، وتغوص، وتجاهد الماء. هذا التتابع المتنوع في الصفات يندرج حينا في باب الصفات المعنوية كأن يصف عيني نجية في القصة ذاتها بأن فيهما «حساسية وذكاء وعطف ». ويندرج هذا التوصيف المتتابع المتنوع حينما آخر في باب الصفات الحسية كقوله عن عيني نجية أيضا أن لونهما كلون «مياه النيل في بقعة صافية عند الفيضان، مزيج من السماء والطمي والعسل». وهي صفات قد تجهد الذاكرة البصرية وتفجأنا بالدهشة، ولكنها في سياق تكوين الشخصية او الحدث تكتسب كامل أبعادها.

والمستوي الثاني هو اللغة التكوينية حيث يقوم التشكيل البصري

بدور المنظار الداخلي فلا يقف الستار المطرز بالتفاصيل الدقيقة دون رؤية العالم الخفي، بل يستحيل عدسة تقريب وتكبير لرؤية مالا يُري :

« بين الدير الشامخ وبين هذه الأبنية المبهمة كالمقابر تتخذ الحجارة والأنقاض أشكالا غريبة في الليل المقمر، كأنها أجسام متصلبة في كابوس، ترمي بذراعيها متشنجة، فاغرة أفواهها بلا صوت. وثَم جماجم قديمة مرمية، بيضاء من طول التعرض للشمس، تبتسم أبداً عن نواجذها وعن عيونها المفتوحة بلا راحة» (أبونا توما). هذا الاختيار للمرئيات المنثورة بلا ضابط يضمها إطار الموت الكابوسي في بداية الفقرات الاولي من القصة، ولابد اننا رأيناها عند الخاتمة كأنها الأبواب التي دخلنا منها إلى عمق المأساة.

وهي المأساة التي يعادلها الجسم الدرامي الذي يعيد تركيب العلاقات في نسق يتأخر السرد خلاله عن الحوار ويتقدم فيه ضمير الغائب علي ضمير المتكلم، وتتحول الساعات القليلة التي يتكون منها الحيز الزمني للقصة إلى دهور طويلة من الأزمنة المتعارضة أو المتوازية أو المتقاطعة.

يبدأ الكاتب قصته مما درجنا أحيانا علي تسميته بالنهاية، أو هو يضع ماندعوه البداية في وسط الكيان اللغوي الشامل، وفقا لاحتياجات الإطار الدرامي الذي يقوم بتركيبه من الأزمنة والأمكنة والشخوص والمواقف. وهو التركيب الدلالي الأخير الذي تكتمل فيه ومن حوله

أنساق «حيطان عالية» : مركزها المخاض العسير لرؤية جيل يشق طريقه في جدار من الهيمنة والعجز. هذا الجدار من «الأبوة» أو السلطة الاجتماعية ـ الثقافية ـ السياسية التي تستدعي «القتل» من سكين «الفعل الجنسي». وهي أطروحة الخيال الخلاق الذي أبدع عناصر هذه الرؤية ليدل علي الثالوث المأسوي للمثقف المصري : الحصار، القمع، العزلة.

وحتي لا ننسي فقد كانت هذه الرؤية الرائدة من عمل كاتب في السابعة عشرة اخترقت بصيرته أسوار الأربعينات، لتمتد إلي أعماق عصرنا.

نشرت في «اليوم السابع»
٢٢ فبراير سنة ١٩٨٨

بين يدي «حيطان عالية»
الطبعة الكاملة ١٩٩٥

كان كتابي الأول «حيطان عالية» كتاباً بكراً بأكثر من معني، فلم أنشر منه شيئاً في الصحف والمجلات (إلا فقرتين قصيرتين) وكانت المؤسسة القومية للنشر والتوزيع هي التي أخذت علي عاتقها عندئذ مخاطرة نشر كتاب خارج عن المواصفات التقليدية لغة ورؤية ومنهجا في الكتابة، وبعد أن جُمع الكتاب ـ كانت تلك أيام الليونتيب ١٩٥٨ ـ أغلقت المؤسسة في ليلة أول يناير ١٩٥٩ بالشمع الأحمر واعُتقل صاحباها «حسين طلعت وريمون دويك» إلي سنوات عديدة مقبلة.

وعندما ذهبت إلي مطبعة أطلس لكي أراجع البروفات أشار لي صاحبها الصديق اليساري يني دياكوميديس إلي كومة منتظمة من صفوف الرصاص، وقال لي «يا خبيبي هذا هو كتابك وسأضطر إلي تذويب الرصاص ولا يمكنني أن أطبعه علي حسابي أوأعطل الرصاص» فلك أن تتصور مدي فزعي وحسرتي وكمدي أمام كتاب هو جنين مكتمل أو حديث الولادة لكنه لم يتنفس بعد، ومقضي عليه بالإعدام.

كتابي البكر كتبته في السابعة عشرة ثم في التاسعة والعشرين من عمري، كتاب الصبا والشباب، محكوم عليه بالإعدام! بعد مشاورات وحيرة وصلنا إلي اتفاق أن أتحمل أنا شخصيا بقية نفقات طبعه ونشره وكان معني ذلك أن أحرر علي نفسي كمبيالات شهرية قيمة كل منها عشرة جنيهات (في تلك الأيام كانت العشرة تساوي علي الأقل مائة جنيه أو أكثر) لمدة سنتين أو ثلاث، وكانت تلك مخاطرة لم أكن أعرف عواقبها، حدث بعد ذلك أن أوقع الرجل علي الرغم منه مايسمي ب(البروتستو) عليّ يعني دفع بالكمبيالات إلي البنك لأني تأخرت في السداد بطبيعة الحال، وأخطرني البنك بالحجز ولا أعرف كيف تخلصت من هذا المأزق.

كانت المطابع حينئذ ترسل بروفات الطبع إلي مكتب للرقابة، قبل الطبع وقبل احتمال الخسارة المادية بالمصادرة أو المنع. استُدعِيت إلي مقابلة الرقيب. نسيت اسمه الآن ولكني أذكر أنه كان من الضباط الأحرار من غير الصفوف الأولي، ولعله هو نفسه الذي شغل فيما بعد منصباهاما في الرقابة علي الصحف، ثم في الصحافة نفسها. أو لعلني قد أنسيت، في النهاية، من هو !

علي أي حال كانت لي معه جلسات عديدة دارت فيها مناقشات طويلة، ودقيقة، وأشهد أنه كان يتمتع بحس لغوي جيد، وكانت إعتراضاته تنصب كلها علي ألفاظ وعبارات، رآها «تخدش الآداب العامة» ـ أليس هذا هو التعبير المألوف ؟ ـ ورأيتها ضرورة جمالية

وفنية ـ مهما بدا من أنها إيروطيقية أو حسية أو شبقية ـ في سياقها الفني القصصي، وكان علي أن أعود إلي بيتي، ممزق الروح وجريحا، لكي أعيد صياغة الجملة أو العبارة وأعدلها، بكل ماأوتيت من رفق وذكاء وحسن تخلص، بحيث أحس أنني لا أخون نفسي خيانة لا تحتمل.

إليك مثالا عما أقصد :

كانت عبارتي الأولية ـ ولا تنس أنها الآن فلذة منتزعة من سياقها وأن قراءتها الوحيدة الصحيحة إنما تأتي في ذلك السياق ـ هي :

«فسقطت يده، بثقل، واصطدمت بلحم وركها من فوق الفستان الخفيف». ولكنها ظهرت علي النحو التالي :

«فسقطت يده بثقل، واصطدمت بها من فوق الفستان الخفيف».

فانظر الفارق.. !

أو في هذا المشهد من « مغامرة غرامية» في عتمة السينما :

«وهو يحمد للظلام ستره ومؤامرته. وذهبت يده تتلمس ذراعها الغضة في العتمة، وتعتصر ساعدها المكشوف علي جانب المقعد، تفركه في تماسك متلهف، ثم انحدرت علي فخذها تتلمس طراوته من علي الفستان الرقيق الناعم وتمشي حتي تقع فجأة علي الركبة، فتنزلق تحتها وتغوص بين اللحم الدافيء الطيب ومقعد السينما الجلدي، ثم تطمئن حينا هناك وادعة، ناعمة بحس الجسد تحت نسيج الشراب الذي يلف أعلي الساق لفة وثيقة حنانة، ثم تستأنف يده تجوالها واستكشافها، فإذا يدها تمسك بأصابعه فجأة، بعنف متشنج، كأنما إثارته لها قد بلغت حدها».

لكن هذه الفقرة الطويلة ـ والهامة دلاليًا ـ ابتُسرت إلي مايلي :

«وهو يحمد للظلام ستره ومؤامرته. وضم ذراعها إليه في تماسك متلهف، ثم أطمأنت يده وادعة ناعمة بحس الرقة الطيبة.»

أحصيت في الكتاب تسعة عشر موضعا كان لهذه الرقابة عليه عدوان من هذا القبيل، لابد أن أعترف أنني شاركت فيه ـ قسرا ـ إذ كان الخيار بين أن ينشر الكتاب معدلاً كما تشاء السلطة، أو أن يمنع من النشر أصلا.

كم يسعدني الآن بعد ذلك بسبعة وثلاثين عاما بالتمام والكمال أن يظهر الكتاب، كاملاً، لم تتحيفه يد البتر والتشويه، علي صورته التي جاء بها أصلا، دون أدني تدخل، كما كتبته في الاربعينيات وفي منتصف الخمسينيات، وفقًا للمخطوط الأصليّ.

المهم بعد ذلك أن الكتاب نقل إلي بيتي بكامل الثلاثة آلاف من نسخه. ونهضت بنفسي بمهمة توزيعه علي الأصدقاء والنقاد والكُتاب والمعارف، كان هذا هو كل طقس الاحتفال بالحب الأول الكتاب الأول. إلا أنه في ندوة نجيب محفوظ التي نوقشت فيها مجموعة «حيطان عالية» في كازينو صفية حلمي بالأوبرا وشارك فيها يحي حقي وعبد القادر القط وعلي أحمد باكثير وغالي شكري وكثيرون غيرهم كان منهم الطالب الذي حصل علي شهادة الثانوية ذلك العام واسمه ماهر شفيق فريد ، أصبح الآن ناقداً وكاتباً مرموقاً، انبري أحد كتاب القصص الواقعية جداً وقد سقط اسمه تماما من التاريخ الأدبي الآن، وقال : إن

هذا ليس أدبا ولاكتابة بل هو جنون.. والمكان الوحيد اللائق بكاتبه هو السراي الصفرا !!

فياله من احتفال !!

قال يحي حقي بعد ذلك إن هذا الكتاب «بشارة وتأكيد في الوقت نفسه لمولد كاتب موهوب واحتلال مكانته في الانتاج الأدبي لأنه أثبت أن صاحب الموهبة الأدبية ينبغي أن يكون في الوقت ذاته عالماً بالأدب، فهذا هو طابع العصرالحديث، وفوق ذلك رسم منهجا للأسلوب يطابق الاتجاهات الحديثة في القصة.»

وقال عنه نجيب محفوظ «مغامرة من مغامرات الأدب الحديث المعاصر، صوّر الأشخاص وهي تفكر وتعاني المشاعر من حب وقلق وتوتر وصفاء، فأكسب نماذجه حيوية فكرية نابضة» كان ذلك في ١٩٥٩.

وكُتبت عن الكتاب مقالات نقدية جادة قليلة تحتفي به. ولكن الكتاب كان مع ذلك أشبه بصدمة.

ثم غاب الكتاب، فيما خُيّل إليّ، في غياهب من فقدان الذاكرة الأدبية لفترة تقرب من عشر سنوات حتي عاد الاهتمام به فجأة حول ظاهرة مجلة جاليري ١٩٦٨.ولكنه لم يكن قد غاب، حقًا، فيما أتصور. عرفت عندئذ أن الكتاب كان يشق مساراً خفيًا في الحياة الأدبية، وتأيدت هذه المعرفة عندما أرسل لي صبري حافظ رسالة من أكسفورد، في أول يوليو ١٩٦٧ يقول فيها» عندما قرأت لأول مرة مجموعتك

امتلأت بدهشة الاكتشاف وهزتني بكارة العالم والعلاقات بين الأشياء والموجودات معا... هاهي معاناتنا التي لم نعرف كيف نصوغها في كلمات ولكننا عشنا كل ذرة فيها تجد نفسها على الورق».

كان اهتمام جماعة جاليري ٦٨ بالكتاب وحفاوتها به تأكيداً لهذه المعرفة وإيذانًا بميلاد جديد.

ادوار الخراط

حيطان عالية

وقف علي الباب، في الطريق الضيقة بين مخازن القطن. ومزقة من سماء الغروب الباهتة معلقة من فوقه، من بعيد.

كان قد حيي زملاءه الذين انصرفوا من قبل إلي شئونهم. وكأنه يتردد اذ يترك يومه الطويل الممل من الكتابة في دفاتر حسابات المخزن، ويهم بالعودة، وخطواته تنقله من حياة إلي حياة.

ضاع في سيل من الناس يهرولون في الطريق التي تجري إلي جانبها ترعة المحمودية، والمخازن تقفل أبوابها وخفراؤها يتحققون الأقفال، ويتحدثون في كسل، ويحسون الليل لما يكد يبدأ.

سحابة مقطعة تترك ذيلها المحمر علي كوبري القباري، وعربات الترام تصلصل في الشارع بين سيارات النقل المسرعة المكومة بالقطن، والكوبري يبدو من بعيد لعبة من الحديد الرقيق تضطرب فوقها الناس والعربات، دون معني.

وقف ينتظر الترام، في حشد من العمال وصفار الناس، وجوههم قاتمة مربدة تضيئها لمعة عابرة إذ يتركون عمل يومهم ويعودون ينشدون شيئا من نسيان أو شيئا من حياة.

وأحس الميدان تملؤه العربات والدبدبة وطنين الناس، والسماء تتسع فجأة فوقه فإذا هي فسيحة براح يخامرها ضوء آخر النهار، وأحس وحدته في هذا الغمار تنفتح في داخله كحفرة، لأنه يعود إلي بيته، ولكنه لا ينتظر شيئا، فهناك امرأته تقف أمام موقد الجاز في المطبخ، وسائر الغرف مظلمة مقفلة، وبنته في غرفة النوم ـ مريضة. وفي البيت خمود وملل رازح. لكن نفسه لا تنزع به مع ذلك إلي القهوة ولا إلي أصحابه فيها. وهو الليلة لا يكاد يطيق شيئا. يعود إذن يقرأ الجريدة ويتعشي وينام، فهو قد ضاق بيومه كله، ويود لو إنتهي منه سريعا. بل ضاق بكل شيء، وقلبه ينقبض من الضجر والقهر كأنه أضاع شيئا عزيزا إليه، أضاعه بلا رجعة.

ومد للكمساري قرشا فوق أكتاف الناس، والترام مندفع يهتز، يقطع الشارع الطويل، ونسي نفسه لحظة، في زحمة الأجسام المتعبة يفوح منها في الحيز الضيق صنان العرق وشغل النهار.

وهو يخبط علي الباب ولا يرد عليه أحد.

فخبط في شدة وضيق. وألقي بالتحية إلي امرأته وسأل عن البنت، فأجابته باقتضاب:

ـ كويسة.

ـ نايمة والا ايه ؟

ـ مش عارفه، أهي في السرير.

وجلس علي حرف السرير. وطالعه من العتمة وجه بنته، أسمر منحوفا، مشتت الشعر ضئيلا، هذا الوجه الصابح الغض وقد تهضمه

المرض ونشف ماءه، وعيناها الكبيرتان تقفان عليه، في تساؤل. كأنها حيرانة، لا تفهم. وعلي جبهتها المدورة ندي خفيف من العرق. فوضع ذراعه حول كتفها الصغيرة وهو ينحني عليها، وقد در قلبه بالتحنن، كأنه يعتذر لها من صحته.

وسألها هل أكلت، وماذا تحس الآن؟

ولم تكن هذه الغرفة بالذات مضاءة، فأسلاك النور متعطلة فيها، ولم يتح له أبدا القليل من الفراغ، ولا القليل من النقود، حتي يصلحها.

وامرأته تأتي فتقف بالباب هنيهة، ثوبها قديم ينحسر عن بضعة من صدرها الصغير المرتخي. وإذا اندلاعة من حبه القديم تحرق صدره فجأة.

وقد انقضت خمس سنوات منذ تزوجها، لكنه لم يستطع أبدا أن يستقر إلي حبها. أهي تحبه، هذه المرأة التي تزوجها والتي تقف بالباب، وثوبها الذي كاد يبلي يلف جسمها الصغير الناعم، جسمها اللدن الضيق؟ إنه يعرفه علي الأقل، هذا الجسم. يعرف طراوته الغضة، وجلدته المرهفة الحريرية، يعرف رجفته اذ يستجيب له، وحرارته وتقبضه بالنشوة، ويعرف ملاسته واستكانته ووداعته تحت أصابعه الملاطفة، ويعرف برده إذ يكون جائعا إلي الحنو، وجائعا إلي رجولته، ونداءه الخائف، من غير صوت. ويعرف نفرته أيضا ورفضه، وانكماشه وانزواءه كحيوان خجول وحشي يدفع عن نفسه، ويقفل أبوابه علي ظلامه الداخلي. نعم يعرفه، جسمها، لكنه لا يعرف أبدا ماسر الهوي الذي يعيش في هذا الجسم. أهناك هوي، علي الاطلاق، يعيش فيه؟ شيء يشبه، ولو من بعيد، هذا الحريق الذي يأكل نفسه الآن، سعر من

التوق إلي الزمالة وإلي الفهم، ونار تشتعل من نسيج النفس وحدها، لا صلة لها بالدماء، حريق من حسه بالوحدة، بأنه مرمي وحده، في عزلة نهائية، دون أمل في النجاة.

وهو إنما يطلب من حبه أن تتهدم فيه أسوار هذه الوحدة، وبمضه شعوره أن لاجدوي هناك، فامرأته صامتة وغريبة، أجنبية. وهو وحيد أبدا. وهو يهم أحيانا أن يهتف بها أن يزعق فيها، لكي تكلمه، لكي تقترب منه، لكي تمد إليه يدها، تفعل شيئا، أي شيء، يشعره أنه ليس غريبا، هو، ليس شيئا، هو ، آتيا من مكان آخر غير معروف، ليس منفيا ملقي به في العراء، أنه في النهاية ليس وحده ، وحده ، وحده مقضيا عليه دون خلاص بهذه الوحدة التي لا تطاق.

لكنه لايجد مقدرة أن يهتف بها، بل أن يهمس لها. ويشعر فجأة أن لاطريق إليها، فهي في معزل، لا تنال، ويده لن تطولها قط. وحبه لها يأكل نسيج نفسه، لأنه يود أن يطويها بين ذراعيه، أن يأخذها إلي حضنه قريبة حميمة كأنها بضعة من قلبه ولحمه، كأنها تنبض في داخله، ويعرف أن لاسبيل، وترمضه معرفته.

وسوف يدوسه القهر، لأنه في كل مرة يعود محبوطا. ومهما عصرها في لياليه ودعك لحمها إليه، فهي أخري ماتزال، غريبة، بعيدة، منفصلة. وهذا الشوق جائع أبدا لن يعرف الرضا. هذا الشوق الذي لايعرف أن يسميه، لكنه هناك، لا يتبدد، لاينحلّ.

وهاهي ذي تقف بالباب، وحول عينيها حلقات سوداء من النَصَب والهم، لعلها هي أيضا أن تعرف معني الوحشة في هذا البيت، مرقد الجاز يفح، وأسلاك النور معطلة، وبنتها مريضة، وهي محبوسة بين هذه الحيطان. لايدري. فحتي وحشتها صامتة، غريبة عنه، لا طاقة لها به.

وأمرأته لاتعرف أن تتكلم، أن تعطي لنفسها أصواتا، بل لا تعرف أن تعبر عن نفسها بشيء آخر غير الكلام. مهدودة تماما، كأن نفسها لم تولد أبداً وظلت برعما خشنا خاما مغلقا علي عصاراته الكثيفة، لن ينفتح.

ـ أحضر لك العشا ؟

ـ عندنا ايه ؟

ـ بطاطس ورز.

بطاطس ورز، من طبيخ الأمس. هذا الأكل الذي تقدمه له، معجونا دائما لزجا في الزيت والدمعة. قوام حياته التي ألف طعمها الآن. وهو متعب فجأة مهدود، ولاشهوة له لشيء. لكن فراغا في أحشائه عليه أن يملأه بهذا العجين المطبوخ، كدأبه كل ليلة.

ووضعت له طبقين علي السفرة القديمة المغطاة بمفرش أبيض حائل مبقع، وسمعها تعود تتحرك في المطبخ من جديد، أمام موقد الجاز،

ـ مش حتيجي تتعشي معايا ؟

وجاء ردها من المطبخ، وهي تغسل شيئا في الحوض.

ـ ماليش نفس دلوقت، يمكن آكل بعدين. باعمل لك الشاي، عايز شاي ؟

ـ آه.

من فم ممتلئ.

وأخذ يحسو شايه الثقيل المسود، وينفث دخان سيجارته الهوليود اللاذعة وفمه يعود إلي إلف إحساسات المساء العادية، يتطعم البطاطس والشاي الخشن المر ودخان الهوليود علي لسانه، لا لذة فيها إلا متعة العادة القديمة، وسمع بنته تكح من عتمة غرفة النوم، كحة مؤسية وهنانة تهتز بجسمها السخن الملقي عل الفرش. وغشاه العالم يضيق حوله وينقبض به، والبيت كالسجن لا حول له فيه ولا يد له في شيء.

ـ البت خدت الدوا ؟

وامرأته تجيبه، ولهجتها تشي بالمرارة، نعم، ومع ذلك فها هي كما تري سخنة، ضعيفة، تكح.

وهي تأتي من المطبخ تجفف يديها في فوطة مشعثة، وقد وقعت خصلة من شعرها الأسود اللامع علي جانب جبهتها. وانبثقت في داخله فجأة شهوة أن يأخذ هذا الرأس بين يديه، فيغمض عينيها بفمه علي ما فيهما من عتاب، ويمر براحتيه علي هذين الخدين فيمحو برقة خطوط الخيبة والمرارة التي يراها علي صفحة وجنتيها، أن يحتوي ذقنها بين كفيه، وأن يدفن رأسه ووجهه جنب عنقها، في تسليم وضراعة لأن تعفو، فما بوسعه شيء، كأنه حبيب صغير مخيب الامل.

لكنه ظل علي كرسيه، تشعفه شهوته ولا يفعل شيئا، غريبة هذه الإندلاعات، كأنهما لم يتزوجا منذ خمس سنوات، كأن يديه لم تعرفا بعد مسة خديها وملاسة جسمها كله، وخصب شعرها الناعم الهين بين أصابعه، كأنه يشتهيها لأول مرة. وترك رغبته تمضي، غير متحققة، شيء مافي هذا الوجه المتعب المغلق يحبطه ويصده، شيء يبعدها عنه، وهو يوجس منها، كأن في نفسه دبيبا لا يكاد يستبين من حسه بإثم ما، يذنب غير محدد.

وحفزه شيء فاختطف سترته وهب متجها بسرعة الي الباب، وهو يقول،

ـ أنا رايح القهوة شويه. يمكن أتأخر بالليل.

صدمه هواء الليل، والشوارع المزدحمة الضيقة بأنوارها الكثيرة تومىء، وتبرق وتغمز في داخله فتحات حساسة، كما لو كانت الأنوار وخزات تنخس الجلد الملتهب المشدود علي جروح ضارية مفتوحة. والترام يجري في الشارع مليئا بالناس، والباعة والعساكر والسيارات تقبض علي هامش وعيه بأصواتها، لكنها ترميه بعيدا، الي بعد آخر من أبعاد غربته.

ودار بنظره في القهوة فلم يجد أحدا من أصحابه، وهبط ثقل جديد بقلبه إلي أسفل. ألن يجد أحدا يلعب معه الليلة؟ هذه الليلة.! لكنه لن يطيق الجلوس هنا وحده بين الناس. لن يطيق. لن يحتمل.

وانفرجت نفسه فقد وجد شخصا يعرفه هناك، ليس صديقا بالتأكيد لكنه يعرف هذا الوجه. فقط نسي اسمه. هذا الوجه مألوف إليه، بل مألوف جداً. كأنه يراه كل يوم. لكنه لا يتذكره مع ذلك. هذا الشعر الأكرت وهذه النظارات علي عينين ضيقتين مطفأتين، والجبهة الضيقة والذقن المنحدر الي الوراء.

واذا هذا الوجه القشف العنيد الجهم يبتسم له فجأة، ويقوم إليه يحييه، واتجه إليه مترددا، يرد التحيه.

ثم يقف مرة واحدة، وقد تقبضت المفاجأة بقلبه وأحس ركبتيه تكادان تتخلعان به. هذا الوجه وجهه، وجهه هو. كأنه يري نفسه خارجا من المرآة، بل من صورة فوتوغرافية مجسمة حية إطارها عرض الحياة نفسه.

وتوقف ذهنه، وأحس أنه لم يعد يفهم شيئا، ولم يعد يهتم.

ولكن الآخر دعاه إليه وسلم عليه، وفي عينيه بريق خبيث، كأنه، هو، يفهم. والناس حولهما يلعبون الطاولة ويدخنون ويلغطون، ويجلسون علي كراسيهم في خمول، ينظرون الي الشارع والترام والبنات. كأن شيئا لم يحدث. كأنهم هم أيضا لا يجدون في الأمر غرابة، ولا ينكرون شيئا، أبدا، علي الإطلاق.

والجرسون يأتي، والآخر يطلب اثنين قهوة علي الريحة، وطاولة. كذا. دون سؤال. دون تردد. كأنهما صديقان قديمان. وهو لم يتكلم بعد وقد عقلت المسألة كلها لسانه، لكن الآخر يسأل عن صحته وكيف الحال ؟ فيرد عليه بشكل آلي، وذهنه غائب، وهو يحس ألفة به، كأنه لم يتركه الا بالإمس فقط. كأنهما يريان أحدهما الآخر كل يوم، ويعرفان أحدهما الآخر منذ الطفولة، وقد تكلما في كل شيء، وعرف أحدهما الآخر ظهرا لبطن، ولم يعد لديهما جديد يقولانه، فلم تبق إلا الطاولة. نوع من الألفة الوثيقة الحميمة تربط بينهما، معرفة الشخص لنفسه.

لكنهما الليلة يلعبان الطاولة علي شيء له أهمية وخطر. والحماس يرتفع في صدره الآن، ويشعره بحمو جديد غير مألوف. لابد أن يغلبه الليلة، هذا الآخر. مصيره كله، بشكل غامض، معلق بلعبته الليلة، لابد، لابد أن يظهر عليه، أن يغلبه غلبة نهائية، حاسمة، باهرة. والآخر ينظر اليه من وراء نظارته، وهذه اللمعة تضيء عينيه، فهو يعرف أهمية اللعبة، لكنه واثق من نفسه، كل الثقة، هذا الآخر.

وغاظته هذه الثقة من الآخر، وأوغرت صدره، فهو يلعب في يقظة ودقة وحرص. وينسي القهوة والبيت والشغل، ويفقد الشارع والناس، ولايبقي أمامه إلا الأقراص تدور وتنتقل وتخبط خشب الطاولة، تخطط مصيره في حسابها الدقيق. ويداه ترميان النرد وعيناه تتعلقان به وذهنه يعمل في نور سخن صافٍ. وهما يترامقان بنظرات خاطفة وليس بينهما إلا حساب الطاولة يتتابع ويدور سجالا، وفي داخله حس بالعداوة لهذا الآخر الذي يحمل وجهه بل يحمل نفسه أيضا. عداوة وغربة ومقت. وهما يعرفان أحدهما الآخر حتي نبضة الدم في غور الشرايين، لكنهما منفصلان وجسمه يقف بينهما، حائطا من الحجر لاثغرة فيه، مغلقا علي سره. حائطا لن تنفتح فيه فجوة. وحياته تدور من داخل الحيطان، حياته بأسرها شيء خاص، لايهتم به أحد في الخارج، ولا يعني أحدا، ولا هذا الغريب.

هذا الغريب الذي يعرف ذلك كله، ولا يوليه أي اهتمام. بل بارد وقاح، يلعب مالكا زمام أمره، في هدوء من يعرف أن الكلمة الاخيرة له.

ويسأله الآخر فجأة :

ـ إزاي البنت النهار ده ؟

فوقفت يده فجأة وبرق فيه عينيه، في موجدة. كأنه يكايده هذا الأخر يسأله عن بنته المريضة كأنه يتابع أخبارها يوما بيوم، ويسأله بكل هذه اللامبالاة. وأخذت عينه رفوف القهوة وقد رصت عليها الاكواب

والفناجين وأوعية الشيشة النظيفة، صفا فوق صف، والصبي يعمل في جد بين مواقد الجاز، بلا تعب، والجرسون يصيح من بعيد واحد مضبوط واثنين سحلبْ عندك، وعاد يهم بمواصلة اللعب لولا أن شَلته المباغتة، دفعة واحدة، وأحس الارض تميد من تحته، والقهوة والناس في مقاعدهم تتألب عليه، كهزة من موج ثقيل. وخسأ بصره دون أن يتحكم فيه، ثم عاد ينظر،مشدودا الي النظر بقوة لا تدفع. لم يكد يصدق عينيه. لكنها هناك. لاشك في ذلك. وهو لا يحلم، لا يهذي، بل يري يعينيه. والناس أيضا يرونها دون اهتمام، ثم يعودون لشئونهم، كأنها لا هي بالجديدة عليهم ولا شيء غريبا في الأمر كله. وعاد يختلس نظرة الي الآخر فاذا هو قد أشعل سيجارة هوليود وأخذ ينفث دخانها وهو ينظر اليه، في هدوء، كأن الامر لا يعنيه، بل لا يعني أحدا. وهو يقول مشيرا اليها، في ركن القهوة تحت صفوف الاكواب والفناجين وأوعية الشيشة المرصوصة، جنب مواقد الجاز، بنته، عارية تماما علي سريرها، تحت العيون جميعا، مكشوفة في وسط الناس.

ـ لسه تعبانه برضه. معلش بكره تصحي.

والجرسون يدور من جانبها، يؤدي عمله ولا يكاد يلتفت اليها، وهي عريانة، يلقي إليها بنظرة لا مبالية، وهو يطأ جانبا من ملاءة السرير البيضاء التي تقع من حرف الفراش علي بلاط القهوة، كأنها هناك من زمن طويل.

والأمر علي ذلك غريب، غريب، لا يصدق، جنوني، لكنها هناك، هاهي ذي، ليس هناك تخييل ولا هذيان، وهو صاح كل الصحوة، وكل شيء حوله مجسم ملموس، وباب القهوة مفتوح علي الشارع، مفتوح علي النور والضجة بالخارج، والترام مليء يجري بالناس، والمارة والركاب يستطيعون أن يروها علي سريرها. والباعة والعساكر يروحون ويغدون، والبنت علي فرشتها، تحت الضوء القاسي، بين ضبابات الدخان، عارية تماما، بجسمها النحيل الضيق الطفلي، وقد التصقت خصلة من شعرها الخفيف بجبهتها المدورة المنداة من العرق، وعيناها تتجهان إليه، من عريها التام، في حيرة من الألم والمرض، عارية منهوكة ملقاة، ذراعاها ممددتان الي جانبها، لاحياة فيها وساقاها الطفليتان الطويلتان لاشيء يغطيهما، وقد برزت ركبتاها في جفاف، وعضلات فخذيها ضامرة نحيلة، وضلوعها وعظام جنبيها ناتئة واضحة من الهزال، تحت الجلد الباهت المشدود، وزغب المراهقة الأولي لا يكاد يخفي تلك الفتحة البذيئة تحت هذا البطن الهابط الأجوف. وباب القهوة مفتوح مع ذلك علي أنوار الشارع، والناس مشغولون بلعبهم وتدخينهم وحديثهم، يلغطون ويتثاءبون من ملل قعدتهم الطويلة.

وأحس خدرا في جسمه يشله عن الحركة. الناس كلهم يقبلون هذا الأمر كأنه يدخل في سياق المجري العادي للأمور. وهو أيضا، بشكل لا يصدق، كأنه يعيش في مستوي آخر من الحياة، يقبله، ويسلم به.

والآخر يرمي النرد، وهو لما يكاد يتوقف لحظة واحدة.

واستمرت اللعبة علي بعد خطوات من السرير الذي ينصب عليه النور الخشن، وعلي تلك الجثة العارية الحية تحدق إليه بعينيها الوادعتين البريئتين، لا استغراب فيهما ولا قلق، بل حيرة من الوجع وتساؤل صابر معلق.

والآخر تلمع عيناه في ثقة.

لكنه أيضا قد تجمد في نفسه العزم علي النصر، وتحجرت إرادته في عناد، وهو يشعر بالخطر يحدق به من كل ناحية، من هذا الوجه، الذي يعرفه، لكنه نسي اسمه، وهذه القهوة بموائدها التي يستلقي بينها سرير بنته العارية المريضة، كأن البنت، بشكل غير واضح، غير واضح أبداً، موضوع لعبته الليلة، الأمر يتعلق بها بشكل أو آخر.

واندلعت في نفسه شهوة في أن يحيط هذا الصدر الضيق الناحل، صدر بنته الطفلي لما تَكَد تنبثق في حلمتيه الصغيرتين عصارة المراهقة الخام، يحيطه بذراعيه ويدفن رأسه فيه، كأن فيها شيئا من إمرأته التي تركها بالبيت من زمن طويل، وأن يرتمي عليها فيخفيها عن هذا العالم في عتمة حبه لها، أن يهب هذا الجسم العاري المريض صحته وقوته، وحياته كلها، أن يكفر، نعم يكفر بكل ماء حياته عن ذنبه الذي لا يعرفه الآن، ولا وقت لديه يفكر فيه، ولكنه مسئول بشكل ما عن مرضها وعريها وانكشافها للضوء الصلب الجاف الذي يسقط عليها بكل ثقله فيطؤها وينوء بها، ويشلها، وتلح به رغبته أن يستغفرها،

بنته، أن يبكي علي حرف سريرها، علي طرف قدميها الصغيرتين البارزة عظامهما في نحول رقيق، وأن يبرها ويعوضها، بلي يضحي بنفسه من أجلها، نعم يضحي بنفسه، فهذا هو المطلوب منه. لا أكثر ولا أقل، حتي تأنس من هذه الحيرة التي تطل من عينيها، حتي تستريح، وتتغطي، وتبتسم.

لكن الناس ينظرون إليها كما لو كانت شيئا قد ألفوا رؤيته، ويستمرون في شأنهم. وهو يشعر بما يتهره علي استئناف لعبته، فها هو الآخر ينتظره ويلعب معه كأن الامر كله غير مسل علي الإطلاق، فليس هناك نصر ولا غلبة. واللعبة دائرة.

وكان الليل هادئا وهو يرجع الي البيت، والنجوم ترمقه من بين سطوح المنازل، والحيطان ترتفع علي جانبيه، صامتة في كبر، والأنوار قد أنطفأت في النوافذ، والأحجار مقفلة علي الحيوات التي تنبض وتنعس وتمور خلفها، مسدودة، مصمتة. والتعب يتفتر بجسمه، ولا هدنة هناك، وإنما هو الشوق ينزع به الي الدفء يتلمسه من جسم امرأته في الليل، حتي الصباح، وقد عاد لا يدفعه إلا الرهق حتي يأوي الي قطعة من الأرض ألفها ويؤوب الي حضن أنثاه، ينشد ليلة راحة، حتي الصباح.

الشيخ عيسى

كانت البلد هامدة في التراب، قديمة ومنسية، والأرض تنفث طبقة من الحرارة، وعواء كلب ينبح في الظهر.

وكان الشيخ عيسي مكوما علي مصطبته العريضة تحت تعريشة الخشب التي تتعلق بها فروع العنبة الناحلة المهزولة، تتدلي أوراقها المتربة، جافة صغيرة مكتومة النفس، والشيخ جامد جمود القرية كلها، وقد سكنت تحت حمل باهظ ينوء بها، وبطؤها في الحر. وفي آخر الحوش يبرك الجمل العجوز بجرمه الشاهق، مغمضا عينيه نصف إغماضه، يجتر طعامه ببطء ويلوك أحلاما لانهاية لها.

وفي عيني الرجل شعلة صامتة.

وكأنما القرية قد سكتت، في رهبة من هذا الشيخ تخشي منه شيئا غير مفهوم، وتحسب له ألف حساب.

ـ أهو يعني بخوفهم منه الآن ؟ يحسبون له ألف حساب.

تململ في جلسته. وكان يصل إليه عبر السكون القاحل نقيق الدجاج

وقد سقط علي أرض الحوش وبسط أجنحته من الحر وهو ينهج.

ـ الفراخ دي مش حتبطل تنفخ ؟ الهي يخسفها.

ـ ايه ياسيدنا الشيخ، عايز حاجة ؟

بصوت جاف مشقق هرم.

كانت أم السعد تغسل الآنية تحت الزير. وصوت ارتطام الماعون وجريان الماء الذي يندلق علي الأرض يزيد من لهفة الظهر.

ـ يألله. يارب.. أنت ياولية يام السعد، هاتي شوية اللمية.

وأم السعد تمعن النظر إليه من عينين واهنتين، وهي تنحني بصعوبة في ثيابها السوداء الباهتة، تصب له الماء العكر من الابريق، وقد شمر الشيخ عن ساعديه ومدهما.

ـ يحسبون له ألف حساب.

كان مازال يعيش في ظل السطوة التي فرضها أبوه علي البلد، عندما كان شيخها وعميد خفرها، ومن أكبر أصحاب الطين فيها.

نعم، دوخهم أبوه وسامهم العذاب. ومنذ مات عاش ابنه وحيدا أو كالوحيد، في الدوار الكبير، يقرأ في مصحف كبير وكتب الذِكْر الثقيلة الصفراء ومعه كبرياؤه، وجراح لم تندمل.

عاد من المعهد بطنطا، وقد كفَّ عن الدرس، بعد سنين طويلة، لم يحصل علي شيء وعزف عنه القرويون، وتولدت حواليه مخاوفهم كالحلفا تنمو علي شطّ مصرف ضيّق. فقد كانت له عين تصيب كل شيء في مقتل، وتفلق الحجر.

وأدرك الرجل قوته، وامتلأت نفسه مرارة، وازداد كِبْرا. وأصبح شيئا يلهم أهل البلد بالوهم والهول، ولكن في رعبهم منه شيئًا من شفقة وسخرية مستخفية، كأنه مقام شيخ من أولياء الله الطيبين علي السكة الزراعية حيطانه قديمة مشروخة لكنهاحزينة ومَخُوفة.

كان الشيخ عيسي ينظر إلي الترعة الضحلة الضيقة التي ينفتح عليها باب الدوار، كمن يبحث عن شيء. وجماعة صغيرة من الوز قد سكنت بين أكوام القذر والوحل الذي ينضح عليه الماء في الشمس، ثم حفزها شيء فهبت تزعق فجأة وهي تنزلق في الترعة الضيقة، تسبح بإستسلام في حلم محبوس. والسماء تفدح كل شيء في كابوس أزرق صاف ثقيل.

وارتعشت يداه تحت خيط الماء الذي ينساب من الابريق الصدىء. سنوات شبابه قد انسابت من بين أصابعه وتشربتها هذه الأرض.

كان بعد وفاة أبيه تُمضه وحدته أحيانا، فينطلق في ليالي الصيف الباهرة، أو في عتمة أماسي الشتاء، يعبر طرقات القرية، ماشيا ببطء، دون ركوبة، بين أكوام السباخ، مستندا إلي عصاه، لا صديق له، يحييه أهل البلد بصوت خفيض حتي يصل إلي جسر النيل، وحده في الخلاء الفسيح.

وطار له صيت بأن له صلات خفية مع أقوام من تحت الأرض، وجنيات من البحر، وحكايات مخوفة لا يجاهر بها أحد، وانما يتسارّ بها

الناس في مجالسهم الحميمة، حول أكواب الشاي. في المساء.

وفي تلك الليلة رأي جماعة من بنات القرية، يضحكن علي الجسر المقفر، في الضوء الرقيق، ويتمشين كعادتهن في ليالي القمر، وقد وقفت جماعة من الفتيان أبناء رؤوس العائلات علي مبعدة. وعندما وقع بصره عليها بين البنات وقف بدهشة. وسطع في نفسه وهج جديد أكّال، كنار فرن عظيم، يوقد في ليلة مولد مبرورة، كانت مرحة، مرهفة، ورقيقة في جمالها، تشع منها السعادة. وكان منفردا، شقيا، وقويا في كبرياء شقائه.

وطلبها الشيخ. ولم يكن ثم وسيلة للرفض، فهو رضيّ الحال جدا، بل ذو يسار، وعنده طين كثير، وفي عز الشباب، ومن بيت كبير،

والبنت مادام الشيخ يريدها، مقضي عليها علي أية حال. ودخل بها بين الزغاريد. والدموع المراقة في الخفاء وطلقات النار.

نتر المنشفة من علي ذراع أم السعد وجفف يديه في ضيق، واستند إلي الوسادة القديمة الطرية، والظهر ينسحب رويداً، وسرب السحاب يتشتت ويضيع في السماء الضحلة.

ماتت زوجته وهي تضع له مخلوف. وسكتت صرخاتها التي كانت ماتفتأ تخرج إليه ليلتها في وجع الطلق، من دفء غرفتها المعتمة، تخرج إليه مع رائحة الدم والتبن والشيح ودخان الكانون تطعنه بهذا الألم الذي لا يُطاق، هذا الألم الذي ليس فيه خوف وليس فيه حياء، بل

لم يعد إحساس، ولم يعد إلا ألما بحتا صافيا مطلقا ينفجر مع كل صرخة، بلا حدود. ثم جاءت لحظة من الصمت والسكات الفاجع. وارتفع العويل والصراخ مرة واحدة، ثاقبا، ولطمات النسوة تدق قلبه وتهده حتي لم يعد يحتمل. فخرج الي الجسر، والقمر يصب عليه ضوءه القاسي. وأشرق الفجر، وحميت الشمس وهو لا يحس الفجر ولا الشمس، بل تدور به الطرق المترية بين حقول الذرة التي تطبق عليه من كل ناحية، وهو مايزال يراها تلهو مع صويحباتها في القمر، ويسمعها تئن طويلا ثم تنفجر في زعقة الألم، تطعنه مع رائحة الدم والشيح ودخان الحطب، فيحث خطاه يريد أن يفر، يريد أن يموت، يريد ألا يري ولا يسمع ولا يحس.

وعادت حياته مقفرة من جديد، ومريرة، مريرة. وعاد ثانية الي مصحفه الكبير وكتبه وأذكاره، وتقلد الخلافة من أحد مشايخ الصوفية، وأصبح شيخا في البلد.

وجاء مخلوف، كأمه، ضعيفًا متسقا جميلا، كأنه زرعة صغيرة تنمو في ظل شجرة عتيقة مفتولة العضل، وقد كان الشيخ يحبه. ويعالج أن ينسي مرارته ووحدته وكبرياءه، في سهرات التصوف، وحلقات الذكر التي لا تنتهي، يعقدها أمام البيت تحت الجميزة العجوز، في كظة الطعام الغليظ من الفتة واللحم الدسم ورغوة الشاي الأسود الساخن المر، والبخور الذي يحتوي علي العابدين في عباية ثقيلة ليست من هذا

العالم وتسابيح الصوفية تتدحرج حتي مطلع الفجر بين صفين من الأتباع والمريدين ينهضون وينحنون في انجذاب متصل علي تراب الساحة تحت الجميزة الضخمة الكثيفة الورق، وهم يئنون ويزحرون ويصرخون : الله.. الله.. يعالج أن ينسي ـ لكن هذه السكرات الباذخة الحلال لم تكن لتنسي الرجل، ومايزال فيه جوع لايعرف تفسيره. جوع عميق في أحشائه، جوع ملح لا إرضاء له.

وكان ابنه مخلوف ينمو بين قريباته العجائز، لايري أباه إلا لماما. والشيخ كأنه يقهر الطفل برهبته، كأنه ولي يهبط ليهيل له أكواما من الحب دائما، والزجر والتأديب أحيانا، ويملأ نفسه بحلوي محبته الخشنة الخام كحلوي المولد، ويلهمه مع ذلك بهيبة الشيخ والأب والمؤدب.

ـ إلي جهنم هذا الولد. ماذا عساه يفعل الآن ؟ ماذا عسي يكون شأنه ونادية بنت عبد الدايم ؟ أهناك مايصل بينهما ؟ أم هي تقولات القرويين الذين لا تهدأ لهم ثرثرة، كهذا الدجاج الذي ينق في قلة عقله وسفاهته ؟

ـ هذه البنت. طفلة ما تزال. ولكن يالله، يالهذين النهدين عندما يترجرجان. ويالهذا العود الناعم. هذه الطفلة قد فارت وقامت أمامه فجأة، امرأة مثيرة مشتهاة، شيئا يتحداه ويدعو فيه الرجل المتملك الذي يمزق، بل يشق ويقضم ويمزع ويعتصر.

في هذا الظهر تشتد عليه وطأة رغبات مسجونة ساخنة، كالهوب الذي يفوح داخل قاعة مقفلة مهجورة ظلت الشمس تسفعها طويلا.

ـ مخلوف ؟ ماذا عسي يكون بينهما ؟ لا شيء بالطبع. إن هو إلا نقيق القرويين وثرثرة سفيهة. لا أكثر.

وقد قضي الأمر علي أية حال.

فقد كان دعا اليه أباها منذ ليال، وبعد أن تقضت السهرة أخذه اليه، وأسر في أذنه بما يطلب، من خلال دعواته وبركاته، بعد أن كانت قد مهدت له العجائز من قريباته طريق الخطبة. الشيخ موسر ومن أكابر البلد، وعبد الدايم، وان كان من بيت أصل، قد غمرته الأيام وأخمل الفقر من شأنه. الشيخ موسر حقا رلكن العمر تقدم به، والبنت طفلة ماتزال.

فأجاب في تردد :

ـ دحنا خدامين ياسيدنا الشيخ. والبنت جاريتك. لكن دي لسه صغار. فبادره الشيخ في مشقة، بصوته الأجش :

ـ صغار إيه ياراجل. دي بزتها بجت كد فحل الرمان. تاويها بجولك ياعبد الدايم يابني. تاويها واخزي عين الشيطان.

وارتعد الفلاح بالرغم منه، فقد كان في نغمة الشيخ وفي حركة يده شيء رَهَبه.

ـ طيب ياسيدنا الشيخ، كله علي الله، وادحنا خدامين، ونبجي نتكلم بعدين، علي رواج بعد المحصول إن شاء الله. السلام عليكم ياسيدنا الشيخ، تصبح علي خير.

وانحني يقبل يده الندية من العرق، يكاد يريد أن يهرب، والشيخ

يسقط باليد الأخري حبات سبحته، في بطء، ترتطم الواحدة منها بالأخري، بلا توقف، كدقات قلب عنيد.

أخذت أوراق العنب يسقط منها حفيف مترب، والظلال تطول كأنما تتولد فيها حياة جديدة، خبيثة وواثقة، والشيخ يهتف بأم السعد، بل يكاد ينبحها، أن تعد له القهوة.

ـ اعملي جهوة. مظبوط ياولية. عايزها مظبوط ياولية انتي سامعه. والله ماتخليها حلوه لخلي عصريتك هباب.

كان مخلوف وحده في الجزيرة الرملية التي تقوم وسط النيل، قبالة القرية، وقد جلس علي الأرض، تحت جانب من الخص المبني من الحصير وأعواد الذرة وحطب القطن. والسكون لايشوبه سوي صوت مياه النيل تذوب في الرمل بحفيف خافت، فتجعل صمت العصر أشد عمقا. وهو يسمع نقط الماء تسقط من الزير في داخل الخص، فترن في صفيحة تحته، في ايقاع منتظم لا يتوقف، فهي لن تفرغ أبداً.

وفي نفسه رضي يتعلق بأهدابه قلق غير مستبين، كما لو كان في نهاية نوم طويل عمرته أحلام سيئة منسية. وكان يحس أنها له. هذه القطعة من الأرض، وهذه القطعة من السماء، وأنه بعيد، بعيد عن الحقول السوداء بزروعها المتزاحمة التي يغطيها التراب.

ولم يكن مخلوف محتاجا أن يعمل، فهو من أبناء الأكابر، وكان يحب أن يأتي وحده إلي هذه الجزيرة، ومن طفولته الأولي لم يكن يفضل هذه الجزيرة عنده شيء آخر، فيخوض المياه الضحلة الخضراء التي تفصل

الجزيرة عن جسر القرية، في أيام التحاريق، أو يعبر النيل في أيام الفيضان، خلسة، في قارب عبد الدايم ـ وقد كان له غيط من البطيخ عند أطراف الجزيرة ـ ويجري علي الرمال الناعمة البيضاء، حتي تكل قدماه، يطارد الطيور الزرقاء الرقيقة الطويلة الجناح ترود الجزيرة وتسف أمامه علي الرمال حتي يكاد يمسكها بيده وهو يلاحقها كأنها سهام منطلقة، ثم يلقي بنفسه أخيرا علي الرمل متعبا ينصت في شغف للسكون الحي العميق الذي يمتليء عليه بالسماء، وبدمائه وهي تنبض.

ثم انبثق في نفسه فجأة يوم قاتم من شتاء طفولته، وقد صحبه أبوه إلي الغيط البعيد، وكان الصباح أشرق صاحيا ثم بدأت السحب تتكدس تحت السماء، والريح تصفر في السكة الزراعية الخالية. لكنهما كانا قد ذرعا مسافة ليس من السهل بعدها أن يرجعا، ودفعه مرح الطفولة أن ينزل من علي الحمار الابيض الكبير وأن يجري بجانبه متفلتا من رقابة أبيه بين أطراف الغيطان وهو مايزال يذكر، ويري في أحلامه، كيف صرخ بغتته إذ رأي نفسه يتدحرج ويتخبط ويتشبث حتي وجد نفسه في القاع. وكان المصرف موحلا وضحضاح، فلم يصب بكبير أذي، لكنه لم يستطيع أن يتسلق إلي الحرف إلا بعد جهد جهيد. وهو إذ يتسلق شيئا ثم يقع في الطين تسقط في نفسه أثقال من العجز ومن التمرد. شعور حيوان أبيّ يطبق عليه الفخ وهو يتخبط به يعض الأقفال العصية.وأبوه ينظر إليه من فوق، ككومة من بقايا ضريح متهدم علي جانب الطريق.

كانت طفولته كنبات رقيق ولكنه شره، يتفتق في جنب من غيط سخن خصيب. وكان طفلا كثير السكوت سقيم المظهر. وكان يبكي وحده بصمت في الأركان، دون سبب ، حتى ينام، بكاء الطفولة الذي يثير الشفقة، لأنه ساذج وصبياني لكنه قاس. قاس.

وأحلي ساعات طفولته عندما كان ينسل الي بيت عبد الدايم، حيث يقبلونه بلا كبير احتفال. ويسره هذا لأنه سئم الاشفاق والتدليل والتخويف، وسئم أطفال القرية يخافونه وينفرون منه، وهو حساس حاد الكبرياء، كان يجلس بين أطفال عبد الدايم وأقربائه، يختار مكانه دائما بين نادية من ناحية، ومرضعته أم السعد. وينصت في شغف وخوف الي الحواديت التي تحكيها الجدة العجوز، وأم السعد تتثاءب وتَنْغِض رأسها في ركنها بجانبه. وكان ينسي نفسه تماما فيهتز للشاطر حسن، ويبغض الغول، هذا العملاق الأعرج الأشعر يتلفف بعباءة سوداء كأن فيه شبها من أبيه. فاذا عاد الشاطر الي قصر السلطان وظفر بالأميرة الموعودة أرسل الولد تنهدة ارتياح مُتعَبَة وصافية، لكنه لم يكن يهلل قط أو يهتف مع الأطفال الهاتفين، بل يبتسم. لم يكن يرفع صوته غالبا. فقد كان خجولا منزويا في عالم معتم كئيب.

وكانت ترتفع علي جدران نفسه نباتات غريبة طفيلية من العفاريت المتهددة والغيلان والحسناوات والجنيات. وهو إذ يجري في جزيرته الرملية إنما يسافر كالشاطر، في بلاد الله لعباد الله، ويعود دائما ببنت

السلطان وقد خلصها من جب الغول، لكنه أبدا لا يأمن جانب الشرير الذي عساه يشق الأرض في أية لحظة، كالعفاريت. ويخطف منه حسناء غيلة، ويترك له علي الحائط، آثار أصابعه الخمسة المغموسة في الدماء.

وكان يهرب معظم أيامه من المدرسة ـ كغالبية أطفال القرية. ولم يستطع قط أن يحفظ أو ينجح، وانهار أمل أبيه فيه. فلن يكون مخلوف قاضيا ولا مأمورا، بل هو يتسكع طفولته في الجزيرة وبين أركان أحلامه التي لايعرفها أحد. ولم يكن بالطبع مضطرا أن يشتغل ليكسب عيشه، وأخذت تدوّم في نفسه رياح جائحة متربة، ترتطم وتنكسر في العتمة، في بلده تلك التي نساها الزمن، وتركها تتعفن في الطين.

وهذا القلق في نفسه، غير مستبين، يذكره بتلك الليلة من الشتاء الماضي. كان يحس قلقا أيضا ودوارا ليلتها، وحمي في دمائه تستوفز، وكان أبوه قد نام، فراح يتسكع في سكك البلد المتلوية المعتمة، حتي رجع فرأي جماعة من جيرانه جالسين حول نار موقدة تحت الجميزة العتيقة، جنب كومة من السباخ، وهم يعدون شايهم، ويسمرون، ويتضجرون. كان يحس حنينا يجرفه نحو شيء آسر، شيء ناعم شرير يعرفه، ولايجد راحة إليه، ودماؤه تنزو وتمور.

جلس معهم. وكان معهم ذلك المغني الطواف، وألح عليه أهل البلد، فأخذ ينفث في مزماره. والنار تسطع في أغصان الشجرة وتنعكس عن

عضلها المفتول، والنار تلعب علي وجوههم الخشنة، والنار تلتهب في عمق عيونهم. وخرجت من المزمار أنغام رائقة ساذجة، منخفضه موحشة، ثم ثاقبه تتلوي وترتمي في طلب شيء ما، يائسة تتقلب في شكاة وتتمرد بلا جدوي وتمزق الليل في أنين جرح موجع طويل، كأنها تفتح أعماقا حراما، من غير أمل، كأنها تنتهك عرضا غير مستباح. ثم صمت المغني وشرب الشاي، وارتد القرويون إلي أنفسهم وفيهم نزوع منهوم أكال. هذه النغمات قد جاءتهم مثيرة بوحشتها ويأسها، تعض في الأحشاء ورجعوا إلي منازلهم في تلك الليلة وانكفأوا علي فرشهم يتململون، ولم يهدأوا في قاعاتهم المقفلة السخنة الا بعد أن مزقوا نسوتهم، كمحاريث من الصلب، قائمة مرهفة النصل.

ولكن مخلوف ظل سهران في تلك الليلة.يفرس جنبه قلق لاعزاء له، وبكي ليلتها، كما كان يبكي في طفولته. وخجل من نفسه.

كان مخلوف يذهب وهو صغير إلي بيت عبد الدايم، يستند إلي مرضعته أم السعد، ونادية بنت عبد الدايم إلي جانبه، وفي الدفء النسائي المنبعث عن المرضعة العجوز والبنت الطفلة معا يصغي إلي أسطورة ليليّة غامضة ذات قوام لين كثيف كأنه لزوجة الأحلام الراسبة في الدم. وعندما كان يرتاد الجزيرة كان يذهب يحوم حول غيط عبد الدايم باحتراس، يبحث عن نادية حتي إذا فاجأها أطبق بيديه علي عينيها وهو يهتف ضاحكا. ويحس إرتعاش جفنيها تحت يديه وتثقل

روحه برقة طفلية، ثم يتماسكان بالأيدى سراعًا ويذهبان ليلعبا، وحدهما أحيانا، أو مع أخواتها، مغافلين الأب الذي يكتشف غيابهم بعد حين، فيروح ينادي بغضب مفتعل ثم يطير فيهم بالعصا وهو يلعن ويسب وهم يجرون متسارين بالضحك ـ كان عبد الدايم مازال في أول شبابه، يكاد يكون صبيا معهم ولم تكن قد طحنته بعد الأيام ـ ثم يعودون جميعا،لتقليع الاعشاب أو لحراسة الماشية.

ولم يكن أعذب لديهما من شعورهما الغامض أنهما معا. حين تجلس ملتصقة به تقص عليه أخبار بنات القرية، وتحس حرارة جسمه من خلال جلبابها الأسود الفضفاض، وتثرثر له ثرثرة الفتيات، في مجري من الكلمات كأنها ترعة صغيرة منسابة، لاعمق فيها وإنما تلعب فيها أضواء بارقة خاطفة من لهجتها الحلوة ولمعات عينها، وهي ترمقه بغتة ثم تفحص تراب الأرض بقدمها الحافية، في حياء واضطراب. وكانت تأتيه، بعد أن تربط البقرة إلي وتد قريب أمام كومة من الذرة، ويجلسان أمام الخص، تلزق بجانبه فيغني لها بصوت خفيض موشحات طويلة يحفظها ومواويل لانهاية لها. عن الفارس الذي صادف ثلاث فتيات، فأحببنه جميعا، ثم نفرن علي اليأس، منه جميعا، وعاد الفارس حزينا. عن الفتي العترة وقد واعد حبيبته عند الفجر علي حافة البحر الكبير، وكيف تمني لو أن الفجر طال، لو أن الليل دام، لو أن النهار لم يشرق قط. والعاشق الذي وجد فتاته بين الخوص وقد قتلها الذئب في أول

الليل، الذئب الختون. عن الزمن وقساواته والصبر المر. أغنيات يحوم فيها ظل كأنه شبح ما يفتأ يرود مثواه، ولا ينصرف.
كانت المياه تترقرق علي ساحل الجزيرة في دفعات صغيره هينة، كفتيات يضحكن بهمس . ومازال في نفس مخلوف هذا القلق الذي لاسبب له

وخفق قلبه فجأة عندما رأي أشباحا صغيرة بعيدة تخوض المياه من طرف الجزيرة الآخر وعلي الرغم من أنه كان يتشوف مجيئها إلا أن الدماء راحت تضرب في شرايينه إذ تبينها قادمة مع اخواتها وأبيها.

واتجهوا الي الغيط، ووقف بجانب الخص ينتظرها، فهو يعرف انها آتية اليه بعد قليل. وعندما أخذ يتململ من القلق ونفاد الصبر أسرعت اليه، رقيقة في ثيابها السوداء الواسعة، كنوارة هشة تطير بها الريح. كانا قد ألف أحدهما الآخر منذ الطفولة كأنها أخته وحبيبته في الوقت نفسه. وكانت قبلتهما الأولي نبتة صغيرة تنبثق من برعمها، طبيعية، ضاحكة، رقيقة وخافتة. كانا يجريان مرة وكانت هي تسبقه قليلا، واستدارت فجأة بينما كان مخلوف مندفعا الي الامام، ووجدت نفسها تصطدم به ويكاد أن يقعا علي الرمل معا، لولا أن تشبث بها يحتضنها، وعندئذ وجد بين ذراعيه كنزه. أحس جسمها البض النابض الحار بين ذراعيه وعلي صدره، وهي تنهج من الجري، وجهها مرفوع إليه. وتوترت ذراعاه حولها كما يتوتر البرعم إذ ينشق لتتفتّح عنه زهرته. وكان وجهها المضرّج قريبا من وجهه، ووجد شفتيه جانب اذنها

التي يهتز منها قرط أخضر منطفيء اللون فيه حرارة وجهها. وفمه يتلمس وجنتها الرقيقة الغضة، يتكشف عذوبتها الناعمة الطرية، ويقع بين شفتيها النديتين الحارتين، المفتوحتين لقبلته.

ولم يكررها. لم يقبلها بعد ذلك أبدا.

دخل الخص، قبلها الآن وتبعته، وشملهما الضوء الباهت المتسلل من خلال جدران الحصير وأعواد الذرة، وتركت الباب خلفها مواربا نصف مفتوح، واقتربت من صدره، ورفعت عينيها إليه، والدموع تلتمع بين أهدابها الطوال، كان وجهها نضرا، خجلا، رائع الجمال، وهي تقص عليه خبرها في سرعة خائفة طفلية، وقلبه يضربه ويوجعه، كيف كان أبوها ينهي الخبر الي أمها في أول الصبح ـ وكان لم ينم طول ليلته ـ كانت هي تسمعهما بالصدفة وهي ترمي الحب للدجاج أمام الباب. كيف أن الشيخ عيسي، أباه، أباه هو، يريد أن يأخذها إليه.

وضمّها إليه دون أن يحس، كأنه يحميها.

كانت تريد أن تستمد من صدره القوة والحمي. لأنها كانت تشعر، كما يشعر الطفل، أنها لاحول لها أمام شيء لن يلين، شيء أقوي منها، لأنها كانت تخشي الاستسلام. وتعرف انه استسلام محتوم مقضي به من الآن.

وأحس شيئا في نفسه يكاد أن ينهار. وشدد ضغطه حولها وامتدت أصابعه علي الرغم منه تتلمس، في رقة، ذلك القرط الزجاجي الأخضر الكابي، وتتلمس وجنتيها. وقطرات الماء تسقط من الزير الي الصفيحة، في وقع متصل مطرد، بلا اهتمام. والغضب يعصف بصدره، والتمرد. لن يسلم هذه الفتاة. لن يسلمها.

لكنه لم يستشعر تباشير النصر، وكأنه في الحقيقة لم يرغب فيها، لم يكن لديه ذلك اليقين الداخلي أن الحياة له.

لن يسلمها لأحد. وهو مع ذلك، لايدري، بل هو وجِل واجف.

وقد عقد مصيره كله علي الاحتفاظ بها. ولكن ـ أي قيمة لهذا العزم المعقود ؟ وارتفعت الي عينه هو الدموع، وقلبه يتدهور، وثقل يحط في روحه. واقترب من خدها بفمه، وهو لايري. والتصق بهذا الجسم الرقيق الناعم الذي كم هو بحاجة اليه ـ وهو يفقده مع ذلك. أحس خدها تبلله الدموع وهو يطبق فمه في يأس من غير أن يبوس، لن يدعها. لن يدع أحدا يغتصبها منه. سوف يحارب لها. سوف ينافح عنها، لكنه ليس من جنس المحاربين. ووضعت ذراعيها وراء عنقه، ورفعت إليه وجهها، والتصقت به وفي وجهها منحة، واستسلام، وهبة. وكانت بين ذراعيه والدموع تنسل علي خديها. ونهداها علي صدره كثقل صغير يضغط قلبه. وفي أعماقه خوف وظلمة، وهو لم يعد يحسها بين ذراعيه يعيش لحظة في خدر مضطرب يقلقه ويغلق عينيه عن عطيتها.

تشبثت به وهي تتعلق بعنقه، وثم بريق غريب في عينيها من وراء الدموع، وهو يحس جسدها يرجف ودماءها تضرب وهي تضغطه إليها، كأنما تريد أن تهب الحياة، بعمق رغبتها، لصخر، لعمود مكسور، لنبتة صلبة جففها العطش، وهو في حلم مزعج يريد أن ينطلق أن ينفلت أن يحطم سدا يطبق عليه بلا رحمة، لكنه لا يستطيع ولا يفهم.

وسقطت الي الأرض منهكة فجأة، تبكي في نشيج مخيب منكسر، في ثورة تشفي علي التسليم. فهو لم يقبل الهبة ولم ينبثق في جفاف نفسه خيط واحد من الحرارة. وانحسر ثوبها الواسع، وهي تقع علي الأرض، عن ساقيها العبلتين الممتلئتين، وهي إذ ترد ساقيها الي الثوب السابغ يرقص فيهما نغم العضلات الأنثوية القوية الناعمة، وترفع إليه عينين لامعتين مخضلتين فيهما أمل وغواية ومرارة.وقد وقف ينظر إليها كأن قسوة غير مفهومة قد فرضت عليه حرمانا لاقبل له به، وعليه مع ذلك أن يقبله. وانحنت بوجهها علي ركبتيها في بكاء يخفت رويدا، وقد تيقنت الهزيمة وغشي نفسها جمود اليأس والتسليم، ويهز جسمها نشيج ليس فيه دموع.

نظر اليها. لايفهم أنها كانت قد أعطته نفسها. وأنه رفضها، وتركها، مسرعا كأنه يهرب، الي الشمس الغاربة التي سطعت في عينيه فأغمضهما علي نور أحمر يشعله كنارٍ زاهرة لاحرارة فيها تملأ عليه الأفق. وهو يخوض المياه الضحلة الي القرية، والأفق يغدو ذهبيا

بالشفق، والماشية تمضي الي مبايتها تثير التراب علي الجسر، يسوقها القرويون الذين يؤوبون متعبين، بعد انقضاء نهار طويل.

كان الشيخ وولده جالسين علي المصطبة، بعد عشاء لم يعرف له أحدهما طعما، مستندين الي الوسائد، وصامتين، والمصباح الزيتي الضئيل يحترق في كوته، والجمل علي تخوم الضوء والظل، يبرك في الحوش، شاهقا يجتر أحلامه التي لاتنتهي، كائن وحيد يعيش في عالم موحش، كأنه الحقيقة الوحيدة.

وكان الشيخ ينظر الي العتمة بعينين فاترتين مسترخيتين، وبيده سبحته تتساقط حباتها في انتظام وجمود. والشيشة بجانبه تنبعث منها قرقره راضية بين الحين والحين، قرقرة تدور بالحوش المظلم تربطها بالبيت رُقية لافكاك منها. كان الشيخ يحس نوعاً من القلق والتحفز، كما كان يستشعر خطرا مقبلاً، لكن نفسه هادئة، واثقة، متربصة.

وكان مخلوف قد بدأ يتكلم، دون أن يحس كلاهما متي وكيف بدأ يتكلم. كأنه يكمل حديثا مازال يدور بينهما من زمن طويل، وصوته متهدج متمايل يثبت رويدا ويسرع، كان يذكّر أباه زوجته الأولي، هيبته ومكانته، كيف يتزوج، في النهاية، ببنت تكاد تكون طفلته ؟ كيف يتزوج وهو الآن شيخ القرية، وعلي حافة كهولته ؟

والشيخ يسمع له، من خلال ضبابة من الحنق والدوار. أية جرأة. لقد جن الولد. وكان ينكأ أيضا جراحا قديمة لم تشف، ويثير ذكريات مغفية لم تمت، في غير جدوي،

ومخلوف يحس أنه يتردي. لم يطرق هذا السبيل الوعر ؟ لم لا يتآمر، في خفية عن أبيه. ويحول بينه والفتاة، دون أن يعرف ؟

نظر اليه الرجل في هدوء، وانحني علي الشيشة يمص فمها فترتفع قرقرة بطيئة الصدي في الفناء الموحش.

ـ أنت عاشج البِتّ دي ياولد ؟

بصوت أجش هاديء يتضمن ثقلا. فكأن الشيخ قد نسي ماينبغي لهذه الأمور من تحفظ وما ينبغي له من وقار، في زحمة الصراع الذي قام في نفسه. أيتكلم عن امرأته المقبلة بهذه اللهجة ؟

وسُمِع صوت نائم متململ من بيت الجار، كان أحد الصبية لاشك يحلم حلما مفزعا. وحبات السبحه تتساقط الواحدة بعد الآخري كدقات قلب. القرية كلها نائمة في حلم جاف بائس، لا يعير الناس اهتماما.

ردّ مخلوف عينيه عن الجمل الجاثم، في جهد، كأنه مسحور. العالم كله قد تلاشي فلم يبق أمامه إلا هذا الأب الغريب عنه ينصب عليه ضوء محمر من ذبالة مدخنة. ثم ذكر أن هناك سؤالا لم يجب عليه.

فليكن، وماذا حدث مع ذلك ؟ أليسا صغيرين معا، من عمر واحد ؟ وهو يريدها زوجة تعمر البيت، ما الضير في ذلك، أليس طبيعيًا ؟

وقد كاد يسقط سلاحه لكنه يناضل نفسه حتي لا يستسلم.

ومخلوف كأنه يخشي أباه، وكأنه مع ذلك يحب فيه إله طفولته، ويمقته أيضا. هذا الشيخ أمامه يتعلق بمتعة أخيرة، هذا الشيخ الشقي.

والشيخ تنبثق فيه فجأة نافورة من ألم متوتر قاس، مياه سخنة صلبة تنشق عنها الأرض في صميم عظام حقويه. هل يهتم به الولد حقا ؟ هل هو يعني بهيبة شيخوخته في القرية ؟ ـ يريد أن يخطف منه هذا الأمل الذي عساه يكون أخيرا...

يريد أن يسد عليه حياته في خبطة أخري، نهائية. إنه قد حزم أمره من زمن بعيد.لن يقف أمامه شيء.

وصرخ في الولد، في هتفات خافتة مكظومة، ترتفع في بحة الغضب ولا تكاد تسمع مع ذلك، أنه ولد عاق جهول كسول، لاخير فيه، انه وقح صفيق. انه ليس ابنا له. فليس له بعد اليوم أبناء. ولن يكون، لن يكون له ابن عاشق يعره ويمرغ اسمه في التراب. فليخرج إذن من بيته. لا يريد أن يري سحنته بعد اليوم. وليس له من اليوم أبناء. وسقط جدار كان يحدق بالحب الذي يكنه الشيخ لولده وفارت المياه الآسنة المحبوسة في أمواج من الكره والغضب.

ونهض مخلوف دون كلمة، وبدت قامته الطويلة في الضوء المحمر المدخن، شاهقة وثابتة، كأنها مئذنة في جامع،علي وشك الانهيار.

وخرج بسرعة واصطدمت قدماه بعتبة الباب لكنه لم يحسها، وعيناه جافتان ملتمعتان وفي قلبه صلابة.

وبات ليلته في الخص، ومياه النيل تحيط به في الليل مظلمة راكدة، وثم ضوء من ذبالة ميتة يسقط علي أحلامه التي يحس فيها، بين شفتيه،

قرطا زجاجيا دافئا، ويلمس وجنتها التي تنديها بقايا الدموع الملحة. لكن أحلامه ران عليها الظلام، وسقط في نوم ثقيل.

كانت أوراق العِنبة ماتزال تتدلي من غير حياة، والترعة الضحلة تجري بمياهها العكرة تحمل جماعات الوز، أما نادية فانها مشغولة في الدوار الكبير، وعلي وجهها تعبير مستسلم صموت، ترمي الحب للديك والفراخ، وتحلب الجاموس، وتطعم الجمل، بجد وسكون، دون أن يطلب منها أحد شيئا. وعلي وجهها بين الحين والحين ابتسامه بطيئة خفية.

والشيخ بلا شك مازال يحبها بعد، حبا لا إيثار فيه، وإنما هو شيء غريب متملك يستخفي فيه عمق من البغض، يهزأ بالشباب، شيء ممزق كاسر، فيه شيخوخة ضارية لاتستسلم.

ـ ولكن بأي ثمن.

ودارت في نفسه، علي مصطبته في حر الظهر، زوبعة متربة كأنها الخماسين، وأحس صدره يختنق. ونفذت اليه لذعة من الوجع، والغضب يقبض قلبه ويزحمه. هذا الولد. ما شأنه الآن به. عساه يتعلم الرجولة في الغربة، ويغدو جديرا بالأسرة التي انحدر من أصلابها جديراً بأن يقوم بعمله الآن، هذا الكسول. لو أنه يعود لما تردد في أن يقبله، بالرغم من كل شيء. لو أنه يعود. وسوف يعود علي أي حال، لا شك، فيما بعد اذ ينجاب عن نفسه هذا العبث الصبياني كله.

أما هي فطائعة صامتة، أبدا. عميقة كالأرض نفسها. تستسلم له بلا تذمر ولا امتناع. وهو يسوقها الي الأمام بسوط جائع، لا يتريث لأنه في النزْع الأخير، وهي تعطيه خصبها وتحتفظ لنفسها بأسرارها التي تذبل في أعماق رحمها، بلا ثمرة. فلم تخلّف له نادية، وهو يحس أيضا فراغا موحشا عريضا، من العقم كأنه أرض فسيحة خلاء، وبورٌ ينزُّ فيها الماء الملح.

أصبح الصبح ذات يوم، واذا بمخلوف قد هرب، مضي من القرية، ولم يسمع عنه أحد. وبعد زمان جاء الخبر بأنه في مصر، وأنه يشتغل في مصنع صغير، وأنه يقف الآن علي مَكَنَة، لوحده..

كانت تعرف، ببصيرة ما، أنها لن تسعد معه، وأنه سوف يهرب من القرية، علي أية حال. وقلبها يسيل له ألما وحبا ولكنها ما كانت لتستطيع أن تهرب معه. بينما أهلها وقومها يعيشون في كن بيوتهم الدافئة، بين بهائمهم وسَبَخهم، وأطفالهم، وخيرات الأرض.

بل هي تحس أنه قد رفضها وأنه ليس لها. فهو قد أغلق نفسه عن عطيتها له، ولم تستطع دماؤها النابضة المتدفقة نحوه أن تبعث فيه حرارة.لقد خذلها. وهو يحبها حقا. ولكن أي حب ؟ كأنه لايعرفها. وهما اذ كانا يتعانقان كأن بئرا سحيقة بينهما، لايملك أحدهما أن يعبرها الي الآخر، بينما يغيب في حضنه .

وانحنت تجمع حزمة من أعواد الذرة وأخذت تطعم البقرة، ونزلت قطرات من دموعها علي الأرض، وشربها التراب. والبقرة تخور خافضة رأسها تنظر إليها بعينيها الواسعتين.لقد استسلمت.

في ليلة الزفاف كانت الفتيات يغنين والزغاريد، والفتيان يرقصون وينشدون. والأنوار تسطع، والفرح الشرس يقلق في القرويين يقظة لاتشبع، تتطلب المزيد.

وهي في غرفه علوية من بيتهم قد بكت حتي انهدت وقد حففتها النساء وزوقنها وألبسنها ملابس الدخلة. وأم السعد العجوز تثرثر لها، وتطيب خاطرها وسط النساء، وتزغرد ثم تنظر اليها من جنب، وتتنهد خلسة.

وصمتت البنت تنتظر مصير ليلتها في خشية، باستسلام فيه شيء من اللهفة والتشوق. وأحست ثم مايدفعها، في قلق مرهف لا يقاوم، لأن تلقي نظرة علي الشارع من فوق السلم. وعندئذ رأته ـ هل رأته حقا ؟ ـ ولم تكد تراه حتي تواري في العتمة.

وعندما خرج الي الغيطان بدت له البيوت في القرية مكومة منكمشة، وكانت تصل إليه أصوات الفرح مكتومة مختنقة، والكلاب تنبح الليل، كأنما القرية كلها يضمها حلم متململ قلق.

محطة السكة الحديد

كانت خبطات القطار المنتظمة الرتيبة قد اتخمت نفسه، بدقاتها المستمرة. لا تتوقف لا تتريث، تتقدم دون وهن في تصميم دائب يأكل من نفسه إمتدادات طويلة، في طريق لا ينتهي. كان قد نام قليلا، وشبعت دماؤه، في تهويم النعاس، من هذا الدق المتواصل. وبه شيء كأنه سكر وخدر من هذه الضربات العنيدة التي لا تني، مدفوعة الي الامام، في عزم لن يقف أمامه شيء.

وفتح نافذة القطار، وأفلت لحظة من الضوء المصفر المترب الذي يسقط في العربة المزدحمة يهتز كسائل كثيف مشبع بإنسانية متعبة هدتها هزات الرحلة المتعاقبة. رهبت عليه من الخارج ريح الاسكندرية الممدودة أمامه تحت سماء الليل، والقطار يهتز مندفعا يدق الأرض إليها في مجهود أخير. وأنوار الاسكندرية تومض مرمية علي انحناءة خط

طويل، واعدة بأماني غامضة، براحة الوصول ودفء المدينة.نسمة خفيفة ملحة هينة تأتيه عبر الخلاء المعشوشب بالحشائش الصحراوية الطويلة، فيها عزاء ينفسح له الصدر ويقبل طراوته.

عاد الي مقعده، وكان يخيم علي العربة جو ثقيل مكتوم، وقد خلع العسكري الضخم الذي تكوم أمامه في سترته السوداء، طربوشه، واكتفي بطاقيته الميري من العبك الباهت تشد مابقي من شعر شائك رمادي خشن علي صلعته المتينة، وقد سكت الطفل الذي يلتصق ببطن أمه في ملاءتها الريفية وراح الآن يمص ثديا جافا مهدلا مجعدا لاتكاد الملاءة تخفي بذاءته، ومازال بائع السوداني يمر بالقطار، حاملا قفته وقراطيسه الملآنة، والشيخ الأعمي الذي يبيع النعناع وآيات القرآن وعدية يس، والعيال العفاريت الذين هدهم التعب وبحت أصواتهم وما زالوا بعد ينتقلون من عربة إلي أخري في خفة، ينطّون وينادون علي الليمون للعطشان والكاكولا والبيبسي، ويقرقعون علي الجرادل المليئة بالماء والزجاجات. وقد سقطت الرؤوس علي المقاعد الخشبية في استسلام كأنها لم تعد ملكا لأصحابها، بل ملكا لقطار يدق بهم الأرض في تصميم، الي غاية لن يصلها قط.

وقد أتعب عينيه النور المسلول الشاحب المعلق كالتراب في القطار المهتز إلي الأمام بسرعة لاتتناقص، ويكاد يسمع مصمصة شفتي الولد

الذي يرضع من بز ناشف، وتتداح في نفسه رغبة في أن يعطي من نفسه لهذه العلقة الانسانية الصغيرة التي ماتني تتطلب الحياة، رغبة حنانة كأن نفسه قد ذابت في وسط هذا الجمع من الناس، وامتزجت بهم من الخارج، بعصارتها الثقيلة،وقد أذابتهم معا تلك الساعات الطويلة التي قضوها في القطار فكأنهم ألصق من الاخوة، الافندي الرث الذي يجلس إلي جانبه مع حقيبته القديمة المربوطة بدوبارة، فلاشك أن قفلها قد خرب، وحتي العسكري الذي يشخر فجأة في نومته المليئة ويتنحنح من كرشه، ويعدل من جلسته القلقة علي خشب الكرسي، وهذه الام الريفية الأصل بثيابها ومدورتها البلدية علي عظام وجه مرهف بشهوات حادة لارضاء فيها، بل لهفة ثاقبة لم تعرف الشبع أبدا، حتي مع الولد، والصايدة والفلاحين الراجعين إلي المدينة وقد خففت الحياة قبضتها عليهم لفترة الرحلة القصيرة، ولكنها تركت آثار هذه القبضة القاسية علي الوجوه الخشنة العميقة الأخاديد، علي الذقون النامية الشائكة لم تحلق بعد، والثياب الرثة غير النظيفة تماما علي أجسام مفتولة أو منحولة، لاتكاد تمت هذه الثياب الي أجسام أصحابها كأنها ملقاة عليها غريبة، غير مستقرة وغير متصلة بها، واحتدامات هذه الاجسام قد همدت لحظة والهواء يدخل من الأفق الصحراوي المنتهي الي البحر، وينفذ في زهومة الكثافة الانسانية في القطار فيكملها ويعطي لها معني غير واضح.

وخفتت سرعة القطار وتغايرت أنغام دقاته وهو يصطفق بالشبكات الحديدية من القضبان ويمر تحت علامات متباينة في أعمدة السيمافور. والبيوت تجري إلي جانبيه. وفي العربة نشاط فجائي، والقفف تنزل من علي الرفوف، والحقائب والملاحف والمراتب واللفائف المربوطة في الخيش، والمرأة الريفية ترفع طفلها إلي كتفها فيستأنف صراخه، وتطلب من الافندي الرث المنهوك أن ينزل لها القفص والقفة يافندي وحياة النبي. فينشط وهو ينزل الأحمال الثقيلة ويترنح تحتها وهو يكاد يقع فيلتصق بالمرأة في مجهوده، والعسكري يشد حزامه ويتنخم في منديله الأحمر الباهت ويضع طربوشه علي الطاقية الميري العبك. والناس يقومون ويتزحزحون ويفتحون الشبابيك ويقفون استعداداً للنزول وعلي شفاههم ابتسامات متعبة، ويلغطون مع بعضهم البعض في شيء كأنه فرح طفلي بالوصول.

وأخذ القطار يبطيء أخيراً وهو يدخل المحطة المنيرة، ويصفر فجأة تحت السقوف الزجاجية المرتفعة ، في دوي مظفر، ويقرقع ويصلصل وهو يقف في فخامة، كجواد أصيل يرفع رأسه عند الوقوف. وتقاطرت جماعات الشيالين بأرديتهم الزرقاء وأحزمتهم الجلدية العريضة المتينة، يمدون أيديهم إلي النوافذ ويتلقفون رزقهم من القفف والشنط، وصغار الصبية خلفهم يتزاحمون علي الأفندية والسيدات ويشدون حقائبهم : شيال، شيال، والناس يسرعون في الأضواء اللامعة وأصداء القطارات تتردد في المحطة كأصوات تتنادي في رنين مثير.

وهو ينزل الي الرصيف ويستعيد مقدرة ساقيه علي المشي بعد الخدر الطويل، ويجد أمامه من بعيد ركاب البولمان والدرجة الأولي في أناقتهم الملونة وحقائبهم الجديدة الرشيقة يسرعون خارجين وخلفهم يهرول الجمع المختلط من الإنسانية الصغري المضطربة بين الأولاد الصاحين من نومهم يتعلقون بآبائهم وأقربائهم، وهو يحس المدينة خارج المحطة بشوارعها الهادئة الخالية تقريبا، مستريحة آمنة. مضيافة.

واتخذ طريقه الي سلم النفق الأرضي للخروج بعيدا عن الزحمة علي الباب الضيق، أو هكذا علل لنفسه سلوكه، وإن كان قد دار بذهنه، من بعيد، أن النفق لايفضي الي الباب، بل الي رصيف آخر. لكنه لم يصغ لهذا الصوت الصغير البعيد.

ونشق علي السلالم العريضة ريحا باردة أرضية، من النفق المنير الخالي، والبلاط الأبيض يلمع علي حائطي السلم، مصقولا ينزلق عليه النور كما ينزلق ماء خفيف رائق. وهو إذ ينزل وحده علي الدرجات العريضة يحس أنه يدخل علي عالم آخر هادئ، تتجاوب به أصداء بعيدة متطاولة في الفراغ الأجوف، وتتراشق الجدران الملساء بهذه الاضواء ترسلها الواحدة منها الي الأخري إذ ترتد من سطوحها الناعمة، عبر مسافات خاوية. وهو يحس سعادة غريبة توسع من صدره، لأنه وحده في هذا العالم السفليّ المضيء المحدد الجوانب، المنسرح تحت الارض في مستوي آخر.

وفجأة امتلأ عليه هذا العالم، في فراغه. وأحس شيئا وراءه، خطوة خفيفة مسترقة، نغمة هواء، لايدري. ولكن هناك حضورا يتربص به من خلفه، لاشك، شيئا يرقبه، كأنه يرصده بعينيه الخفيتين، وينتظر حتي يوقع به، حتي يطبق عليه. وأحس قدميه تتجمدان تحته، ونظره ثابت موجه إلي الأمام، وهو لايجرؤ علي النظر إلي خلفه، بل لايستطيع. ينزل السلالم ببطء، ويشعر بهذا الغريب يسوده، من أعلي السلم، وراءه.. وهو يريد أن يتحقق من هذا الذي يثقب ظهره ببصره، ولا يستطيع، بل لايجد أدني قوة علي رد بصره إلي الخلف. والسلم خلفه خاو عريض مرتفع صاعد إلي أعلي، تنزل منه رياح الخوف.وهو موقن بأنه مراقب، بأنه واقع في قبضة بصر ذي نوايا، وهو لايستطيع أن يخرج من هذه الشبكة غير المرئية.

واستدار فجأة إذ وصل إلي أرض النفق، وأخفاه الحائط. ودخل في النفق الطويل الممتد وأحس أمنا وروحا، إذ أفلت من هذه العين الواقعة عليه، تنفذ إلي كيانه من الخلف، في تصميم غرضها الذي لايحيد.

والمصابيح الكهربية القوية تملأ الممر بنور ساطع، علي الأرض السوداء. والحيطان تقوم علي جانبيه ببلاطها الأبيض الناعم، صقيلة زلجة، لايلصق بها شيء.

وأخذ يحث خطاه، وقد استشعر حريته من هذه النية التي كانت تحدق به، وأحس انفساحا أمامه في النفق المنير الطويل الواسع الجنبات المنفتح عن سلالم جانبية متعاقبة كثيرة.

وأخذت عيناه بالقرب من نهاية النفق، تحت مصباح كهربي، شيئا مختلطا متلاصقا، كائنا فيه من البشر شيء، لولا أنه أكثر من كائن بشري، تسقط عليه من المصباح حزمة مخروطة ساطعة من نور لايرحم، وقد اختلطت فيه الأذرع بالأكتاف، تحيط ببعضها البعض، وضاعت فيها رأسان، في امتزاج غامض المعالم، بين جانبين ملتصقين، واختفت العيون في حِمي ظلام داخلي خاص مسدود علي نفسه تحت سطوع عين مفتوحة من نور صلب ثابت الحدقة. وفخذ أنثوية رقيقة صغيرة يلمع بياضها تحت هدوم رثة قذرة مرفوعة، وغابة صغيرة من العشب الأسود الناعم يراودها حيوان منهوم، تحت قبة نابضة من خمير اللحم، بين أعمدة من الحجر القديم المنصوب ، تعاقبت عليها عواصف حارة متربصة ولـيالٍ صافية من الوحشة، ولا نهـاية من سماوات الظهر الخالية.

وقد اوقعه هذا الكائن في فتنة لازمنية، وهو يتجه إليه، كالمأخوذ، يؤدي مطالب مصيره في هذا النفق الساطع تحت الارض، تتجاوب به أصداء ليست من العالم وإن كانت حية توحي بمعناه الخفي.

وترن خطواته في فراغ النفق، وهذا الشيء الذي يلتصق بالحائط الأبيض اللزج يتحدد وتتضح معالمه.

ولكنه لم يستطع أن يحول بصره عنهما، هذه الطفلة تعطي فخذها المرفوعة لشيال نحيل ضئيل عنيد الوجه، ومازالت بيدها المرمية علي ظهره، أوراق يانصيب قديمة يجمعها مشبك حديدي صدىء، وثيابها

السوداء الباهتة الخَلِقة تتجمع في طيات مضطربة تحجرت كأنها من تمثال أثري قديم، فوق نعومة مكشوفة تحيا نشوة غائبة. ويدها مرمية بلا حياة علي قميصه الكاكي المشعث القديم، علي ظهر جاف انحنت عظامه عليها في عطف حميم، يمنحها من ماء قليل، يتحدي الجفاف في تضحية حانية. وهما يلتصقان بالبلاط الأبيض اللزج، كأنهما علقتان جافتان لا تصلان أبدا إلي الدم. ولا شيء يعنيهما، فكأنه لم يمر بهما، والرؤوس مختلطة المعالم، مدفونة في رائحة الشعر الملبد الكثيف بين قماش الهدوم القديمة المتراكبة الرقع، في جمود منسي. لايهتم بأحد ولايعني به أحد، ويسطع عليه نورٌ وحشيٌّ لاإدراك فيه.

وارتقي درجات السلم إلي رصيف المحطة، وفي جوفه فراغ متداعي الجنبات، والأرصفة خاوية تمتد بينها القضبان آتية من أبعاد سحيقة، في خطوطها الرفيعة المتجاورة المتشابكة، بين تيهٍ من الأعمدة والإشارات. والقطارات في الباحة تحت سماء الليل الباهتة، ساكتة صامتة مظلمة، كحشرات ميتة بيضاء منسية مغبرة البياض، والقطارات ملتصقة بالأرصفة، عليها تراب الليل تحت السقف الزجاجي المسود من الهباب، والمحطة كلها ساكتة نائمة، وقد هدأت فيها الحركة هدوءاً غريبا، ساعاتها تحدق إليه بعقاربها التي توقفت، والأسوار الحديدية القصيرة تحيط به، وصوت حشرة ليلية يتردد صفيرا من أحواض الزهر الغامضة في الليل، تحت السور الحجري القديم، وجرس الترام يرن بعيدا، من

شارع المحطة في الخارج، كأنه يسير وحده بلا ركاب في شوارع مدينة أقفرت من كل ساكنيها.

وأحس نفسه محبوسا، مخنوقا، مضيقًا عليه.

يجب أن يفلت إذن، يجب أن يخرج، يجب أن ينطلق من بين هذه القضبان، يجب أن ينتزع نفسه من تحت هذا السقف الزجاجي، ومن نظـرات هـذه الـساعات الواقفة، يـجـب أن يخلص نفسـه، أن يـخـرج من الباب.

واندفع يجري بالرغم منه، لا يملك نفسه، صغيرا في هذا الفراغ الليلي نحو باب الرصيف. وجابهه علي الباب الصغير ثلاثة، أربعة، خمسة، من عمال المحطة، جالسين ينظرون إليه في هدوء متربص، يسدون عليه المخرج، ينتظرون منه تذكرة السفر. فلن يخرج إلا ومعه هذه التذكرة.

وهبط قلبه في حفرة لا قرار لها، وقد تيقن دفعة واحدة ان ليس لديه هذه التذكرة. لن يخرج إذن، لن يستطيع الخلاص. فليس لديه تذكرة. وهذه الوجوه الخشنة الغليظة القريبة تحدق إليه بعيونها المدورة الجاحظة، وتجعداتها الجافة السمراء، وكلهم لم يحلقوا ذقونهم هذه الشائكة. هذه الوجوه لايهمها من هو، ولا تعرفه، لايعنيها شيء إلا أن تنال التذكرة. والحلل السوداء أو لعلها زرقاء داكنة، تصطف عليها أزرار نحاسية كابية، كأنها صفوف أخري من العيون المعدنية تنظر اليه وتنتظر.

وقفل راجعا يجري، يجري كأن حياته كلها في خطر، كل لحظة

يقضيها الآن في المحطة تزيد من هول جريمته، تثبت إدانته، وتقرب لحظة الحكم عليه. لن يُغتفر له، لن يغتفر له أن ليس لديه تذكرة، يجب أن يهرب، يجب أن يفلت، الآن.

وهو يجري كما لم يجر أبدا في حياته، والمحطة واسعة فسيحة خاوية، ليس فيها شيء عداه، يحاول الافلات بنفسه، والأرصفة تمتد تحت قدميه، كأنها تتخلق وتتمدد خاصة له، كأنها طريق لم يوجد إلا لأنه يجري عليه، بل هي توجد من لحظة إلي لحظة، تحت قدميه، وفي كل اتجاه يندفع اليه يجد نفسه علي نفس الرصيف الضيق، ونفس القضبان تحت الرصيف، ونفس الأرصفه الأخري تحاذيه، أينما اتجه، والمحطة كلها تدور معه، في جريه، وتتسع، وتلف به، هي نفسها، أمامه أينما استدار، تتمدد حواليه. وإذ يقترب من باب الدرجة الاولي، وقد بدا له من بعيد خاليا يجد أمامه نفس الوجوه، نفس العيون تحدق اليه، وتنتظره، في غير اهتمام كبير ولكن في تصميم. لن يخرج أبدا إلا إذا قدم التذكرة. أبدا. وليس معه تذكرة.

وهذه الحمي من الجري لاتنتهي، وقدماه المندفعتان أبدا إلي الأمام، تحملانه مرة أخري إلي رصيف الدرجة الاولي، وهو يتعثر، ولكنه يطير في جريه، كأن هذا الشيء الذي يكاد يتعثر فيه قد تطاير تحت قدميه فجأة، ولم يعد فيه عائق مادي، كأنه قد اخترقه دون عناء. ويصل أخيراً، ينهج، ويمسك بالسور الحديدي القصير، وعيناه معلقتان بتلك

الوجوه علي الباب، ويتعلق بحاجزه الرقيق المهتز، يتعلق به كأنه لن يفلته قط، في عنف وإصرار ويداه قد تشبثتا بالحديد الهزيل، واندمجتا فيه، وأصبحتا قطعة منه لاتنفصل عنه. وهو يحدق إلي ساحة المحطة الخارجية، لكنه لن يستطيع أن يتجاوز هذا السور، وهذه الوجوه قد اتجهت إليه، صامتة فاهمة تنظر اليه من تجعداتها الخشنة، بذقون غير حليقة، كامدة الزرقة، شائكة.

وأحس القطار يصفر وقد وصل من رحلة بعيدة، والأنوار فرحة بهيجة قد غمرت المحطة كلها، والساعات تدور، والناس يتدافعون ويتزاحمون في انفعال الوصول، وهو يتعلق بيد أمه ينزل من القطار في زحمة الناس، ويرفع إليها وجهه وقد تعب من رحلته وهاجه وأسعده انتهاؤها. وأبنية المحطة الكبيرة عالية تتجاوب بطنين الكلام والضحكات وصفير القطار وقلقلة العجلات، ويسمع صيحات الشيالين وجريهم بين الناس في الزحمة، وأبواق التكسيّات تملأ الساحة الخارجية الفسيحة بلجاجة ندائها، والحناطير تتقارب وتتزاحم وتقطع الطرق أمام أحدها الآخر، والساحة الممتلئة بالناس الخارجين تسبح في الضوء الباهر المريح بعد شحوب القطار.

وتلفت خلفه فجأة، وقد تقبض حلقه من المفاجأة. والخوف. لقد ضاع، تاه. وهو لايجد امه إلي جانبه. لقد فقدها في الزحمة. والناس يخرجون متتابعين، سيل لاينقطع من الناس الغرباء، وهو وحيد صغير. لايعرف

الطريق إلي البيت. لايعرف الشارع. لن يصل أبدا إلي البيت. لن يجد أمه ولا أخوته.

ورجع جاريا يتخبط في سيقان الناس المندفعين إلي الخارج، ويتفلت من بينهم. وقد أخرسته المفاجأة ولم يستطع أن يصرخ. وهو يريد أن ينادي أن يزعق. أن يجده أحد، أن يجد أحداً لكن أحداً لا يصغي إليه، أحدا لايعرفه. وهو لا يعرف أحدا. وقد ضاعت منه أمه. فقدها. ولن يعرف الطريق أبداً. سيتوه إلي الأبد في هذه المدينة الرهيبة الغامضة التي توجد خارج المحطة، سيتوه بين الترام والعربات والسيارات والناس. ستتخبط به الشوارع الطويلة المخيفة التي لايعرف أسماءها، ستتوالي عليه جدران البيوت. كلها غريبة. كلها صامتة. كلها مجهولة. ولن يعرف بيته أبدا.

وكم هو ضئيل في زحمة كل هؤلاء الناس. صغير. تائه.

وأحس العرق السخن يغطي وجهه، ويد الخوف تمتد إلي داخل صدره وتقبض علي قلبه، والضياع يحدق بنفسه الطفلة. وقد فقد كل شيء.

وهو يجري متخبطا بالناس لايري شيئا من خلال دموعه السخنة التي تملأ عينيه. وهو لايعرف إن كان يصرخ فعلا فإنه لايسمع شيئا. لكنه يحس نفسه يصرخ مناديا أمه. ويضيع صوته في دبدبة الأرجل التي لاتنتهي، متتابعة خارجة من المحطة، ليس بينها أحد يتعرف عليه. يحس نفسه يصرخ بملء روحه المتطلبة حبها المفقود، يدعو يدا تمتد إليه

بالأمن والألفة يصرخ مناديا من وحشة الضياع المقفر الذي يحيط به في امتدادات معتمة لا آخر لها. وينهج من الجري والرهبة والبحث عن الخلاص يصرخ ولا يعرف هل يسمع صرخته أحد، بين كل هؤلاء الناس. يجري في وحشة الضياع.لايفتأ ينادي.

في ظهر يوم حار
عمل نبيل

أخذ جابر يسير متئداً، وشمس الغروب في عينيه، علي شاطئ الترعة المترب المزدحم. كان ينقل خطواته في ملل. وكان شعره مشعثا ملقي إلي الوراء، وقطرات من العرق منعقدة فوق جبهته، مصفرة في احمرار حائل، وفي عينيه تعب، وفي السماء حرارة مثقلة.

ألقي بنظرة إلي المياه الراكدة تهتز بين المراكب الشراعية، العتيقة، وقد انبسطت أشرعتها المرقعة تتلمس نسمة من الهواء.

ولمح في جوف مركب قريبة جماعة من المراكبية، بأجسامهم القوية السوداء وثيابهم الباهتة المزرقة راكعين أمام موقدة من الفخار ينفخون فيها وهم يطهون عشاءهم، والعدس الأصفر يبدو، وهم يحركونه بمغارفهم الخشبية العتيقة، عجينة كثيفة تضرب إلي لون الغراء، كأنهم يفيدون منه في شد ألواح مركبهم القديمة بعضها إلي بعض، حتي تستمد مهلة أخري للحياة.

ومضي في طريقه تحت أشجار الجميز الضخمة التي تظلله كما لو كانت عالما منعزلا منفردا بذاته من الأغصان الملتفة الورق، والعصافير تتواثب في أرجاء هذا العالم باضطراب، تودع النهار بزقزقة عالية حادة النغم، وقد شرد ذهنه رويدا وهو يسير في الحرارة الخانقة التي تسبق طراوة الغروب مباشرة، وعاد مرة أخري إلي القهوة المعتمة المزدحمة التي تطل علي الترعة، تتدلي من بابها زرعة صغيرة صفراء من اللبلاب، مهملة وجافة تناضل في سبيل الحياة باستماتة. كان ينتظر دقة الجرس الأخيرة في مدرسته، بصبر واسع رحب، بصبر جميل. جميل. فاذا انتهت الحصة الأخيرة وأطلق سراحه، إندفع هو ورفيق أو أكثر، خلال الطرق الضيقة، يثيرون التراب بين المنازل التي تتظاهر، من غير كبير نجاح، أنها أنيقة كمنازل الحضر، حتي إذا ما وقع بصره من بعيد علي اللبلابة الجافة الصفراء، وعرف جمعًا من صحابه في القهوة صاح بأعلي صوته:

ـ ياعم متولي هات لنا طاولة اعمل معروف، طاوله بسرعة وحياتك.

ويذهب إلي ركنه المعهود، أكثر أركان البؤرة، عتمة وبعدا عن العيون، حيث يجثم الراديو الضخم، أسيراً بجانب مواقد الجاز التي تزأر وتفح في إعداد الطلبات للزبائن.

كان يسير علي الترعة وهو يعيش في هذا الحلم اليومي مرة أخري، حلمه السوقي المبتذل الذي يخلص حياته. فرأي نفسه وقد ألقي بكتبه التعسة إلي أقرب كرسي، ورفع الراديو إلي أقصي مايبلغ صوته من

إرتفاع، وراح يلعب الطاولة في حماس لن يفتر، يلعب، وقد ابتدأ يغيب في غيمة غامضة مريحة من وهج الحرارة وسحب الدخان المنعقد المتصاعد من جماعات الفلاحين والأفندية، وقهقهات عم متولي المليئة وصياح الراديو وأقراص الطاولة تصطفق وتقرقع، وصوت باخرة صغيرة في الترعة تطلق صفارتها الحادة فجأة فتصخ الأذن وتترك خلفها طنينا هادراً يئز مع المواقد ويعوي مع المذياع ويقرقر مع نرجيلة قريبة ثم يقهقه ويبصق ملء الفم ويقسم بأغلظ الأيمان.

واذا هو يندمج مع القهوة. كلها في كيان واحد داكن حار، وينسى المدرسة وسخفها وفراغ حياته وجمودها. وتضيع حواسه في غيبوبة من العتمة والسخونة والصخب، وتنسل منه نفسه في خدر ضاغط مؤلم لذيذ ومعربد، يستغرقه ويلاشيه.

ـ خالي جابر، خالي جابر

في صيحة حادة نزقة

وقف فجأة ودفع رأسه إلي الوراء في حركة مباغتة، وقد انتزع من حلمه علي غرة، كما لو كان قد هجم عليه طارق مفاجيء. وانتبه ينظر إلي ابن أخته الصغير، فلفل.. وهو يناديه خارجا من بيت قديم حائل اللون، من تحت السماء الموحشة بالغسق.

طفل ضئيل ناحل، يرتدي جلابيته الواحدة التي كانت تفاخر في يوم من الأيام بانها بيضاء ناصعة، أما الآن فعسير أن تحدد لها لوناً علي

وجه الدقة، أهي رمادية مغبرة نوعا ما، أم هي تميل إلي شيء كالزرقة الكامدة، أو لعلها أن تكون رصاصية باهتة قذرة، من آثار وحل لم يشأ أن يزول، أو بقع زيت منسكب، أو ذكريات شاي أسود.أو بقايا دماء حائلة من جرح قديم ؟ أم هي مزيج معجز في اللون من ذلك كله، وغير ذلك كله ؟ عسير عليك أن تحدد، علي وجه الدقة.

طفل مستوفز نشيط، يبدو في عينيه الواسعتين، علي الرغم من التراب والذباب، نوع من ذكاء شقي متقد.

- خالي جابر، اعمل لي مركب وبالله بينا نعومّها في الترعة، يالله بينا هنا كويس، لأقدام شويه أحسن، يالله هه مد شويه.

وهو يشد طرف جاكتته في إلحاح يغريه أن ينزلا معا، كما اعتادا ان يفعلا في بعض الأصائل، إلي الشاطيء المنحدر، يختاران لهما مجلسا علي العشب الأخضر الوافر، ثم يرمي جابر حمله المدرسي إلي جانب، وقد انتقي منه كراسة يقتطع منها كمية كريمة من الورق تستحيل تواً إلي أسطول يغزو مياه الشاطيء الضحلة الموحلة، مركبا ورقيًا بعد مركب يتقدم مع الأمواج الصغيرة المهتزة، تميل وتطفو وتغوص وتجاهد الماء حتي تنقلب أخيرا وتمتليء فتنفرد في الماء، وتعود قطعا مبللة مهيضة من الورق. وهما يصيحان ويهتفان ويضحكان، يديران حركات أسطولهما ومناوراته في الأصيل الساكن الهاديء.

وكان الطريق متربا ونفرا في هذه البقعة، وقد امتلأ بالشمس ونسمة العصر.

ـ لا يافلفل معلهش النهارده، أنا تعبان شويه، بكره بقي.

ولكن فلفل يتذمر في كلمات متداغمه طب مركب واحدة ولا اتنين بس، شويه صفيره يعني إيه وكان جابر يحس إرهاقا مثقلا ومازال بينه والبيت شقه، فاستند إلي جذع جميزة ضخمة جافة منسية لم يبق لها إلا الجسم اليابس المكسور العتيق.

ـ لا يافلفل بلاش النهارده قلت لك، انا تعبان جدا من المدرسة ودروس المدرسة وقرف المدرسة، إسمع بكره مش حاعملك مركب واحده ولا اتنين حنعمل مع بعض مراكب كتير،كتير.. مالهاش آخر.

كانت هناك صداقة بسيطة تربط بينهما، ألفة وتفاهم مستتب لاتعبر عنه الكلمات، كعناق أخوي. لأن كليهما يشعر، دون أن يدرك تماما، بالغربة عينها في بيئة معادية، كلاهما ضائع.

وكانت الشمس تنحدر وراء أشرعة المراكب المتزاحمة التي تبدو من بعيد كأجنحة سوداء في حمرة الأفق والأمواج الصغيرة تصطفق بأخشاب المراكب، والنوتية يعدون عشاءهم فيتصاعد بخاره الأبيض من القدور القديمة المستديرة، والبهائم علي الطريق، تعود في صفوف طويلة، محنية رؤوسها، تخور إحداها فجأة خوارا طويلا متعبا، كأن فيه شكاة، وأصحابها يتبعونها بلا اهتمام، في سحابة من التراب، تنسكب عليهم موسيقي نزقة مرحة من العصافير المشقشقة بين هامات الشجر.

ونظر جابر إلي الصف الطويل من الأوكار الريفية التي يسميها أصحابها، بحسن نية. منازل. تلك البؤر المتداعية ذات الطلاء المتساقط

والشرفات الخشبية المعوجة والأبواب الفاغرة، تبدو في العتمة الداخلة كأنهـا تغـوص قليلا قليلا في تراب الطريق، يدوسها الغَسَق.

ووقف عند بيت أخته، وبدا له في الضوء الخابي من فتحة الباب، حصير وأدوات منزلية غامضة المعالم ركنت إلي الحائط. وماعز مربوطة إلي وتد في الفناء. ودجاج يروح ويغدو بين أقدامها يلتقط من الأرض، علي أشعة النهار الأخيرة، مايجد من طعام، وينق لأنه لايجد شيئا، ولأن الظلمة قادمة.

وارتفع بصره إلي الجدار الخارجي، بطلائه الأصفر القديم، وسور السطح المائل المتداعي، والنوافذ المسدودة بالخشب الخام. فتكوم في نفسه السخط والضيق والغضب، وارتفع، وانفجر في داخله كما ينفجر لهب مكتوم.

ـ هذه الزرائب تعيش الناس فيها ؟

ـ آه إيه ياخالي بتقول ليه ؟

رأي عينين واسعتين عميقتين تطلان بتساؤل في عينيه، عينين يتوقد فيهما ذكاء شقي حاد، سوف يتثلم حده، وعمق سوف يضمحل ويتوقد فيـهما مع ذلك شعاع غامض مـن حـزن وإدراك.

من يدري ؟ قد يتحول هذا الشعاع إلي لهيب كبير يغذو محرقة، ويلتهم هذه الزرائب وماوراءها في ألسنة النار، لهب قد يخمد ويختنق بين الرماد والحطام، وقد.. قد تشب منه النار قوية فتية. أو تطفئها دموع العـجز، والانسحـاق وقطـرات العـرق البـاردة المـترية تسـقط مــن جبين كليل.

لكن ماذا يهم كل ذلك الآن. طال به الوقت منذ ترك القهوة، وعليه ان يذهب يتعشي سريعا ويكمل عشرة طاولة، وسوف يمر في الغد علي فلفل، يصنعان مراكب من ورق.

ـ لا مافيش حاجة يافلفل. مافيش حاجة.إبقي استناني بكره العصر، هنا برضه. وأكد له الضوء المتألق في عيني الطفل أنه ليس في حاجة إلي من يذكره. وأنه لن ينسي في الغد.

انحدر في الزقاق الضيق، واصطدمت قدمه عفوا بكومة السباخ وأفلت كتكوت من تحت حذائه بمعجزة لكي ينضم إلي قبضة من الكتاكيت تنق وتتنادي وتجري في عقب النهار، ونفذت إليه أصوات عراك، بقية عراك الأمس، بين محضر المحكمة وزوجته السليطة.

وصعد إلي منزل أبيه عتبة رخامية متآكله مدفونة في تراب الشارع. وترك الباب مفتوحا ليجلب قليلا من الضوء وقليلا من الهواء.

وألقي نظرة غريبة إلي داخل المنزل، يتأمله كمن يراه لأول مره. هذا البيت الذي وُلد فيه وعاش تلك العشرين عاما من حياته، وقف في الغَسَق يحدق كغريب. ورأي السلم الصاعد إلي الدور العلوي، بدرجاته المكسوّة بطبقة من التراب المتحجر الجاف، وحوض المياه الجديد تحت السلم وأواني للطبخ مهملة تحت الحوض، وماءت قطة كانت تتسل تحت الحوض اذ سقطت علي رأسها قطرات من الماء.

ووقفت عيناه علي الباب المقفل دون شقه عبد الجاوي، البقال الذي يستأجر الطابق الأسفل كله، فيما عدا حجرة جابر، يساعد أباه بهذا الإيجار علي العيش.

كان أبوه مزارعا في عزبة البيه، وأفق آماله الذهبي يحيط بولده جابر، اذ يتخرج من مدرسته ويصبح هو الآخر ناظرا، أو مهندسا، أو صاحب عزبة. لم لا ؟ ليس علي الله شيء ببعيد.

ولم يستطع جابر، في وقفته الغريبة بالباب، أن يحول بصره عن أرض البهو الصغيرة القذرة والبلاط المتكسر تنبثق من شقوقه حشائش صغيرة، وروث بهيمة لعلها مرت في طريقها إلي الزريبة بالفناء الداخلي، وفضلات دجاج تحيط بالبركة الطينية الصغيرة المتخلفه عن ماء الحوض فوق البلاط.

وانفتح الباب فجأة، وخرجت منه نجية، زوجة عبد الجاوي، وفي يدها آنية نحاسية تمسح عنها إلي الأرض بقايا طعام، بلا اكتراث، لكي يلتقطه الدجاج.

وباغتته وهو ينظر إلي الأرض، وعلي وجهه تعبير ممض. ونظرت إليه بدهشة، فتدارك قائلا.

ـ سعيده يانجية.

ـ سعيده ياخويا، واقف كده ليه، فيه حاجه ؟ مالك، عيان ولا إيه ؟

ـ لا أبدا، بس أصلي، أصلي تعبان شويه، من الحر. أصل الدنيا حر النهارده. واستطاع أن ينقذ نفسه أخيراً، بعد تلعثم، بهذه الكذبة.

وابتسمت، وقالت كلاما تقصد به النصح، أو لعله ترفيه، أو كلام عن الجو أو شيء من هذا القبيل، ثم ذهبت إلي الحوض وفتحت الصنبور اللامع الجديد، تغسل آنيتها، وتمهل يرقبها لحظة، لمحة بصر.

لم تكن جميلة. وكانت تكبره في السن قليلا، لكنها كانت عذبة. ووهج الشباب يشع عليها نوعا خاصًا من السحر، أخاذا. وعيناها. عيناها كل شيء فيها، عميقتان، مصريتان، فيهما حساسية وذكاء وعطف. ولهما لونهما الخاص الرائع. لون مياه النيل في بقعة صافية، عند الفيضان، مزيج من السماء والطمي والعسل. وكانت ذراعاها عاريتين وقطرات من مياه الصنبور تسقط علي ساعديها وتتعلق بمرفقها الأبيض. وعيناها فيهما نظرة حانية، لأنها بعيدة ومقهورة، حائرة ولاتقع علي شيء. لكنه لم يكن يولي نجية كبير اهتمام. لم تكن تسترعي انتباهه.

ودخل غرفته وأقفل بابه وأوقد مصباح الجاز علي مائدة كتبه. وأخذ المصباح يشيع في الغرفة نوعا من الضباب المنير القاتم، بين الصفرة والحمرة الشاحبة، وفي هذه السحابة من أزيز المصباح وهو يتقد في أذنه جلس علي مقعده، وألقي برأسه بين يديه وأخذ يتحسس جمجمته المصدعة. رأسه يكاد ينفجر. أمريض هو ؟ كما تساءلت نجية ؟ أم الحرارة حقا هي التي تنال من كيانه كله ؟ وهي التي فتحت في نفسه ببطء أبوابا ثقيلة وشاهقة عن آفاق شاسعة خواء، كأنها أبواب المدن النحاسية في ألف ليلة ؟ أذاك مرض أم طارئ جديد غامض. ذلك الذي اندس بين عظامه أخيرا يبث له السم في كل شيء، يجرعه مرارة ويصهر أيامه في حمي بطيئة خامدة. حمي السأم والاستياء الذي لاسبب له، حمي التطلع بعيون دفينة محرومة إلي ذاك الذي لايمكن الحصول عليه.

ـ مرض أو عفريت. ماذا يعنيه الآن من ذلك كله. لاأهمية لشيء ما.. لأي شيء.

وبالطبع كان ذلك كله يعنيه بل يهمه. ولكن مابوسعه أن يفعل.؟

لايزال قبل العشاء ساعة أو أكثر، وليس أمامه مايقتل به هذا الوقت.

رفع فتيلة المصباح وترك البترول في جوفه يئز ويتقد، وفتح كتابا ـ بعد اختيار دقيق ـ من كتبه المدرسية. وأقنع نفسه بأنه يقرأ ثم أفاق بعد لحظة فإذا يقلب الصفحات الواحدة تلو الأخري، دون أن يدري وفي ذهنه ضباب لزج.

ـ كم هو بائس، بائس وتعس. ماجدوي حياته ؟ ماقيمة هذا الوجود السمج التافه. بلا طعام، ولا معني ؟

واختلطت الأشياء أمامه، وصعد إلي عينيه غيام يرتفع عن ينبوع دمع متحجر،لا يريد أن ينبجس.

وانطلقت من فمه ضحكة مُرة، هي حشرجة قصيرة تشبه الضحك.

ـ أهو مشفق علي نفسه إذن ؟ يبكي ؟ يربت علي نفسه ويمسح كتفيها، وينوح علي حظها التعس،كما يفعل المرء مع قطة هرمة مريضة ؟

وضحك مرة أخري من نفسه، في سخرية كالعلقم، يرثي لنفسه.. هه.

ورن في أذنه صوت حريري ناعم، أوه. مِرْسي. أشكرك .

فرفع رأسه في حركة سريعة وارتسم علي شفتيه شبح ابتسامة آملة خائفة، وتألق في عينيه ضوء بعيد. لكنه لم ير شيئا هناك. لم ير سريره

المزوي في ركن، ولا الصور القديمة التي سوّدت جوانبها خيوط الذباب المعلق الراقد في الليل، ولا مائدة كتبه تسبح في ذلك الضباب الشفاف من مصباح الجاز، بل انفتح أمامه أفق مشرق يانع في صباح حار. والطريق الزراعي يفضي إلي العزبة. وهو وأبوه وخفير العزبة وجمع من الفلاحين يسرعون لاستقبال سيارة سوداء فخمة كانت قد انشق عنها الأفق، وهي تقبل مارقة في سرعة متهورة، وقد كادت أن تنقلب في الترعة وهي تتحاشي جاموسة مهرولة ثم أفلتت، وهي علي حافة الترعة، بأعجوبة، وانطلقت علي سرعتها تصفر وتثير التراب، حتي وقفت فجأة، بعنف. حيال جرن العزبة.

كانت تلك بنت البيه، أقبلت بلا شك من مصر في سرعتها تلك المتهوسة. وكان واضحا أن هما عاجلا يثقل صدرها الأنيق الرقيق، وان شيئا مُلحا حيويا ينتظرها في القاهرة، كانت تنظر إلي ساعتها بسرعة وقلق، وأنفاسها تتابع، وهي تتطلع من نافذة السيارة في نفاد صبر. فتاة نحيفة ممشوقة، لها نوع من الفتنة المترفة، بعينها الزرقاوين وشعرها الذهبي المجموع في عقصة باهرة.

واكتسحت جمع الفلاحين بنظرة واحدة، بلا مبالاة، واستقرت العيناوان الزرقاوان علي أبيه وهو معرفة قديمة، وبادرته في لهفة، قبل أن يجد الفرصة ليلفظ كلمة ترحيب واحدة.

ـ بابا هنا ياعم حنفي ؟

وأخذ العجوز الطيب القلب قليلا، لا تحيّة ولا سلام. ثم أجاب سيدته الصغيرة أن نعم. البيه في السرايه، وأننا جميعا في غاية

السرور لرؤيتها. وأن.. وكيف صحة الآنسة... ولعلها بخير ؟

ونظرت إليه لحظة من داخل السيارة، في تفكير شارد، ومن الجليّ أنها لم تسمع شيئا بعد كلمة نعم. ثم بدا لها، فتذكرت انها لم تحي الرجل بعد، فابتسمت وسألته عن صحته ؟

وفتحت حقيبة يدها علي الفور، قبل أن تكمل جملتها، والتقطت منها قلما، وبحثت عن شيء، ثم أخرجت رسالة زرقاء القت عليها نظرة واقتطعت من آخرها، علي جنب، طرفا من الورق. وراحت تعبث بقلمها في زجاج النافذة، في سهوم، بينما الجمع ينهال بوابل من التحيات المضطربة والتمنيات المؤدبة يختلط بعضها ببعض.

وفتحت باب السيارة فجأة، ثم قفزت إلي الأرض في حركة نزقة، وفي يدها القلم وقطعة الورق، وأحدثت سرعة حركاتها تلك نوعا من الصمت المفاجيء. وراحت تدور في الجمع بنظرة باحثة، فعبرت بنظرها حشد الأطفال المحدقين اليها بعيون حمراء، يتعلقون بثياب أمهاتهم في خوف وتطلع، وجمع الفلاحات المخفيات أسفل الوجه بالطرح السود، والفلاحين المبتسمين عن آخر نواجذهم في تطلع خشن، وأباه الفائض بعبارات الترحيب. ثم استقرت عيناها عليه أخيرا - هو - لحظة أو لحظتين، في نظرة متسائلة، كمن يجد في جمع مألوف من الحيوان، حيوانا غريبا جديدا.

واتجهت إليه في حدّة، وسألته بغتة : هل يعرف القراءة والكتابة ؟

وبهت ولم يستطع إلا أن يجيب بنعم هزيلة خافتة من أقصى حلق جاف.

وقد عجب لنفسه بعد ذلك. نعم ؟ أهذا كل شيء ؟ ألم يستطع أن يقذف في وجهها بعبارة حاسمة نافذة. تسأله أيعرف القراءة والكتابة ؟ هو. بكل ثقافته وقراءاته ؟ لقد أعد لنفسه بعد ذلك ألف نوع من الإجابة الساخرة والبارعة والرائعة والمستهترة. آتته في وحدته حينما كان الموقف يتمثل له، مرات بغير عد، وفي كل مرة إجابة جديدة نفاذة، حادة كطعنة أو رقيقة كقبلة. أو متعالية. لكنه في المرة الحقيقية الأولي لم يستطع إلا أن يجيب نعم هزيلة مبحوحة خافتة، كأي جلف فلاح.

وأعطته القلم والورق.، وطلبت منه أن يكتب لها وهي تمليه قائمة مصروفات.

واتضح السر، إذن فهي قادمة من مصر تطلب من البيه والدها كمية أخري من النقود، ثروة صغيرة بلاشك، متذرعة بقائمة المصروفات، كأنها لم تكن تستطيع صبرا. ولم يكن لديه مايستند إليه الورق ليكتب عليه. فاحمر وجهه واضطرب وتفصدت علي جبهته بسرعة قطرات من العرق ووقع بصره علي نافذة السيارة الزجاجية فأسرع يسند إليها الورق.

وأخذت تملي عليه وهي تفكر، قائمة نفقاتها الأسطورية. أرقام ضخمة مزعجة. لكنه لم ينزعج ولم تأخذه المفاجأة. كان يقرأ المجلات ويعرف أرستقراطيات «المجتمع» كان فتي عصريا وأسماء النوادي والمحلات الكبري في مصر لم تكن لتدهشه. فهو يعرفها جد المعرفة. قرأ عنها بإلحاح ويحلم بها.

ونظرت إليه في دهشة خفيفة مستغربة، فلم يرفع إليها بصره، في تساؤل وارتباك، كما كانت تنتظر، كأنما كان علي خبرة بما تملي عليه.

استعاد هدوءه، وثقته وهو يكتب، وبدا وجهه منعكسا، علي زجاج النافذة، شاحبا مكبوحا كمن يعاني ضغطا جسمانيا، ثم لمح في طرف الورقة الزرقاء، علي الوجه الآخر، خطوطا من كتابة سريعه أظهرها الزجاج الشفاف. ولكنه لم يستطع أن يقلب الورقه بالطبع، ولم يستطع أن يميز الكتابة، وقد حفزه فضول لا يقاوم، فراح يحاول قراءة الكلمات المقلوبه، من علي الزجاج وهو يكتب في الوقت نفسه، وركز جانب بصره في هذا الركن.

وسطعت الكلمات لذهنه فجأة، من خلف الورقة المقطوعة، ـ الماضية وألف قبله ـ وثم بداية إمضاء مضطرب منقطع.

هبط قلبه دفعة واحدة ثم اندفعت الدماء إلي وجهه في نبضات سريعة قوية، وقد اشرقت الكلمات أمام عينيه، بكل معانيها، بكل حيويتها.

ـ وألف قبلة.

تري ممن جاءتها الرسالة ؟ وما قصتها ؟ إنه ـ هو ـ في حياته كلها لم يكتب لفتاة. ولم يرسل قبلات لأحد.

وانتبه إليها يسألها في شرود : نعم ؟

كانت تقول له شيئا لم يسمعه. ورددت في ضيق عصبي، إذ لم تلحظ انه قرأ الكلمات الأخيرة من رسالتها، تسأله أن يجمع لها القائمة. لم يكن لديها وقت أن تجمعها من قبل.

ـ شوف لي المجموع.

ثم صمت لحظة. وتذكرت أن تقول بأدب. خيل إليه أن فيه سخرية خفيفة :

ـ من فضلك ؟

وأخذ يتمتم ويمر بالقلم علي الأرقام الكبيرة، وقد عاوده اضطرابه، فساعده أبوه في المهمة الشاقة. وتمت العملية المجيدة في النهاية، ومد لها بالقائمة يدا خجلة ترتعش، لاتتقدم ولا تملك أن تتراجع. واختطفت منه الورقة، ومرت ببصرها علي القائمة وهي عاقدة حاجبيها الرقيقين، مقطبة في اهتمام، ثم تحولت إلي حيث أقبل الناظر يسبقها إلي والدها البيه، فأفسح لها الفلاحون الطريق.

ونظرت خلفها بلا اهتمام فرأته ينظر إليها كمن ينتظر منها شيئا، وشرد بصرها لحظة ورن الصوت الناعم الحريري :

ـ أوه. مرسي. أشكرك.

وابتسمت ابتسامة حلوة. ومضت.

وأسرع خلفها الفلاحون، مدفوعين بفضول غير مفهوم، وهرول أبوه في الركاب، واستمر الناظر يرحب بسيدته في وقار وجد.

لكنه هو ظل في مكانه أمام السيارة يحدق في الفراغ، ويقطب ويبتسم لنفسه، ويلمس زجاج النافذة بأصابعه دون أن يدري، ويبتسم ويقطب مرة أخري.

وبعد فترة من الزمن. عادت إلي سيارتها، بخطواتها الرشيقة المتلاحقة، وألقت عليه نظرة متسائلة لامبالية. تماما لو كانت تنظر إلي

الغفير، أو إلي جاموسة عابرة، أو كلب العزبة أو شجرة في الطريق. نظرة بلا مضمون، بلا اكثرات، دون أن تعطيها تفكير لحظة واحدة

ثم انطلقت السيارة الفخمة السوداء، تصفر في سرعة وتثير خلفها سحابة من التراب.

كان يسمع صوتا منغوما يتكلم من بعيد، من وراء ضباب ... الماضية. وألف قبلة. ويدا له الصوت مألوفا والحديث مفهوما، سياق الكلام مطمئن طبيعي. تلك الذكريات. الايام. المرات الماضية. وألف قبلة. لكنه لا يستطيع أن يتذكر تماما.

ـ مالك ياجابر. انت عيان ولا إيه. أوه. مرسي. أشكرك. وصوت أبيه. آه صوت أبيه يتكلم. ولكنه يقول كلاما طويلا بنغمة مصقولة مرحبة. كيف صحة الآنسة ؟ ولعلها بخير ؟ والراديو يصرخ ويعوي ومواقد الجاز تئز. لشد ماكانت المواقد الحاره تئز.

ـ شيش بيش. جهار. دوبيا. شوف لي المجموع من فضلك ؟

وقهقهة وبصقة تنطلق ملء الفم. وصفير حاد من باخرة في الترعة. ـ اعمل لي مركب ورق. معلش واحده بس ولا اثنين... وهو يحدق في ضباب بارد. في بخار أبيض يتصاعد من بعيد من قدر العدس. وكتكوت يجري وهو يصوصو، ليصطدم بكومة من السباخ، لكنه يغوص في داخلها كأنما تتحلقه وتطويه في ترابها. وهو لايندهش، كأنه قضي عمره يري أكوام السباخ تلتقم الكتاكيت الهاربة. وقطرات الماء تتساقط

علي ذراع غضة عارية، بيضاء في ظلمة الغَسَق، وتسقط من طرف الكوع الناعم، وهناك عينان تطلان بتساؤل في عينيه. وكان مهموما يسائل نفسه في قلق وحنق، لأنه لايعرف، عينا من ؟ هما عينا فلفل ؟ نجية ؟أم - عيناها ؟ إيه غباوة.ان عينيها زرقاوان انه ليذكر ذلك جيدا.وليسا في هذه السعة والرحابة . بل زرقاوان فيهما نظرة ضيقة لامبالية.

والعينان تلوحان في إصرار من خلال سحب الدخان. وتحدقان إليه من مياه الترعة الحمراء التي تصطفق بين خشب المراكب. وسحابة من الغبار تثور خلف السيارة في طريق مشمس مترب. والحرارة خانقة في الضباب. والعينان تتسعان، تتسعان أيضا. حتي يسود الظلام. وحرارة المواقد وهي تفح.

وعندما نادوه للعشاء ولم يجبهم أحد فتحوا باب غرفته فإذا مصباح الجاز اخذت فتيلته ترتعش وتدخن وترسل لهبا عاليا محمرا ثم تنخفض بسرعة وتتابع في نوبات متعاقبة محتضرة.

كان نائما علي مائدة كتبه، ورأسه علي كتاب مفتوح، وشعره يكاد يشيط من المصباح القريب. حرارة متقبضة، وضباب مرتعش من العرق البارد علي جبهته، وأصوات تتنادي. وفتح عينيه وراح يحملق أولا في تبلد، بين النوم واليقظة. ثم فهم، فأجاب في ضيق وكسل :

ـ حاضر. جاي أهه.

وصعد إلي الدور العلوي ليتعشي مع عائلته، يؤدي ضريبته.

كان مضطجعا، نصف قاعد، علي سريره الحديدي القديم، وهو ينظر إلي النافذة المقفلة التي يشع عنها في الغرفة ضوء شاحب مشبع برائحة السباخ الحريفة الجافة. وكانت الشمس تسطع علي خشب النافذة من الخارج. تصليه حرارة. وتلقي من خلاله علي أرض الغرفة خيوطا مستقيمة متجاورة يسبح فيها الغبار الدقيق. والغرفة المقفلة تبدو مفعمة بنوع من النور. غريب شفاف، يعطي للمكان رحابة وسكونا مرهفا، كأنه صومعة مقفرة صحراوية، معلقة النفس.

لم يكن يحب أن يدع النافذة أو الباب مفتوحا، عادة مستحكمة، ان يحيط نفسه دائما، طالما كان ذلك ممكنا، بجو محكم وثيق. ويحس نفسه تتشتت منه مالم يحكم سدها.

وتقلب علي سريره إلي جنب. ومرت أصابعه بشعره في عنف ضيّق، وضم رجليه إلي صدره، كالجنين يتململ في رحم أمه، فالحجرة حارة مبهورة، بل هي تنهج وتشرئب بالنفس. ولا جدوي من فتح النافذة في شمس الظهر هذه.

يوم الجمعة، ينتظره طول الاسبوع في صبر نافد، ثم يضيق به إذا جاء، كأنه عذاب لايعرف المفر منه.

وسمع وقع أقدام تقترب من غرفته، وتقف بالباب هنيهة، كأنها تتردد. ودهش قليلا، ثم رأي الباب ينفتح فجأة، في عزم وحدة ترتفع بلا قصد إلي حد العنف، فاعتدل في جلسته، وزادت حرارة الغرفة بما ملأها

من هواء ساخن مترب، فهز رأسه كـأنما يزيحـه عنـه. وابتسـم ابتسـامـة باهتة.

وقفت نجية قليلا ويدها علي مقبض الباب، وكان في مظهرها ثم شيء غريب جعله يعتدل تماما في جلسته، ويحدق إليها.

كانت تأتيه كثيرا في غرفته. تطلب إليه شيئا أو آخر من الحاجات المنزلية الصغيرة. فقد كان يحب أن يعيش في غرفته تلك منفردا عن عائلته أو يكاد، يكفي حاجاته بنفسه بقدر مايستطيع. كانت تطلب منه أحيانا قليلا من الجاز أو الشاي، إبرة وابور أو صحيفة قديمة. لكنها الآن تبدو غريبة، كأنما يحيطها وهج منبعث عن مصدر خفي. وفي وقفتها بالباب تبدو كتمثال يفور بحزن مكبوت جامد، بلا صوت. وتذكر دفعة واحدة تلك المناقشة الحادة. التي دارت بالأمس فسمعها من خلال جدار غرفته، بعد العشاء، وأذلها فيها زوجها، ودفعها في النهاية إلي البكاء، ملتاعة تخافت بدمعها، كذلك كانت تنتهي مناقشاتهما عادة.

كانت حياتها الزوجية مأساة قديمة مبتذلة متكررة. زُوِّجتْ في السادسة عشرة من نجار لم تكن تعرفه أوتحبه، وجاءته بولد علمها كيف تعرف، وكيف تحب. وابتدأت تذوق طعما للحياة. ولكن الطفل مرض. مرض ومات في آخر الأمر، في ظهر حار. في مثل هذا الظهر. في مثل هذا الظهر. وخيل لزوجها الأول، بصورة لا تفسير لها. أنها هي التي أفقدته طفله، وعندئذ انسلت في حياتهما إمرأة أفعوان، زوجة أخري،

نصف، داهية. وبعد شهور من الذل طلقها النجار، وعادت تعيش مع أبويها الفقيرين. ولم تكن بمقدورها أن تستمر عالة عليهما، فرضيت بزوجها الثاني. هذا العبد الجاوي. وكان ناجحا في نوع عمله، ومن خير مايوجد في السوق لهذه السلعة التي هي جسد الشابة المطلقة. كان الرجل يعيش في عالمه الضيق من الحواس الخشنة، عمل وامرأة وطعام. وهو أيضا نصف عمر، طلق أمرأته الأولي لأنها لم تنجب له ولدا، وهو يشتهي الولد. رأي لداته يذكرون أبنا ءهم، في حفظ الله في نغمة هادئة من الرضي، ويعوذونهم من العين بالخميسة الزرقاء من الخرز. فاشتهي أيضا أن يكون له النسل يستكمل به حياته.

وهاقد مضت سنتان أو ثلاثة منذ تزوج للمرة الثانية. ولم تعطه نجية بعد ولدا. وكان من الواضح أن الرجل عقيم، لكنه لم يكن ليخطر له ذلك علي بال. لم يكن ليريد يفهم ذلك. فزوجاته هن المسئولات بلا شك، وهو عند اتفه نزاع، يهددها في بساطة، ان يسرحها، أو علي القليل يستجلب له امرأة أخري، ضرة لها. تخلف له.

وفي ليلة الأمس كاد عبد الجاوي يلفظ بكلمة الطلاق، كاد أن يقضي عليها. ومثل لها مستقبلها، مطلقة للمرة الثانية، وقد جاوزت شبابها الأول. من يرضي بها عندئذ الإ حشاش، ربما، أو عربجي، ثم يطلقها بدوره، أتستحيل بعد ذلك إلي عاهرة شرعية، تبيع جسدها بالتتالي، في الحلال، لمن يدفع الثمن التافه، طعامها ومأواها لبضعة أشهر ؟ علي أن

لها بالطبع أن تبقي بلا زواج إذا شاءت، بلا طعام تقريبا. أو... هذا المصير المظلم كله.

لذلك كانت تتعلق في يأس بشقائها الراهن وبزوجها الجافي، لذلك بكت.وأدركت أنه يفكر - معها - في ليلة الأمس. وكانت منفعلة، ولمعت في عينيها دمعة مرارة، علي أنها استطاعت أن تبتسم.

كانت واقفة بالباب، ممسكة بمقبضه، والنور المبهم المعلق في الغرفة كأنه يدعوها، وثم حنان غامض ينبعث من حرارة المكان، وكانت ترتدي ثوبا قصيرا من نسيج خفيف، يتفجر تحته لحمها الممتليء بالشباب، وشعرها الناعم ينسدل في خصلات سوداء غير منتظمة، ووجهها غض مضيء بنور داخلي لماح. وعيناها عيناها، العميقتان بلون النيل الطامي، ذلك المزيج من ضوء السماء ومياه الفيضان وعمق غريب آخر - عيناها الحزينتان العطوفتان. وصدرها يبدو زاكيا متمردا علي فتحته، يرتفع ويهبط كموجة آتية علي جسر النهر، من بعيد. وحاولت أن تبتسم أيضا، لكنها كانت ابتسامة شيء محتضر يقوم بجهد أخير. ابتسامة واهنة متهافتة.

وتدافعت إلي وجهه الدماء، ثم فرت منه بعد لحظة، وتركته شاحبا يتنفس بمشقة. لم تكن قد وقفت بالباب أكثر من لحظة، ويخيل إليه أنه يراها هناك منذ الأزل، كان كل شيء يجري في نطاق المألوف العادي،لكنه يلوح في مستوي غامض صوفيّ كأنه حلم من أحلام

التخلق الأولي.

تقدمت إليه، كالعادة، تطلب منه علبة كبريت، وحاول كلاهما أن ينسي تلك اللحظة المشحونة. فأخذ يبحث في جيبه وهو يسألها مازحا عن معركة الأمس. لماذا تهيج الرجل الطيب إلي ذلك الحد ؟ وتجعله يصرخ في الليل، كدب جائع، وأجابته بشيء تافه وهي تضحك، ثم سألته، كالطفل، عما هو الدب ؟ كأنها لا تعرف... وأخذ يشرح لها، مغتبطا بسعة علمه، كيف أن الدب حيوان ضخم خطر يعيش في البلاد الباردة البعيدة، ويشبه ـ يشبه ماذا ؟ يشبه الفأر السمين حين يكبر ويكبر حتي يصبح أكبر من الجاموسة.

وترددت ضحكاتهما المتهافتة الضحلة. وتلامست يداهما وهو يعطيها علبة الكبريت. كان من العبث أن يتجاهلا ذلك الشي القائم بينهما. كانت الدماء تضرب في شرايينهما معا، كرصاص مصهور.

وكانت الحرارة تخدر حواسهما، والنور الغامض يدعوهما وأمسك بيدها ونظر إلي عينيها برغبة، بانسحاق. والأزيز الكثيف يطن في رأسه، وهو يسألها في لهجة مثقلة، ملهوفة :

ـ إسمعي يا نجيه، طب وان ماخلفتيش يعني، ماهو دا اللي حيحصل يانجيه، حيجري لك إيه ؟

فافلتت تنهدة صغيرة يائسة، في سخرية، وهي تستند إلي قائمة السرير، وفي يدها علبة الكبريت الصغيرة، الحمراء، ويدها الأخري قد تركتها، في يده، وهزت كتفيها :

ـ تفتكر حيجري إيه ياخويا، حيطلقني.. آل آدي الفوله وآدي كيّالها. آل ياعور ضربوك علي عينك...

ومصمصت بشفتيها، وهي ترميه بنظرة.

وجذبها إليه في لهفة، مندفعة ومترددة، وتركت نفسها تطيعه، وهي لم تعقد عزمـها بعد، وقال فـي لهجـة مكبوحة، بصـوت أجش وأنفاسه متسارعة :

ـ نجيه.

فشهقت وهي تقول بصوت خافت فيه خوف وضحك ولهفة :

ـ ياختي.. ياشيخ بلاش هزار اعمل معروف، بتعمل إيه؟

وثارت في جسدها زوبعة، وشملها الضوء المرهف المعلق. واحتضنها نوع من الدفء والغموض والحنين المبهور. وكانت مسكته بيدها رفيقة، فيها تملك مع ذلك. وهزت رأسها تزيح خصلة من شعرها المنسدل علي وجهها السخن، وحاولت أن تري وأن تفكر، لكنها كانت مجرد محاولة، مجرد إرادة للمحاولة. وانسدل علي عينيها قناع مموج ساخن من نور الغرفة وضوء عينيه، وحرارة الأثاث الخشبي المصطلي في الشمس، وحرارة يده التي تضغط علي يدها في هدوء وحنو ونداء لا يرد. ورفعت إليه بصرها، كانت عيناه مستقرتين علي منبت ثدييها النافرين، يبدو من آخر فتحة ردائها الصيفي. وقرب إليه وجهها.

واستمرت الظهيرة المتوهجة تسطع علي خشب النافذة، والشمس تدور ببطء بعيدا في السماء، وخطوط الضوء المستقيمة المغبرة تسقط

من النافذة المقفلة، وتدور ببطء علي أرض الغرفة.

ونسيا الشمس والنهار والسماء، ولم يعودا يعرفان غير شبابهما المضحّي وفورة الحس المكبوح، نسيا العالم في نشوة نابضة مرتعشة متطاولة. وأغمض عينيه. نسيا هذا العبد الجاوي وولدهما المنتظر له، هذا الولد الذي كان سببا في هذا العمل، سببا صادقا نبيلا لهذا العمل الصادق النبيل. العمل النبيل ؟ ماذا يهمه النبل أو الضعة في ظهر هذا اليوم الحار ؟ ورأسه يدور في غيمة كأنها أزيز المواقد، ثم انسدل علي ذهنه سكون حي رائع عميق، لا تقطعه غير أصوات أنفاس متلاحقة. وهمس كأنه في الحلم.

ـ وألف قبلة.

وتألقت أمامه في حمي، عينان زرقاوان وشعر ذهبي، ورن صوت حريري ناعم. وانطلقت من فمه ضحكته القصيرة المرة، حشرجة تشبه الضحك، وغاصت يداه تتلمسان، تتكشفان، طيات الجسد الناعم الحار، وتطبقان علي ركبتيها الباردتين يغطيهما عرق خفيف كالندي، وتضمهما إليه. ونظرت إليه في خوف ودهشة، وأغمضت عينيها تخفي عن بصرها عينيه المتقدتين الهاذيتين. انه الآن ينتقم. ينتقم من كل الشعر الذهبي في الوجود كله.من كل الجمال المترف الباذخ، من كل النظرات الزرقاء بلا مبالاة، ينتقم في روعة لاتحد، من أجساد السيارات الناعمة المنسابة، ومن ملل الدروس السمجة التي لا تنتهي، ووحشة المنازل

الكئيبة، في ظهر هذا اليوم الحار، يثأر لمأساة حياته الخامدة، وينتصر. فليدع مرارة لياليه تصفو الآن وتروق، ماذا يهمه من أحلامه الساذجة البريئة التي طالما عمرت فراغ شبابه، ماذا يهمه الآن؟ فليرو أحلامه الوحشية، وهو يجمع بين قبضتيه الكنوز المليئة ، وهو يضم ملء ذراعيه هذا الحلم الذي يلتوي ويرتجف، في ظهر يوم حار.

وانطلقت من فمه ضحكته المريرة المستمتعة. وارتعشت نجية بين ذراعيه وسري في قلبها رعب بارد وحاولت أن تتخلص منه، فضمها إلي عظام صدره في عنف متزايد ملح، وأنفاسها مبهورة من الخوف وأنفاسه لاهثة. وشيء كالمقت يأكل قلبيهما معا. وهو يعصر بين جسديهما التقزز الذي يرهف أعصابه ويشدها. ووجهه يدوس كتفها الطريّة. ألف قبلة، في سورة ضاغطة منبثقة أخيرة. سورة الراحة.

ومازال الشمس تسطع علي خشب النافذة، والخطوط المستقيمة المتجاورة من أشعتها مستلقية في همود شاحب بجانب الباب، وقد دارت كأنها تريد أن تفلت من تحت الباب، والأنفاس المعلقة المبهورة في جوف الغرفة أخذت تتراخي رويدا.

لم تكن تنظر إليه وهي تسوي شعرها وتحس مرارة في فمها، وألقت علي الغرفة نظرة حائرة، ثم انطلقت فجأة إلي الخارج، دون كلمة.

وفي غرفتها اعتمدت المائدة بمرفقيها، وراحت تنظر إلي الأشياء المعهودة دون أن تري شيئًا ماذا حدث ؟ لم يكن بمقدورها أن تعرف .

كانت تحس في نفسها فراغا يتمدد. ويثقل علي صدرها. ونظرت إلي نفسها في إنكار، كأنها تنظر إلي شيء لا يمت لها بصلة. وتلمست شفتيها، وحلمتي ثدييها من خارج الرداء، بأطراف الأصابع. لاشيء. ستنجب الآن علي الغالب ولدا. لكنها لاتشعر بالندم ولا الإثم. ليس لزوجها، فيما تحس، أي حق عليها. ودون أن تعطي للإحساس وضوح الفكرة، وتحديدها، كانت تعرف ذلك. ولكن هذا الذي حدث ؟ لماذا هي مرة وسأمانة ؟ أكان معها ـ هذا الولد ـ جابر ؟ هذه الضحكات. وهذا الجنون في يديه، وفي أطرافه..

وطفا في نفسها الضجر، وشعرت بشيء في يدها، ففتحت أصابعها المتقبضة. علبة الكبريت الصغيرة الحمراء. ونظرت إليها نظرة جامدة. واوقدت في بطء عودا منها، ولم تجد في نفسها أكثر من ذلك الجهد، فراحت ترقب العود في يدها والنار الصغيرة تزحف وتتراقص عليه، ولسعت النار أصابعها. فألقت بها إلي الأرض في احتدام مفاجيء، وسحقتها بقدمها في غيظ. وبحركة سريعة أخذت تعمل في موقد الجاز، وأقبلت علي عملها الذي نسيته، عملها الجاد تغرق فيه فراغها واختناقها، وهذا الجسد المتألب عليها. وضحكت فجأة. ضحكته المرة القصيرة. كأنها تعلمتها منه.

أما هو فكان يرتدي ملابسه ويتنفس في جهد، وخواطره مشتتة. وابتسم إبتسامة جافة. ألم ينقذها ؟ لكنه كان صادقا في البدء. كان

يريدها، وكان يريدها مع ذلك أن تتغلب علي حظها السيء.

لو أنه ـ هو ـ تزوجها ؟ لا.لا. فيم يفكر ؟ انه مضطرب. ليس في حياتهما شيء مشترك غير الوحشة. والوحشة لن تخلق زواجًا ناجحا. سوف تنجب ولدا إذن. مثل فلفل ؟ ذكي وجميل لكنه قذر ومضيع. يقضي حياته بين هذه الزرائب. ومن يدري ؟ قد ينسحق قلبه أيضا تحت نظرة لامبالية من عينين زرقاوين، يظللهما شعر أشقر.

وانتبه إلي نفسه يهمهم في غيظ، وهو يسير علي حافة الترعة، متجها إلي القهوة، بالعادة . وكانت الشمس قد توارت خلف السحب المنخفضة التي انحطت من السماء وانزلقت عليها بسرعة، تدفعها ريح قوية مفاجئة. وأمواج الترعة الصغيرة تتلاحق، والمراكب الضخمة قد طوت شُرعها وتركت التيار المندفع مع الريح يجذبها عبر الجسر المفتوح، وصواريها ناحلة عارية ومحدبة، كأنها جثث منقلبة لطيور بحرية ميتة انطوت أجنحتها تحتها وارتفعت سيقانها الهزيلة الطويلة المعوجة تشق السماء، والريح تدفعها إلي مصير غير معروف. والمراكبية بأجسامهم السوداء يجرون تتلاحق خطاهم علي حواف مراكبهم، وهم يضغطون علي عصيهم الطويلة يغوصون بها في طين الترعة، فتجري المراكب تحت أقدامهم، وخرق هدومهم الباهتة يضربها الهواء في عنف، كأنهم مع ذلك في صورة فرعونية منحوتة علي معبد قديم. صورة حجرية لاهواء فيها.

والمنازل إلي جانبه تبدو كئيبة تحت السماء المنخفضة، وشرفاتها الخشبية كأنما تهم أن تهوي إلي الأرض، من المضض.

وفي صيحة حادة مفاجئة، دهش لها هو نفسه :

ـ ياعم متولي، فيه طاوله فاضيه ؟ هات لنا طاولة إعمل معروف، بسرعة شوية وحياتك. وراح يرمي النرد مرة أخري مع أحد الزملاء، وهو يعود يندمج في القهوة، ويفنَي في ذهول دخانها المنعقد. والمواقد المتأججة تئز، والراديو يزأر في موسيقي شرسة، والمكان يسبح في ضبابة معلقة من قرقرة النرجيلة وقهقهة الحشاشين، وأقراص الطاولة تقرقع وتصطفق. وكانت صرخات الصبية في الشارع تصل إليه مختلطة بزقزقة حادة مرتفعة من العصافير التي تتواثب وتضطرب في قمم الأشجار علي الترعة، خائفة من الرياح.

جهار دوبيا شيش. وقهقهة وقسم بأغلظ الايمان، ثم قرقرة النرجيلة الطويلة المتأنية تصل إليه من خلال الأزيز المتقد وضجيج المذياع، وهو يفقد العالم. ويفقد نفسه في غيبوبة غائمة من العتمة والفحيح، والطنين يتفجر في قهقهة طويلة تقرقع وتدوي وتصرخ وتضطرب مع العصافير في الشجر.

ـ الف قبلة.

أمام البحر

لا فائدة. في كل مرة يدخل فيها هذا البيت، آتيا من ناحية البحر من الأزقة الضيقة الملتوية، ويتجاوز هذا الباب الخشبي القديم، تصدمه زهومة السلم المظلم الضيق. رائحة من حياة الناس وطبيخهم ونومهم ونسلهم ووسخهم المتراكم طول السنين. رائحة لاتنجاب أبداً، معلقة في سحابات رازحة راكدة حول خشب الدرابزين الذي يلمع لمعة قاتمة من طول ماتلمسته الأيادي، متلبثة بأركان الحائط الحجري الذي تساقط طلاؤه وتركت عليه أجيال متعاقبة من الاطفال تخطيطاتها الصبيانية وعباراتها البذيئة التي لا تكاد تستبين في العتمة.

وهو يصعد درجات السلم في بطء، يسمع مواقد الجاز تفح من خلف الابواب، وأصداء أصوات الأمهات المجهدات تدعو علي الأولاد الذين لايهدأون أبدا، وتقرع، وتشتم، وتلعن الأيام السود.

حيوات مزدحمة مليئة، مانصيبه منها ـ هو ؟ وهو يصعد إلي غرفته الموحشة علي السطح، إلي الجدران الصماء التي تحيط بأيامه، تُحدِق

بوحدته، وتحدد فراغ حياته. لازوجة ولا أم. وعليه أن يعد عشاءه بنفسه كل ليلة. وقد ضجر بذلك كله. نعم. لقد آن أن يترك ذلك كله، وسوف يتركه من الغد، نعم يتركه، لكي يجده مرة أخري، ويستأنف نفس الحياة في غرفة أخري علي السطح، موحشة، في بلد آخر. عليه أن ينفذ أمر النقل من باكر. ويبحث في الغد عن غرفة أخري في دمنهور، ينقل إليها مكتبه المتداعي، وسريره القديم، والمائدة التي يطبخ عليها، ويضع أدوات له وكراسي، كل موضوعات حياته. ومن الغد يبدأ تصحيح كراسات أخري، يسوّدها تلاميذ جدد بتمرينات الحساب. ويشرح جدول الضرب والقسمة المطولة، وتحويل الأرادب إلي كيلات والفدادين إلي قراريط. ونوسة، كلبته ؟

كم تحيره هذه المشكلة. ماذا يفعل بها ؟ لن ينقلها معه. واضح تماما أنه لايستطيع أن ينقلها معه. كان الامر يبدو له جليا، نهائياً. عليه من الغد أن يبدأ حياة جديدة، وعلاقات جديدة. لن يستطيع أن يحيا طول العمر علي هذا النحو، وحيداً، مع هذه الكلبة. من الغد صفحة جديدة. أولاً يعرف كيف يظفر باحترام الاولاد. نعم. لن يضطرب منه الأمر في الفصل، من غد، لن يفلت منه النظام، وسوف يبدأ في دراسة الرياضيات العليا. منذ سنوات وهو يتحين هذه الفرصة. ولا شيء الآن يقف أمامه، لقد عقد عزمه. ويقوم بتمرينات رياضية أيضا، كل صباح. خمس دقائق أولا ثم عشر ثم ربع ساعة، بانتظام، كل يوم. ويعني بهندامه، أكثر من

الآن. حقًا، هذه فضيحة. كيف قَبِل حتي الآن أن يرضي بهذا الهندام الزري... وسوف يبحث عن عروسة.

ما المانع ؟ وخفق قلبه. سوف يهتم بهذا الأمر، في حيطة وحرص وذوق بالطبع، وبعد أن تمضي فترة من الزمن في البلد الجديد، ودون أن يثير ضجة كبيرة. يكلف خاطبة بالبحث عن زوجة أمينة، طيبة، طيعة.ليس ضرورياً أن تكون باهرة الجمال. ليس من الضروري أبداً، بل لاداعي أن تكون جميلة جداً. وهو لايريدها غنية علي الاطلاق. أبداً. وإنما مخلصة بنت أصل. بغَضّ النظر عن الجمال. لايهمه أن تكون جميلة، ولكن هادئة الطبع، تعتني به، وببيته. وعندئذ تبدأ حياته فعلاً. من الغد.

وكان ينهج عندما وصل إلي باب السطح.وسمع نباح نوسة من خلف الباب، وهي تتواثب وتخدش الخشب وتموء في فرح مكتوم، منتظر.كم هي عنيفة نوسة.متوثبة بالحيوية. مشحونة أبداً بالانفعال. وأطلقت الكلبة نبحات قصيرة خافتة، وهي تدفن نفسها بين رجليه. وتمسح جسمها بساقيه في شوق وخضوع. كأنها تهب له نفسها دون تحفظ. وانحني يمسح شعرها الأبيض الناعم وأحس بين يديه بجسمها الحيواني الذي يتلوي في سورة اللذة بمقدمه. وشعر بين كفيه بحرارتها الصريحة التي لالبس فيها وهي تموء وتهر كأنها تتألم من فرط سرورها به، وترفع إليه عينيها اللتين تسيلان وتشتعلان بلمعة متقدة ضيقة قاطعة لاخجل

فيها. وكأنها لن تفرغ أبدا من التمسح به، ودفن بوزها الرطب بين ساقيه وفي يديه، وهي تجهد أن تتغلغل فيه بجسمها المتقلب، وتتلوي، حتي تنطوي بين ركبتيه وبين ذراعيه، كأنها تريد أن تندمج فيه، وتلتصق بجسمه، وتَفْنَي فيه.

وشم البحر يصعد نفسه البليل من بعيد، وأحس سخونة الكلبة تسري إليه وتعديه، فأخذ يدغدغها ويدعكها ويضربها ضربات خفيفة بجمع يده علي فمها، وقد ارتسمت علي شفتيه ابتسامة صغيرة شاردة جامدة، وفي عينيه نظرة غريبة.

وشعرت الكلبة بانفعال سيدها فلم تكد تطيق نفسها من الهيجان، وهي تنبح وتنهج وتتفزز وتجري متفلتة عنه في خطوات سريعة ضيقة ثم تعود مندفعة تقذف بنفسها، بكل عنف جسمها المتوثب، بين ساقيه، تعض يديه عضات صغيرة بأسنانها المنداة بريقها الخفيف، وتمسح جنب وجهها في كفيه، كأنها تسترحمه، وتتضرع إليه، في أنين حميم.

وعليه مع ذلك أن يتخلص منها.

وهو يضربها ضربات أخذت تكتسب شيئًا من القسوة والشدة، ويزداد فرح الكلبة بهذه القسوة منه.

ثم اعتدل، واتجه إلي سور السطح المنخفض، وليس في نفسه شهوة للطعام وليس به من مقدرة علي أن يعدّه لنفسه أيضا، وراح يطل علي الشارع الضيق في الليل. والسماء فوقه مترية منيرة بالنجوم، ونصف

قمر منسي في طرف منها، يريق ضوءه علي سطوح البيوت المكومة التي تنهار عليها أطراف السماء المكسورة. وتحترق من بعيد علامات النيون، في ثبات، كأنها لهفة لاتنطفيء فدعاها أن تأتي خلفه. وهو ينزل السلم إلي الشارع.

كانت نوسه تجري وراءه، يحسها تتفلّت حول خطواته، في انطلاق، علي أبواب البيوت المنخفضة التي تراكم عليها قَذَر السنين، ورطوبة الأيادي، ورائحة السمك. وجسمها اللدن النشيط فرحا بحياته الصغيرة ـ تحت السماء،تجري تشم الأرض وتتكشف الأزقة في انفعال، وتخاف من الصبية فتهرب وهي تنبح في ذعر قصير، ثم تقترب تتشمم النسوة اللاتي يجلسن علي العتبات وقد انحسرت ثيابهن الخفيفة الرثة عن سيقان متعبة مرمية علي تراب الشارع، سيقان منسية أجهدت عظامها شهواتٌ طويلة، وانتظاراتٌ لاتنتهي إلي شيء، وحرمانٌ بذيء.

وخرج فجأة من هذا التيه من البيوت المتضامة الكثيفة إلي الكورنيش، وترام الأنفوشي يأتي مصلصلا من بعيد، كأنه يحمل رسالة مضيئة إلي أصحابها في نهاية المدينة، ووشوشة البحر تصل إليه، مع هوائها الملح، مهدئة معزية، وأخذت الكلبة قليلاً قليلاً أمام هذا الانفساح الذي يجابهها فجأة، كأن العالم قد انتهي مرة واحدة إلي تخومه الأخيرة، وليس أمامها بعد إلاّ هذه السعة الرهيبة تنفتح تحت السماء، لا يفصلها عنها إلاّ الشارع المسْفَلت النظيف، فاقتربت من قدميه،

تحتمي به، وترفع إليه وجهها في تساؤل وقلق، وهي تزوم في حيرة متطلعة خائفة.

وعبر بها الشارع وهو يناديها خلفه، والسيارات تمرق وراءهما سريعة خاطفة، تأتي من عالم آخر إلي مقصد لاصلة لهما به، تمر بهما منطلقة بلا اهتمام، أشياء من كون لايعرفانه.

وقفز من علي السور الحجري الصغير إلي الساحل الضيق. وهبط علي الرمل الناعم الرطب، واذا أطرافه يثقلها إرهاق لاقبَل له به، فسقط علي الشط خائرا. والأمواج الصغيرة ترتمي أمامه علي الرمل، في وداعة خادعة لا اطمئنان له فيها. وقوارب الصيادين الصغيرة ملقاة حواليه، حطامات مرمية لا معني لها تمتد عليها شباكٌ خائنة.

وقد خفت صوت العالم من وراء السور الحجري، وليس إلاّ صرصار يصفر وحده في الليل، في نغمة نحيلة ولكنها واضحة، مؤلمة الوضوح، أمام البحر الهادئ. وصوته الصغير دائب لايني، مرتعش ولكنه مصمم أمام كل هذه السموات، لن يسكته شيء.

في الغد يبدأ حياة جديدة. في الغد سوف يجد المعني الذي أفلت منه حتي الآن. وكراسات الحسابات سوف تحمل قيمة له، وللأولاد. الحساب، الحساب هو العقل، هو المنهج، هو وزن الأشياء، والطريقة المثلي للوصول إلي ما للمسائل من حقيقة. نعم سوف يعلم الاولاد، من الغد كيف ينشدون مغزي المسائل، كيف يعملون حتي يصلوا إلي

حقيقتها باتزان، ونظام، وعقل، وسوف يبحث هو سوف يعرف كيف يبحث عن معني حياته الذي تسرب بين أصابعه، وسوف يبدأ هذا في حيطة، وحرص، وذوق بالطبع، دون أن يثير كبير ضجة، في اتزان ونظام وعقل. كان هذا المعني ينتظره منذ البداية بلا شك وكان بين يديه، لكنه أضاعه، وضل طريقه إليه، حتي الآن. جميلة ؟ لا، ليس ضرورياً أن تكون جميلة جدا، أبداً، بل عذبة فاهمة، حنونة.

وانتبه إلي نوسة تقفز إلي كتفيه وتلحس وجهه في رفق. كأنها تناديه اليها. وتسترجعه من بعيد، وهي تهز جسمها كله، وتقرب بوزها الصغير المدبب الرطب من خده، وتلتصق ببطنها بين أعلي ذراعه وجانب صدره، تدفن نفسها تحت كتفه، وتمد له لسانها الرقيق تلحسه لحسات صغيرة طفلية. وعيناها تسيلان من الحب والخضوع، من هبتها لنفسها تقدمها له بلا تحفظ، بلا شرط، دون أن تطلب شيئا.

دفعها عنه في عنف مفاجيء، فسقطت الكلبة علي الرمل،ثم هبت علي الفور متفززة بالحيوية والفرحة، تنبح نبحات صغيرة مسرورة، وفي ظنها أنه يلعب معها، وأن المرح الحقيقي سوف يبدأ الآن، إذ تسقط علي الرمل وتتمرغ متقلبة ثم تعتدل وتجري وتنط في بهجة لاحد لها. وأبرق في ذهنه نورٌ ذو شُعَب، وتبدّي له في ضوء ساطع أن عليه الآن أن يخلص منها. الآن. سوف يبدأ غداً في أن يحيا حقيقته. أما الآن فعليه أن ينُهي وحدته.

فأمسك بها وهو يقف، ورفعها بين ذراعيه، وذهنه يعمل في توقد سريع. كيف يخلص منها. واستكنّت بين ذراعيه وهي ماتزال تتفلت وتموء قليلا. فقد خيّب ظنها أنه لم يواصل اللعب. لكنها أوت إلي حضنه في راحة وثقة، وأحس جسمها الصغير الوديع إلي صدره آمنا كله تسليم. لكنه لن يرجع الآن.

كيف ؟ أيضعها تحت الماء بيديه العاريتين ؟ حتي تختنق في النهاية ؟ وسوف تتملص بكل مافي جسمها من رغبة عنيفة لجوج في الحياة، بكل ما في عضلاتها وأطرافها من تشبث بالنفَس، أيخنقها بيديه تحت الماء، يضغط علي رقبتها الصغيرة بأصابعه في قوة وتصميم، وسائر جسمها يتلوي منه تحت الماء، يحاول التفلت من قبضته، حتي تنهدّ أخيرا وتستكنّ، مهيضة، لانبض فيها، جاحظة إليه، بعينيها المذعورتين، المعاتبتين، في إنكار ؟

لن تواتيه الجرأة أبدا، لن يجد في قلبه هذا العزم...

وكان قد اقترب من حافة الماء ووقف يرقبها وفي عينيه نظرة ليست منه، واستند إلي سيف قارب يحجبه عن المدينة، ويكتم عنه أصواتها، فكأنه في وحدة مع البحر، والقارب يرتفع شاهقا خلفه، يحدّ الكون كله من ورائه، كأنه سور أخير ينتهي إليه كل شيء. والماء يذوب في الرمل تحت قدميه، وهذا القمر المنسي يكاد يختفي خلف أبراج قصر بعيد في وسط البحر، هذا متحف الأحياء المائية، كان ينوي أن يذهب مع

التلاميذ في رحلة إليه، لكنه لم يستطع أبدا، ليس يدري لماذا، لسبب أو آخر، وهو يبدو الآن كأنه قلعة قديمة في جزيرة أسطورية، لن يصل إليه أبدا.

وارتفع الماء فوق رأسه فجأة، ارتفع حتي وصل إلي السماء، وهو نائم علي رمل القاع، ملقي علي أرض البحر تعلوه أمواج هادئة شاهقة، تحيط به، وتتسايل بجرمها المائي الكبير فوقه، دون ثقل. وهو ليس غريباً في الماء، بل ملقي به في جوه المالوف، لكنه مغمض عينيه وفمه، ويري زرقة الماء الشفافة فوقه مع ذلك، زرقة ساجية صافية، تتسايل حوله، دافئة ليس فيها غرابة. نائم علي ظهرة علي الرمل لايجرؤ أن يفتح فمه ولا عينيه، لكنه يري النجوم البعيدة من خلف جفنيه، تلمع طافية علي سطح الموج العالي، فوقه، كأن السماء تلتصق بجلد الماء مباشرة.

وقد اختفت نوسة. لم تمر بذهنه قط. لم تكن قد وُجدت في حياته كلها، ولم يكن قد عرفها أبدا. لم تعبر بفكره في يوم من الأيام. بعيدة عنه بعيدة. غريبة غربةً تامة كاملة، غربة شيء مجهول لم يعرفه أبدا، لكنه في أزمة. أزمة من نوع هادئ فاجع محتوم. كل لحظة لها قيمتها الحاسمة الحيوية. كل دقيقة من الزمن لاتعوّض. وأخته الصغيرة التي ماتت في صدر شبابها، منذ سنوات، تقف في الماء إلي رأسه وتتكلم إليه في الجو المائي الراقراق. تدعوه ألاّ يفتح فمه الآن، أن يظل مغمضا عينيه، لكنه يراها، سوف ينتهي الأمر وشيكا. وهي تكلمه الآن عبر الموج الرقيق، يري وجهها الأسمر البيضاوي الناعم، من خلال جفنيه

المغمضتين، وكأنها تتكلم إليه من فوق البحر، من الجو العلوي، فوق السماء، من السعة الكبيرة، التي ينفسح فيها الصدر لكي يستروح الهواء الحلو الهفهاف. تهمس إليه في رقة أخوية انتظرْ قليلا، انتظر أيضا وهي تجرّه، دون جهد، حتي تخرج به إلي الساحل.وهو ينساب معها دون أدني مقاومة، نائما علي ظهره علي الرمل. وهو هادئ صابر ينتظر حتي تدعوه أن يفتح عينيه وفمه، ينتظر وكل لحظة لها قيمتها النهائية التي لاتعوض، هادئ في أزمة صامتة حتمية من الماء الذي ينساب حوله وفوقه، يملأ أفقه حتي حافة السماء. وأخته تجره علي الرمل كأنه لايزن شيئا علي الاطلاق، خفيفا لاجسم له، جراً بطيئًا بطيئًا، لاقياس للزمن فيه. وكل لحظة تمر لها أهميتها القصوي، وتهمس إليه في رقة بصوتها المألوف القديم الحنون. صوتها المتزن العاقل الخافت. وأزمته تزداد عمقا دون أن يضيق بها، دون أن يحس حرجًا ولا كربا. كأنه لايريد أن يتنفس في الواقع أبدا، وصدره مقفل وعيناه مغلقتان، ولكنه لن يستمر الا بضع لحظات أخري إذا سار الأمر علي هذا النحو، بضع لحظات قليلة جداً، إنْ لم يخرج إلي الساحل، إلي نور السماء الجاف، حيث الكون فسيح يهب به الهواء، وأزمته شيء محتوم لا يقبل المناقشة، وهو لذلك ملقي بطوله علي قاع البحر، قريبا، قريبا جدا من الساحل، ولا يملك حراكا، وأخته الميتة تهمس به، ليس الآن، ليس بعد، في لحظات قلائل، وتجره دون جهد إلي الساحل المنير بضوء القمر الذي يغرق في الأفق. إلي الرمل الجاف تحت سماء الليل البعيدة العالية الرحيبة.

قصة ميعاد

ـ عبيط، والله العظيم عبيط.

وهو يبتسم لنفسه ابتسامة لاتكاد تستبين، وقد استند بمرفقيه إلي سور الكورنيش، ونظرته معلقة بالموج الثقيل الذي يترقرق كثيفًا في محبس ضيق ينتهي إليه من رحابة البحر الفسيح،تحت الأحجار العريضة التي ترتفع من سيف الرمل القليل، صلدة متينة الأسر اكتسبت لونها الرمادي العتيق، المخضرّ شيئاً ما، من طول تحديها الرياح ومواجهتها رشاش الموج وهجوم الشمس الذي يتجدد كل يوم. وقد سحرته هذه الخطوط المتسايلة اللزجة، يتميع تحتها الضوء المنعكس عن مصابيح الكورنيش، في غبرة مساء قليل الوضوح.

واستهوته، بغموض، هذه النعومة الدسمة الطرية في الماء، يستشف من تحتها، في الضوء الكهربي، جسد الرمال الراكدة في هذا الركن المطمئن، بينما الأمواج ما تفتأ تأتي من بعيد، في كبرياء، تمتليء بها جوانب البحر، وترتمي علي الشاطئ برغوتها المحنَّقة لتعود من جديد،

عالية الصدر. هذا المحبس الصغير وحده أفلت من كِبْر البحر، وكأنه قد نزل عن كل خيلاء، وأوي إلي الضوء تريقه فوقه مصابيح الطريق، والي لمعات مدببة مشعة من النجوم، وعجينة هذا الماء الرخي تنساب في طيات بطيئة كثيفة.

وقد تأخر لا شك عن ميعاده، لم يكن يحمل ساعة. لم يكن يحمل أبدا ساعة. لكنه تأخر بلا شك. واستشعر سرورا خفيا، كأنه خبيث، وهو يراها تنتظره في الكازينو القريب، تنكت الأرض بقدمها، وتخبط في دقات سريعة منفعلة. هي تفعل ذلك كلما ضاق بها الأمر، تفلت من كربها بالدق علي الأرض، وترفض، وتصمم علي أن ترفض النظر إلي الباب في عناد بل تلح النظر إلي البحر من خلال الزجاج المغبش القذر، تحت ستائر الكازينو المهدلة. والسماء تدخل لها من خلال ضبابة الزجاج، كأنها مِزاج حائل قذر من سوائل ليلية مشبوهة.

وخفق قلبه، وتسارعت خفقاته، لكن قدميه ظلتا مسمرتين بالأرض، لايريم. وابتسم لنفسه ابتسامة واهنة. عبيط بلا شك. والمشكلة القديمة لا تكاد تستيقظ في نفسه، ولا يكاد يستقر لها عزم. أيقطع أمره إذن، ويتركها الليلة تنتظر، فلا يذهب اليها، ويخلف ميعاده؟ جُبْنٌ ذلك مافيه من شك. خَوَر لايكاد يقبله وطراوة نفس يأباها أيضا. فإن كان عليه فعلاً أن ينهي هذه المسألة، فلن يتم ذلك بهذا الشكل. بل يتحتم عليه أن يصارحها في بساطة وصدق. آه هذه الصراحة والصدق. أيمكن أن

تكون ثم بساطة، أو صدق، في هذه المسائل ؟ عليه أن يتكلم إذن، يتقدم بشروح وتفصيلات وتحليلات. وما جدوي الكلام ؟ أليس الشرح نفسه، والكلام، نوعاً من التسليم للمشكلة، نوعا من الهزيمة ؟ ولو أنه قام بهذا التحليل، بهذا التخليط من الكلام، يبرر به فصم العلاقة بينهما، لقامت من الشرح نفسه، رابطة جديدة. وعندئذ تتكشف بينهما علاقات جديدة أخري لعلها كانت مستخفية بهما، ويغوران معاً، إلي عمق جديد في أرض نفسيهما معاً، حتي ليزداد انتزاع القدم صعوبة، ويشق الخروج.

وهو لن يجرؤ أبدا. لا. سوف يؤلمها. وما أشق أن يؤلمها علي نفسه. ليترك هذا كله الآن إذن.

فيما بعد. فيما بعد. ربما جاءت الامور سهلة، طبيعية، فيما بعد. من تلقاء نفسها.

أيطيق نظرتها إليه، وهو يشرح لها أنه في الحقيقة لا يحبها ؟ مهما غلف ذلك بعبارات لبقة، مبهمة، أقسي مع ذلك من الكلمة الجافة الحاسمة، لأنها، بالضبط، عبارات تنفسح أمام الشك، أمام البصيص من الأمل الذي يبقي، عنيدا، مدافعا عن نفسه ؟

وربما بكت، في الكازينو، تحت أنظار الجرسونات والناس، من يدري ؟ لن يحملها أبدا هذا الهوان، وهي الأبية الكبيرة النفس.

ثم.. أهذا مقدار عرفانه بالجميل ؟ أبهذا الشكل يعبر عما في نفسه

من امتنان ؟ فلا شك أنه في الحقيقة مدين لها. مدين لها بالكثير. هذه الساعات المرحة الحلوة التي قضياها معا، في السينما وفي المحلات العامة، في الشوارع أيضا، وهي تسير إلي جانبه، رشيقة، خفيفة، قريبة إليه، حميمة في زحمة الناس، دفئا أمام برد البحر وأنساً أمام وحشة سماءٍ مهددة. وهي التي عبرت إليه مناطق لم يكن ليجسر أبدا هو علي عبورها، مناطق من العثرات والسدود. ومدت له يدها، في الحقيقة، هي، فلم يكن ليجرؤ أبدا أن ينشيء علاقته بها إنشاء.

كان بعد انتهاء عمله في الشركة، يتابع دروسًا في الفرنسية، تنظمها الليسيه.

وهو يعرف أي أثر كان يخلفه في زملائه ومدرسيه. صمته المتعالي الذي يقنّع خجلاً مؤلماً جارحاً، وانزواؤه تحت مظهر من الجد، والتحفظ، حتي يقي نفسه، وإنما يطل من عينيه ـ فقط ـ تساؤل نشيط، وفضول لا يقاوم، وسخرية يدافع بها عن نفسه.

وقد لحظها علي الفور. كأنما انتقلت إليه، لحظتها، شحنة من الحيوية التي تنطلق من كل حركة لها. وجهها اللماح الحاد التقاطيع، والذقن الصغيرة، العنيدة، وهزة الرأس أحيانا في نفرة، والعينين السوداوين المتألقتين أبداً، بذكاء، بما يشبه قوة تائقة للإنطلاق، بل للجموح. وهي التي تسأل المدرسين، وتتقدم للإجابة عن أسئلتهم في جرأة تكاد تشفي علي الاستهتار. أو تنصت للمدرس، في دروس قواعد النحو بخاصة،

وهي تضرب الارض بدقات خفيفة سريعة مستوفزة. ولم يكن يفلتها تقريبًا من بصره، متابعاً مع ذلك درسه، يرقبها، كأن ليس بوسعه إلا أن يرقبها، ولا يبدو عليه، أثناء ذلك، إلاّ أن الدرس، والدرس فقط، هو كل ما يشغله.

أكان يعرف أنها قد انتبهت له ؟ وأين هي البنت التي لا تنتبه لكل نظرة ـ خاصة ـ تلقي إليها ؟ لم يكن ليشتبه في ذلك قط، في أنها، ببصيرة بنات جنسها الحادة، أدركت هذا الاهتمام العميق الذي يربّيه في نفسه لها، في خفية عن نفسه أيضاً، وفي أنها قد استجابت له، في بُعدها، دون أن يدرك. استجابت لندائه الصامت، بل ندائه المخرَس، ندائه من حاجته إليها، من فقره إليها.

وشروده الواجم، وانعزاله، وهذا الأدب الكثير في كلماته وحركاته، ووحشته، وسخريته الخفيفة التي يحمي بها عريه الحساس أمام الصخر الخشن، كل ذلك مسّ فيها وتراً دفينًا في عمقها. فأحست لو أنها غلّفته، ولففته وبطنت له هذه القسوة التي تثقله وتجرحه، لو أنها أحاطته بدفئها، ولمته في يديها، وانحنت عليه. وتقلّبت هذه المشاعر الكثيفة الغامضة في حشو لحمها دون أن تدرك لها وضوحًا، كأنها نغمات بدائية مدفونة في رحم أرض خام.

كانت الشمس الصيفية الغاربة تنير غبار الطباشير الخفيف المعلق في غرفة الدرس، والمدرس يشرح فصلاً من النحو، لا ينتهي، في تصريفات أفعال لا تنتهي، وفي الغرفة تعب آخر النهار، وسأم، وتوق طفيف إلي

هواء المساء الرخي، وحلم يطوف في النفوس بغموض، بعيداً عن صوت المدرس الرتيب. وكانت تجلس إلي جواره، وقد هبط عليهما معاً، في حسه، نوع من الاستسلام لسحر المساء المبهم الذي يرود العالم في الخارج، ونوع من الرضي الكليل بالحرمان منه، عندما سمع همستها الخافتة،بالفرنسية :

ـ أستطيع أن أستلف كراستك لحظة ؟

لكنه لم يندهش، وهذه أول مرة توجه إليه الكلام مع ذلك، كأنهما يعرفان أحدهما الآخر من قديم. فرد في بساطة :

ـبالتأكيد.

وهو يمد لها كراسته، في خفية عن الفصل، في تآمر حميم يربط بينهما وحدهما، ويفصلهما عن سائر الناس، وعن العالم كله. وعيناه تبسمان لها، ابتسامة لا تكاد تلحظ، كأن فيها سخرية خفيفة خفيفة، وهي عابسة قليلاً، دون جهد، دون غواية.

وعندما انتهي الدرس، وخرجوا في جماعة وثيقة متقاربة، إلي الفناء الهادئ، تحت أول الليل، وطراوة أنفاس البحر تصلهما محملة بمعان غامضة من الشوق، سارت إلي جواره علي الطريق النازل إلي المحطة، وترام الرمل يبدو لهما تحت الطريق، في سكته الضيقة الغائرة تحتهما، يجري علي طرف حياتهما، يصلصل في نغمة مبتهجة، كأنه في أول ليلة عيد.

ـ أحتاج للكراسة الليلة. يمكنك أن تستغني عنها ليلة، ليلة واحدة، أليس كذلك ؟

ـ ولكن... بسرور يا آنسة... ؟

وهو يسألها اسمها ـ فلم يكنَ يعرفه بعد ـ بابتسامة محرَجة شيئًا ما، مسروراً أيضًا من لباقته في العثور علي مناسبة يسألها فيها عن اسمها، دون تقحّم كبير.

ـ نقّاش. إيفون نقاش. تستطيع أن تسميني إيفون مباشرة، أو إيفا... وسكتت لحظة، هنيهة من الزمن لا تكاد تقاس. وقالت :

ـ ككل الاصدقاء.

وهي ترمي إليه نظرة دعوة، نظرة ثقة، بل نظرة فيها من الآن شيء من الملكية، كما لو كانت قد ضمته إليها، فعلا. واستأنفت، مبتسمة ابتسامة خفيفة :

ـ وبالطبع لي الحق في أن أدعوك باسمك الأول.موافق ؟

وكانت تكلمه الآن بصيغة المفرد، بيسر وببساطة أخذت تسير إليه، عبر مسافات طويلة، بخطوات واسعة رشيقة. خطوات أميرة تعرف أنها تخطو إلي أرضها، وترفع إليها ماهو فعلاً لها.

وكان يدغدغه هذا الشعور، أنها تسعي اليه. وفرحةٌ، في إحدي جنبات نفسه، أنها هي التي تمد إليه ذراعها. وإنما كان يحس، في بعد آخر من أبعاد نفسه المستخفية، شيئا من الحنق. لماذا تأخذه، علي هذا النحو، قضية مسلماً بها تماماً ؟ كما لو كانت تعرف أنه ينتظرها، في ركنه ذاك من نفسه، ولا يتمني إلاّ أن تتناوله، وترفعه إليها، ولن يقدر

أبدا مع ذلك، أن يذهب اليها.

هذا الشعور البعيد بالحنق الخفيف، لايكاد يستبين له، دفعه فجأة لأن يخطو خطوته الاولي :

ـ ألديك لحظة فراغ، تتناولين شيئًا ما، في مكان بالبلد مثلا ؟

أيمكن أن يقال أن تلك خطوته الأولي، أليست بالاصح مجرد استجابة منه، استجابة تكاد تكون محتومة، في تلك الظروف، لدعوتها الواضحة ؟

وقبلت علي الفور واستطاع لأول مرة أن ينظر إليها مواجهة، قبالته علي المائدة الصغيرة في زحمة الناس، وهي تشرب فنجانها من القهوة باللبن. كان وجهها هذا قريبًا إليه، لأول مرة، قريبًا مجسمًا محدداً، يقع عليه النور، ويكسبه صلابة خاصة. وأحس فجأة بشيء يشبه الخوف. وأدرك فعلاً أن لها وجوداً ماديًا ملموسًا، أن لها هذا الوجه الذي تكتسي عظامه باللحم، اللحم الرقيق الغض المشدود في طراوته، وأن لها هذه الوجنة التي يستطيع إذا شاء أن يمد إليها أصابعه، فيحس نعومتها، ويجس العظم تحتها، وأن لها، تحت عينيها، هاتين الدائرتين الخفيفتين المظللتين،وأن في حاجبيها شعراً دقيقًا وفوق هذين الكنزين القرمزيّين الدافئين من شفتيها زغب رقيق، كأنه مجرد وهم كأنه ايحاء. وأن في عينيها عمقًا أسود فسيحًا لانهاية له، يرتفع إليه فجأة، إذ تترك فنجانها، وتنظر إليه، فينصب عليه مباشرة ويذهله، وتوقفت دقات

قلبه لحظة، لحظة كأنها أبدية ليس لها أول، ليس لها آخر، ليس فيها زمن. وهي ترمقه في جد، وفي سكون. دون غزل ولا معابثة. كأن هناك بالفعل شيئًا جاداً خطيراً، خطيراً، بينهما.

لم يكن يراها حتي الآن، ولم يكن يتصورها، إلا بعيدة، شيئا غير واضح، فكرة أو حلما أو كلمة، دون معالم، تحيطها هالة مشتتة خافتة، كما لو كانت في عتمة السينما. أما الآن فها هي أمامه، كيانا، وجسدا، وهو يري نهديها المجسمين تحت النسيج القطني الخفيف الملتصق، ويحدس استدارة هذا الجسم البارع المحبوك، وقد جاءت ساقها إلي جوار رجله ولامستها، واطمأنت دون خوف ودون قلق. وهو يشعر بالدماء تضرب في ذكورته، ويحس نفسه ينتابه دوار خفيف.

وها يتعارفان. تحدثه عن نفسه وعن عملها في البنك، وانها تتعلم الاختزال، وتتابع دروس الفرنسية حتي تتقن اللغة. وتسأله عن نفسه.

وتوثقت صداقتهما. كانا يخرجان من الدرس معا، يذهبان إلي محل عام، أو يتمشيان علي البحر. ودعاها إلي السينما. وعرفت أياديهما بعضها البعض.

وبدأت المشكلات تقوم في نفسه. أيحبها هو حقا ؟ هاهي شهور قد مضت، والسنة الدراسية أوشكت علي نهايتها. ولم تكن هي لتمس هذه المشكلة أبداً. كأنها لايعنيها أن تستمر هذه الصداقة، وتتطور إلي نهايتها التقليدية، أو لا تستمر، ولا تتطور، وموضوعات الخطبة

والزواج لم تأت في حديثهما قط. ولكن المشكلة قائمة بينهما، لاشك.
وهو لايشعر إطلاقا بعد بأية رغبة في الاستقرار، في الانتهاء. كأنه
يخاف. ويؤجل القرار دائمًا إلي مابعد.

ماذا يحدث فيما بعد ؟ ليس الآن. ليس عليه أن يحدد الآن شيئًا.
وإنما عليه، حقيقة، أن يسرع إلي الميعاد.

وكانت ابتسامته الخفيفة ماتزال منسية علي شفتيه. كان يشعر، في
خفية، بشئ من المتعة، وهو يتصورها قلقة عصبية تنتظره وتفكر فيه،
تخاف عليه من حوادث الطريق، أو تخاف مجرد الخلف بالميعاد. وتأمل
أن يأتي، لايشغلها الآن إلاه، شعور فيه انتقام طفيف، انتقام من قسوة
نالته كثيرا، طويلا. قسوة فرضت عليه، دائما، أن يكون منسيا
مهجورا ولايشعر به أحد. هذا النبذ الذي كان ومايزال يحياه، مغلقا
عليه، مسدودا، وحده

هناك الآن، علي الاقل و من ينتظره، من يتألم له قليلا، من يتألم
بسببه قليلا، من يحس القلق من أجله. نعم. هناك من يحبه. ربما.

ـ عبيط. والله العظيم عبيط.

يهمسها لنفسه، وخلف هذا الشعور بالسرور، سخرية من نفسه،
ونوع من الحرج والضيق. وهو يلوم نفسه، ويبتسم أيضاً، وفي صدره
ثقل يضغط عليه، برفق، ولكن بإصرار. وفي جهد انتزع نفسه من هذا
الحلم السيء، وأسرع يحث خطاه إلي الميعاد.

لاشك أنه كان متأخرا جدا عندما وصل، بالرغم من أنه لايعرف، اذ

لم يكن يحمل ساعة. ومع ذلك فهاهي هناك، لاتنظر إلي الباب،وفي وجهها حنق لن تعبر عنه أبدا صراحة. وذراعاها البضتان علي المائدة، عاريتين حتي الكتف، ملفوفتين، وهي تنتظر في ثقة وعناد. تعرف أنه لابد آت.

وعندما جلس إلي المائدة، أحس أنه يغوص ثانية في هذا المزاج الدافيء الذي يجده دائما عندها. كأنه يأوي في الحقيقة إلي حضن كثيف هادئ، من ماء البحر الثقيل الشبعان بضوء خفيض. أحس طمأنينته القديمة اذ يعود إلي محبسه المنزوي، بعيدا عن أمواج العالم التي تنكسر علي صفحة رحيبة مخوفة، ترتفع وتهبط في كبرياء وتحد وهجوم. هنا علي الأقل، يستريح لحظة، في شفافية لزجة رخية حنون، في طيات دسمة تغلفة وحده بدفئها، دفئها الذي له وحده.

وهي تبتسم له.

ـ تجعل الناس ينتظرونك الآن ؟

ولم يشأ أن يكذب، فاكتفي بإجابة مقتضبة، صادقة :

ـ تأخرت والله.... وجريت بعد ذلك حتي ألحق بالميعاد.

وتسربت في لهجتة نغمة طفل يعتذر، في خوف واسترضاء. لم يكن أبدا يملك إلا أن يعتذر، في صبيانية، كأن قوة ماتقهره علي اتخاذ هذا الدور الصغير، وهو يسخط مع ذلك لهذا الضعف، ولا يسعه أن يفلت منه.

وطلب لنفسه قهوة، وشعر بهذا الهمود الذي ينتابه أحيانا معها. يتركها تتكلم ويعود إلي حلمه القديم، في عالم مُغفٍ كئيب، غير

واضح. وكان يشعر بنفسه عند ئذ متعبا مجهدا حتي الآخر، ينزل، دون مقاومة، إلي نوع من الظلمة اليائسة من كل شيء. وعيناه يغطيهما استسلام باهت عتيق، قناعة بالحرمان من مجد لن يعرفه أبدا.

كم كانت تفتنه منها، مع ذلك، هذه الحيوية التي لاتنضب، هذه المقدرة المتجددة أبدا علي الضحك، علي المتعة بكل شيء، بفنجان القهوة، وبطراوة هواء المساء، وبالكلمة المجنحة يطلقها عفوا فتضحك لها في جذل، وهذه القصص التي لا تنتهي تحكيها له عن زملاتها وزميلاتها بالبنك، وتساؤلها الذي لايهدأ عن رأيه، باستمرار، في هذا الشيء أو ذاك. هاهي ترفسه برفق، بدعابة. من تحت المائدة، توقظه من وجومه التعب، وتطلب منه أن ينهض لها من رقدته البعيدة في عمق وحشته الخاصة به، أن يرتفع إلي سطح عالمها الصغير المشترك، أن يأتي يصاحبها في رحلتها التي لاتكل حول الناس والأشياء، تستطلع وتفتش، وتعلق وتضحك، تجمع مادة حياتها من الخارج، تدعوه أن يترك هذا التنقيب الداخلي الذي مايني يحفره في نفسه، يحفره في الصخر الجاف وفي وشل الماء الزيتي القليل الذي يركد في فجواته الباطنية الضيقة.

وهو اذ يرتفع إليها ليلقاها، يحبها الآن. يحب هذه البساطة النيرة الصافية القليلة العمق، وهذا التفجر بالومضات اللامعة، في الهواء الطلق. وتعذبه فجأة شهوة في أن يدع رأسه علي فجوة كتفها، ان يلصق وجهه بجانب عنقها، ويغمض عينيه تحت وجهها يغمض عينيه،

يلجأ اليها. يلوذ بها من عذاب هذا التعب من العالم، هذا الجفاف، هذا التقبض الذي يتخبط به، في غير هوادة. ان يحس تحت جنبيه، وبين ذراعيه هذا البطن المستدير العجيني المهاود، وعلي صدره نهدين مشبعين ممتلئين يدفآنه، يمسحان عنه، بضغطهما الرقيق الطري، هذا المضض وهذه الجفوة الخشنة.

وإذ رد إليها بصره، عن نفسه، رآها مستندة إلي ظهر الكرسي أمامه، ثابتة هادئة تنظر إليه من بعد آخر من أبعاد الزمن، وقد انماط عن صدرها قميصها القطني اللاصق،وانفتح عن كنزيه اللينين الرخيين بجنب الزجاج الذي تغشاه ضبابة خفيفة مغبشة ليلية، تحت الضوء الكابي. وثدياها عاريان، وقد أستمر الناس حولهما يتحدثون، لكنهم قد تراجعوا في عتمة يتسرب إليها ضوء قاتم، كأنهم في آخر صورة قديمة، شخوصا مهمهة بأصواتها الخفيفة المبطنة. وليست به ثم دهشة، علي الإطلاق، وهي تنظر إليه من بعدها، قريبة مجسمة باهرة مع ذلك، في عالم ليست به مواضعات ولا تقاليد بل يحياه منذ الأبد، وثدياها مفتوحان أمام هبة الهواء الخفيف من البحر يضربان إلي الإحمرار الداكن في الضوء القليل، ويبدو بين كرتي ثدييها الرخيين مسطح صغير هادئ من الصدر الأملس، ثدي أم صغيرة عذراء، لم ترضع طفلها بعد. والقميص يدور بإحكام غير محبوك حول دائرتي النهدين، وهو يحدس طراوتهما الهينة الطيعة، علي حافة النسيج اللين. والحلمتان عينان

يقظتان تحدقان إليه، في تكورهما المتوتر الصغير، تدعوان حس أصابعه عليهما، تدعوان طعم شفتيه حولهما وتملآن فمه، كحبتين من فاكهة، مترعتين بعصارة غنية محجوزة.

وقاما يسيران علي البحر قليلا، ويدها في يده، أصابعها تعبث بأصابعه في رفق، تعزيه وتعده.

أهي معه الآن، أم هو وحده... ؟

كانت البيوت تميل عليه، في طرقاته الضيقة إلي منزله، كأنها تحبسه تحت جدرانها في مسالكها الترابية الخاوية الآن في الليل، وتحجز عنه هواء النجوم البعيدة.

ورد الباب إلي الداخل، وعبر إلي بيته. وتردد في الفناء صوت الباب الحديدي الصدئ، يعود في بطء وثقل كأنه لم ينفتح منذ سنوات وقامت حوله فجأة الحوائط المهدمة التي تتساقط أحجارها مع الزمن، ويتكوم تحتها تراب السنين . هذا البيت لم يطأه أحد منذ سنين . هذا الباب لم ينفتح منذ طفولته، انه يذكره، عندما كان يقف بقضبانه الصدئة، في طريقه عائدا من المدرسة ، يلصق وجهه بين القوائم الحديدية القديمة، ويحدق من الخارج إلي خفاياه . كان سقف هذا البيت عندئذ مهدما، وكانت شمس الغروب اذ ذاك تنفذ منه ، تلف التراب المعلق بنور أصفر شاحب. وكان يري الحشرات ، مسحورا ، تلتقمها الشقوق اذ تجري في اندفاع الخوف الحيواني المفاجئ، ويعود التراب

الصامت يبطن هذا الجو الموحش. وكان البيت مهجورا، منذ قتل صاحبه فيه، والقصص الرهيبة ماتزال عالقة بذهنه، توحي له بهولها الغامض والأشباح التي ترود هذه الجدران بالليل، تطلب الانتقام متربصة مخوفة.

كان البيت يسحره، ويسمره دائما إليه، وكان في نفسه الطفلة، دائما، توق لم يتحقق أبدا. لأن يدخل عبر هذه الأحجار المرمية، وهذا الحطام، يمر فوق الحديد المتآكل من الصدأ، والعلب الملقاة المطبقة، والنفايات المعدنية التي يبريها القِدَم.

وها هو الآن قد ارتد عليه الباب، وضوء الليل الباهت الآن يغلف المكان بسحابة خفيفة من ضوء داكن ممتص لايكاد يشع، ترقد فيه الأحجار المتهدمة وخيوط العنكبوت الضخمة المتربة، بشباكها العريضة المغبرة، يثقلها التراب، وتتهدل بين الأركان، مرتجفة في النسمات الخفيفة. وهناك للصمت أصداء ملغزة تتردد خفية لاتكاد تسمعها الأذن. وهو يسير يتعثر بين الأكوام، ويكاد يقع فيستند إلي الأحجار الساقطة المتربة، ويثير سحابات صغيرة خفيفة من الغبار، يهيج حلقه فيغص به في اختناق صامت مكتوم، بلا صوت، في حشرجة، بلا منفذ.

ورائحة التراب والرطوبة تملأ أنفه، ولا طريق للرجوع.وعيون النوافذ المسدودة بالخشب القديم تحدق إليه، سوداء بلا حدق ولا بصر، وعليه، عليه دون أدني تأخر، أن يتلمس مخرجا لاوجود له، لقد انطبق عليه الباب، وأحيط به، بين هذه الأنقاض، والجدران الضخمة مائلة عليه،

ثقيلة، رهيبة، مكسرة الأطراف. وهو يصعد، في بحثه عن المخرج، يصعد في إصرار فوق أكوام الحجر، ويسقط فجأة علي جوانبها، ويتشبث بالأبواب التي وقعت أخشابها المتآكلة. فتنفتح أمامه فجأة، في سهولة، عن غرف أخري من الأنقاض، مسدودة، وتجرح يديه خشونة الحجر وشظايا الخشب القديم.

وفي نفسه صرخة محبوسة لاتنطلق، يريدها أن تنفجر في هذا العالم المهدوم، يريدها أن تدوي فتنسف هذه الأحجار وهذه الجدران الساقطة، وتتطاير بها، في سهل فسيح يغمره ضوء الليل الخافت المفتوح علي البحر. لكنها لاتنفجر أبدا هذه الصرخة في حلقه، تقبض علي عنقه، وتخنقه. وهو مازال يتعثر بالحَجَر وفي كفيه خشونة التراب.

طلقة نار

كانت الشمس قد غربت منذ زمن طويل، فيما يبدو لهما، والقطار قد طال به السُرَى في رمال الصحراء، فيْ الخط الغربي. فأغمضت عينيها وأسندت رأسها إلي كتفه، في سأم وتعب، وقد تشتت شعرها، كأنها طفلة صغيرة ملت رؤية أحراش البوص ومستنقعات المياه الضحلة تتعاقب فوق الرمال، والتلال الصغيرة الصفراء التي لاتنتهي، وهذه السماء المقمرة.

ثم أخذ القطار يبطئ شيئا فانتبهت وابتسمت له، واذا هم يدخلون المحطة الصغيرة وقد وقف القطار ينفث، ويخرج من مدخنته الطويلة القديمة عمودا من الدخان الأسود يرتفع في الهواء الراكد، ويضيع في السماء الليلية ببطء وثقل. وهما ينزلان من العربة ويخطوان إلي الرصيف الرملي ويلقيان بنظرة أخيرة إلي هذا القطار المترب الذي سري بهما الساعات الطوال، ينهج في وقفته وتتقد أحشاؤه في وهج أحمر.

وضغطت ذراعه وهما يخطوان أمام غرفة ناظر المحطة، والبعوض

يطن ويهوم حول المصباح الضخم المعلق في السقف. ثم تهب الريح فجأة فتئن أنينا طويلا في رؤوس الأشجار العالية المحيطة بالفناء المعتم، وقد ساده سكون غريب بعد أن خفت صوت القطار الراحل في جوف الصحراء، وهذا السكون الثقيل الحار، وضوء القمر، يخلق أوهاما مضطربة وظلالا مهتزة. وأبنية المحطة المنخفضة تأوي تحت الأشجار الشاهقة، والصحراء قريبة مبهمة.

وأسرع اليهما حمدان خادم العزبة العجوز يسلم مهرولا ويدعو لهما، في ثرثرة طويلة. ثم قال في النهاية، بتردد، إن الحمير واقفة خارج سور المحطة، بانتظارهما. فعبس أنيس للعجوز الطيب القلب، وساوره الضيق في كبريائه، فهو مازال ينكر علي أبيه أنه لايرضي بعد بشراء سيارة، واحدة صغيرة علي الأقل، فيوفر عليهم جميعا عناء الرحلة في القطار أولا، ثم ركوب الحمير طيلة المسافة إلي القرية. هذا العجوز الشحيح. لكن أباه في الحقيقة ليس بخيلا ـ جدا ـ بل كهلا رخي القلب متواكلا، مايزال يصر علي ارتداء هذه العباية من وبر الجمل، كأنه من شيوخ القرن الماضي، ولايريد أن يستمع إلي مجرد فكرة شراء سيارة أو تجديد البيت الكبير العتيق. علي أن العزبة تدر خيرا وفيرا، وأحواله رضية جدا.

وانتبه أمام سور المحطة الحديدي القديم، فإذا حماران فارهان كأنهما فرسان. وكانت سعاد قاهرية لم تر الريف عمرها، ومرحة سهلة، فصفقت وهي تهتف فرحا، وخوفا، وهي تحاول اعتلاء الحمار يساعدها حمدان

باحترام كثير، وبكثير من التسلية. وأنيس يبتسم ابتسامة محرَجة مضطربة.

وانطلقت القافلة الصغيرة وتركت أنوار المحطة المرتعشة وشارع البلدة المتثائب،وأمام كل من الحمارين صبي فلاح يجري ممسكا بعصا قصيرة علي جانب الطريق الزراعي، وحمدان ينفخ من التعب والهرولة، ويمسح وجهه الجاف المخدّد بكمه الواسع القذر، ولا ينقطع عن الدعاء والثرثرة. بعبارات الترحيب.

والحقول الخضراء تتضام متهامسة في ضوء القمر، والترعة الواسعة تتلاحق أمواجها وهي تتقلب بصمت في حضن إحداها الأخري، وتشيع في الجو تلك الموسيقي المائية الخفيفة، حلوة في الليل المقمر الحار.

وهو لايري الترعةِ ولا الليل، بل يحس يدا تعتصر قلبه من الشوق إلي المتعة القريبة الماثلة، والخوف، كأنه مقدم علي مصير يتربص به، بين المغامرة والخطر.

وبدت لهما القرية علي النيل، من بعيده، وهما يخترقان إليها طريقا ضيقة بين الحقول، صغيرة تومض فيها ذبالات المصابيح الخافتة لاتكاد تستبين، يمحوها ضوء القمر وظلاله الهاربة واذا هما يشقان الطرقات المتلوية الغامضة بين البيوت الطينية تطل عليهما النوافذ الضيقة السوداء وتدور بهما الأسوار المصمتة القليلة الارتفاع. وفجأة يسطع لهما وهج نور ينسكب علي البركة الواسعة التي تملأ جرن القرية، وقد نزت فيه المياه بعد ارتفاع النيل، ويغمرها الليلة ذهب باهت مشع، من

ضوء القمر. واتسعت عيناه وترقرقت فيهما نظرة من الدهشة والرقة ومرت علي روحه موجة من السكون مسحت عنه مشاعره القلقة الثائرة، لحظة، فترك نفسه تسيل لشعور من الدعة. ثم عاوده الضيق والألم البعيد الغور، وهو يحس روعة الليلة وذلك النيل في ضوء القمر، ويحس شيئا كأنه العار، في الوقت نفسه، والخجل، يطأ نفسه ويغوص فيها.

ووقفوا أمام السراية المطلة علي النيل، وارتفعت أنظارها إلي البيت المبني بالحجارة القديمة الضخمة، والباب الخشبي الكبير ينفتح عن الفناء، وقد بدت في آخره غرفة الفرن يخرج عنها وهج دافيء أحمر، وأصوات الخبيز المنشغلة المضطربة والنساء في ثيابهم السود يعملن بجد ويثرثرن ويضحكن، وإذ شعرن بقدوم المسافرين خرجن إليهما. وهو يلقي عليهن بالتحية ضاحكا مداعبا في ألفة، اما هي فتنظر إليهن كأنها في نوع جديد عليها من الحلم، وهذا الفناء الواسع المعتم في قلب الريف، كأنه صورة قديمة.

كان أنيس طالبا بالطب بالقاهرة. وكان قد سافر إليها بعد عناء، فأمه لم تكد تطيق أن تري ولدها وقد بعد عنها، يعيش في بلد غريب كبير ـ وهي التي شملته دائما بحبها وحماها، حتي لقد عاشت معه في غرفتين بدمنهور، طيلة دراسته الثانوية. لكنها الآن لم تكن لتقوي، وهي مريضة، علي مشقة الحياة، في القاهرة، لكنها كذلك لاتكاد تحتمل الفرقة عنه.

وفي القاهرة تفتحت حياة الولد، والتفت حوله ثلة من الزملاء، يلهون ويتسكعون ويستمتعون إلي جنب الدراسة. دوامة من الأيام المحمومة المتتابعة، طافحة بالمتعة وبالسأم وبالمزيد من المتعة والسأم. ومستوفزة بالثمل وصعلكة أبناء الأغنياء. وكان أنيس رائدا للجماعة، ومن أكثر رفاقه طلبا للهو وإغراقا.

وفي تلك الليلة من الشتاء الماضي كانت الأنوار تتعلق بأطراف الضباب المنعقد في جو الكباريه، والضحكات الغزلة ترن ثم تزحف في حنايا النفس، واذا بموجة من الموسيقي الآمرة تتدحرج في القاعة وتخمد الأنوار، وترتفع ستارة المسرح عن الراقصة، في انبثاقة مفاجئة من النور الفاضح. وتأخذ الموسيقي تتقلب في احتضار غرامي، وسعاد في تلك الغلالة الشفافة جسدا خمريا من الموسيقي والزبدة وعجينة الضوء العاري. وهي اذ ترقص ترتعش رعشات متطاولة متوترة، ثم تميل في حرارة السحر البدائي المنبعث عن اللحم الحي الحار.كأن جسدها ورقصتها شيء واحد : هو ثدياها المنتصبان المرتجفان في الغلالة الرقيقة، وأنين رحمها المرتعد المحبوك، وانحناءات ظهر طويل ناعم. ووركاها يهتزان كأنما يخوضان أمواجا ثقيلة من الرغبة. هذا العري يتقلب، وينطوي علي أحشائه يتلمس في حمي ظلمتها سرا، ثم يدور ويتمدد وتتفتح حناياه المبللة كأنها تستقبل في رعشة اللذة تلك الهجمة المشدودة الفرحة المخصبة.

وذهل الناس لحظة أمام هذه الموسيقي المتدحرجة عن زبدة الجسد ورغوة الدماء الغنية، وانحبست الأنفاس كأن العالم كله يتخلق لأول مرة. ثم جن جنونهم فهبوا واقفين في صيحة واحدة من الهتاف، موجة متطلبة راعدة متصلة من التصفيق، يطلبون المزيد، دون أن يدركوا تماما، يجيبون الأنين الراجف المنادي من ثنايا اللحم السخي.

وانسدلت الستارة عن النجاح «المنقطع النظير» الذي تقابل به رقصة سعاد كل ليلة، وانبعثت الأنوار تتعلق من جديد بضباب الدخان والضحكات، وأفاق الناس من صرخة دمائهم إلي خمرهم ورفيقاتهم وأصحابهم، يطفئون وعيهم الجديد.

وفي آخر الليل، وقد انفضّت الجماعة، كان أنيس وسعاد يقطعان طرقات المدينة الهادئة وقد شملهما دفء جسمها المتعب وحرارة شهوته، في وهج خافت. وهي تسير إلي جانبه ملتفة به كأنها تبغي الحماية من عاصفة تكاد تطيح بها.

أهي تحفة وسلعة، كان من حظه أن يظفر بها في السوق، تلك التي عاشت معه في شقة أسابيع طوال، ترضعه روعة السعادة الدسمة بين طيات الجسد الباذخ ؟ ونضال الحب الذي كانت تلتحم به لحظات فرحهما، أكان مجرد بيع وشراء ؟

وهذه الحمي القلقة. التي تنبعث عن دماء مهتاجة، وتشق طريقها المشتعل حتي تدفن نفسها في حنايا الراحة والسلام النهائي، كأنها موت طري ناعم عميق ؟

ثم بدأت المنازعات حول المصاريف، وهذيانات الخصام وقبلات الاسترحام وسكرة الصفح واندلاعات الشهوة من قسوة الخداع والمناورات، وكأن الرابطة بين العشيقين لاانفصام لها.

ورغبت إليه أن تذهب تري العزبة، وأراد أن يصالحها ويسليها، وشاقته هذه اللعبة الجديدة، فما بلغه أن أباه الكهل قد غادر القرية إلي مصلحة له في دمنهور، حتي انتهز الفرصة وأسرع بها يقضيان معا أجازة يومين في القرية وزعم لأهله أن زميلة له في الكلية ستأتي معه تزور العزبة.

لكنه الآن يحس مرارة وشيئًا كالأسي يثقل صدره، ونوعا من الشغف القلق المتحدي. والنسوة يجتمعن عليهما في الفناء يسلمن بأيد مغطاة بأطراف الطرح السوداء، وقد نزل عليهن فجأة سكوت تقطعه التسليمات الخافتة، وهن ينظرن إليهما بعيون تطرف قد أكلها دخان الأفران والكوانين. ورائحة العجين والخبز الطازج تملأ الفناء مع نقيق الفراخ المتهيج وقد أيقظتها الحركة الغريبة في الليل.

وهما يرقيان السلم، وقد عرفا أن أمه المريضة نائمة فلن تستقبلهما، فاتجهت سعاد إلي غرفة جانبية تغسل وجهها في طست كبير، وتصب لها الماء المصفر شيئا ما صبية مليحة من ابريق في لون البرونز القديم.

أما هو فقد وقف إلي جانب الستارة المغبرة المتهدلة علي نافذة غرفته، والطنين يدوي في أذنيه والدماء تتدفق إلي صدغيه، وبه اشتهاء

جديد كأنما حفزته تلك النقلة إلي ذلك الليل في قريته، وفي غرفته. وحواسه مرهفة تلتقط صوت المياه تنصب في الغرفة الجانبية، وأصوات الخبيز الخافتة تتناهي إليه مع موسيقي الريف الذي يغتسل في القمر.

وإذ تعشيا أوي كل منهما إلي غرفته، وقد تذرعت صداعا ورغبت في أن تفرد لها غرفة خاصة. ثم تقدم الليل وهو ساهر. وسمع وقع أقدام رشيقة خفيفة مسترقة. وارتفع الدوي في أذنيه والتهب وجهه وأحس صدره يتفجر. ثم صوت الباب يرتد في هدوء واستدار ليراها تحت المصباح الزيتي الكبير يصب ضوءه من السقف ثقيلا حارا. ووقف كلاهما لحظة، كل منهما يحدق بالآخر كأنه لايعرفه، ثم تقدمت إليه في تردد وارتمت بين ذراعيه فجأة في جرأة وقوة. كان يتلمس بشفتيه خصلات شعرها ويدفن فمه في عنقها وكتفها، كما يدفن الحيوان المصاب جرحه في تراب الأرض الدافئة. وكانت ترتدي شيئا خفيفا ما، وهو يحس بنبض جسدها يرتعش من التعب والحنين بين ذراعيه.

وأمسك برأسها بين كفيه وحدق في عينيها. ووجهها نضر ملتمع يبدو آسرا في جماله الحميم كأنه حلم حلو من فجر طفولته. وفي عينيها جوع ولهفة واستهتار، وفيهما ألم أيضا، كأنها حيرانة تبحث عن شيء. وشفتاها ترتجفان، كما لو كانت موشكة علي البكاء ولكن فيهما إصرارا من الرغبة ومن التشوق ومن المرارة. ثم ضحكت ضحكة صغيرة كأنها قبلة مضطربة، وأهدابها ندية. وفي نزوع حار التقت الشفاه وانهرست

في نشوة طرية متلمسة المرة بعد المرة، تتكشف في ظمأ لا يرتوي، وتمص ابتلال الريق كأنه من ينبوع أصل الحياة. وهو يرضع من ثدي غير مشبع لن ينتهي جوعه إليه ابدا.لكن الملح على شفتيه لا تنطفيء له وقد ة ، وظمؤه لانهاية له أبداً .

أما هي فقد كانت في خدر من الضوء الحار والليلة الصيفية.

وأعينهما محترقة مثقلة بالسرور ونوع من العذاب، واللهب يخبو في وجهيها ويضطرم. ثم اندفعا يميلان في موجة كاسحة من الأذرع والسيقان المتشابكة.

وأحسا السلام يتفجر بينهما مرة أخري، والهدوء يجري مع الدماء المرتاحة بعد لأي. وهما ينهجان.

وكان القمر الفضي الصغير قد ارتفع في السماء يصب في الحجرة، من وراء الستارة المهدلة ضوءاً أزرق يضيع في النور المحمر، وعندما تلاقت أعينهما بالقمر اضطربت فيها شعلة خجلة مندهشة أما هو فقد أحس كأنه انتهك عرضا حراما أو جدف بالله. وشعر بشيء كأنه الإثم القديم يتنفس في داخله.

واستندت برأسها إلي كتفه في تعب، وهمست إليه في صوتها الطفلي، كبنت صغيرة، أن يذهب يقفل النافذة.

كان ينظر إلي السحب البيضاء المهلهلة في السماء الليلية المقمرة، والريف تحته مرة أخري عريان كامرأة تنام في موسيقي هامدة خفيفة. وهو يسير علي جسر النيل، في عتمة داخلية خاصة به، لايحس السماء

ولا الغيطان.

وتأملات مرة تهاجمه، وهويحلم كمن ألف الحلم فلم يعد غريبا عنه. لقد انقضت في تلك الفترة القصيرة أيام المتعة والعبث. وتمرس الولد الآن بالوحدة والألم، والحلم.

كان أبوه قد عاد فجأة، علي غير ميعاد، من دمنهور. وفي جيب عبايته الواسعة تلك من وبر الجمل خطاب جاء من مجهول، فاعل خير وحريص علي سمعة عائلته، وقد حرص علي أن يذكر ذلك كله صراحة وبالتفصيل. والخطاب يشرح له الأمر كله. كيف كان ابنه يعيش في القاهرة مع راقصة، في الحرام وفي الفجور. بل يذهب فيأتي بها في بيت العائلة دون حياء إلي آخر ما هناك من غيرة علي الأخلاق ودعوة إلي التأديب.

وانقلب الشيخ السمح برغي ويتهدد ولا يسمع إلا صوت الحنق الذي يأتيه من الداخل، مشحونا بشحنة غريبة من القوة.

ـ هذا الولد يلوث البيت، ويلطخ الأسرة بالعار ويستهتر علي هذا النحو بكل بقية من حياء؟ وكان وجه الشيخ فتيا يتضرج بنيران محتبسة.

ـ والولد لن يعيش معه بعد الآن، في هذا البيت الذي استباح حرماته، بل لن يريه وجهه بعد اليوم. لادراسة في القاهرة. هذه المضيعة. المسخرة. بل يبقي في العزبة كأبيه وأجداده من قبل. فبئس الدراسة وبئس الكليات والجامعات. إن هي إلا فضائح!

أما أنيس فقد وجد نفسه مربوطا إلي القرية. لايستطيع العودة إلي

القاهرة من غير مال ولاسند. ولكنه لايقبل أيضا أن يبقي في بيت أبيه. فاختار بيتا من بيوت الأجراء التي كانت تعد لعمال التراحيل، في القطن والمواسم، واتخذ منه سكنه، في حُمّي من العناد والإباء، ورفض كل مساعدة من القرويين الذين أسرعوا لخدمته، في خفية عن أبيه. ودفعته الصدمة إلي نوع من التحدي. فكان ينام في بيته ذاك الحقير علي حصيرة قديمة، لايقبل شيئًا ولايطيق شخصا. ويرد كل رُسل أمه وأقربائه. حمدان فقط يأتيه بطعام من طعام الفلاحين ويجلس إليه يهّون عليه بحديثه ويجهد أن يؤانسه. وهذه الكبرياء تهول القرويين وتلهمهم شعوراً غامضًا، كأنه التمرد والسخط علي قدرٍ كأنه هو نفسه مصيرهم من قديم. قدر يفرض عليهم الحرمان والجفاف، من غير اختيار.

ولكن ثمّ مايطلق الألسنة كلها بثرثرة سعيدة لانهاية لها. والهمسات والحكايات تدور حول مواقد الشاي، وفي غرف الفرن، وأمام الكوانين. فالمدهش أن سعاد لم تُطرد من القرية بل ظلت في السراية. والقرويون يتكلمون في فزع أخلاقي بهيج عن هذه الفضيحة. كيف يسمح البيه الكبير أن يعيش ابنه في ذلك الكوخ، كأنه عامل أجير، والست الكبيرة، قد ألحّ عليها المرض، فلا محل لها اليوم في البيت، ولم يبق لها في الحياة الا أن توفد الرسل إلي ولدها حتي يصالح أباه. والولد أبيٌ لايعود. وتلك الراقصة في السراية. تلك الشرموطة في سرير الست.

ـ لم يعد للست الكبيرة محل في البيت، وهو أيضا.. لامحل له هنا

في العالم.

في احتقار وتسليم، وهو يسير ببطء في القمر الفضي.

وبهرته فجأة، صورة قديمة من حياته، مشرقة فياضة بالنور. كيف كان في طفولته يلعب في جرن القرية الواسع الجاف، ذات صباح خريفي مشمس، بين أكداس الهشيم الذهبي المتخلف عن دريس القمح. وأبوه يرقبه وهو يحاسب الفلاحين. كيف كان يقفز فوق الهشيم الناعم فتغوص فيه قدماه الصغيرتان، ويتدحرج علي الكومة الكبيرة، متمرغا فيه بترف. وأبوه يضحك فجأة ملء فمه تلك الضحكة القوية تملأ عليه الأفق بالدفء والامان. تلك الضحكة القوية نفسها وقد اكتسبت رنةً قاسية، سمعها بالليلة الماضية هو يمر ببناء السراية في آخر الليل، مؤرقاً قليلاً. وتدفقت الضحكة فجأة مع الضوء الحار الثقيل الذي يأتي من تلك النافذة العلوية، تدفقت إليه تملأ دماءه ببرودة مقشعرة، كأنها من الحمَّي.

وطفا في نفسه شيء من المرّ. هجرته تلك البنت، نسيته، كأنه لم يمر بحياتها قط، وانتهت إلي أبيه. كيف أغوته... ! لقد وجدت الآن برجاً يحميها وتستنيم إليه. شيخًا كأنه أبوها ومازال إلي الآن لديه مع ذلك فتاء الرجولة الأخير.

وهو ـ هو الآن وحده في عالم جامد مقمر فضي، غريب.

ورنت في أذنيه مع ضحكة أبيه ضحكتها. ناعمةً متمددة ملساء كأنها جسدٌ عارٍ يتمطي في راحة. ضحكة تسيل إليه من تلك النافذة المضيئة، فترسل الدم يتوهج في ظلام شرايينه وتملأ عينيه بملح الغضب

والحبُوط، برّ التسليم والاندحار.

وهؤلاء القرريون مايفتأون يختلسون إليه نظرات مشفقة خائفة، أبحاجة هو إلي شفقتهم أيضا، في نهاية الأمر ؟

تيقظت نفسه علي القسوة. ولكنه تيقظ لكي يجد نفسه منسياً في قرية ميتة، والتراب يتساقط في روحه، والوحشة تثلج نفسه حتي النخاع. بلا وطن، وبلا محبة.

وهو قد مر الآن بجنون الألم وهوس الشك المتقلب وأحس طعنات الهجر التي لاتطاق، ثم تيقّن أن تلك الغانية قد نبذته فعلا وقطعا. فأحس اليتم، وأنه وحده. بل أحس السماء قد أزيلت من فوقه، ولم يعد في الكون كله إلا الخواء. لم يكن الأمر مجرد رفيقة تهجره. بل كأنه يحس صدمة الفطام علي جفاف حياة مرة خشنة.

وتعاقبت عليه الليالي الطويلة المحمومة، المليئة بالعذاب، لاتنتهي. تهدأ العزبة في الليل فيجلس في الظلمة، علي عتبة بيته ذاك الحقير، في آخر الشارع. وتعصف به في وحدته تلك الدموع. وتمضه شقوته فلا يكاد يطيقها، ويسند رأسه إلي الحائط الجاف. لاكبرياء الآن. ولاتحدي. بل تلك الدموع. تلك الدموع، يبكي روحه المنكسر، ويبكي آلامه. وهو أيضا يسخر من هذا العذاب ويحتقر ضعف تلك الدموع ويخجل منها، ويومض في نفسه برق من اللهفة إلي التشدد والصلابة. برق لايفضي إلي مطر، بل يخنقه الحُبُوط. ثم يشعر، بعد البكاء، بدوار كأنه الغيبوبة، كمن شرب خمراً هادئة مُرةً. ويحس شيئا كالراحة المضناة،

فيسلم نفسه علي عتبة البيت، وهو في جلسته، لنوم مرهف حاشد بأحلام قلقة. وتلك الأحلام الطفلية كأنه مايزال صبياً، تتراءي له في الليل، تهاويل الوحوش التي تكاد لتهم به، والفيلان والسباع تحيق به، والحفر العميقة تنفتح فجأة تحت قدميه، فيتقلب ويستيقظ، ومازال يشعر بعد يقظته، في عمق الليل، بخوف جموح متملك لايعقل، ورهبة الكابوس تملأ ليله. فيأوي إلي الداخل، كطفل خائف، لكي يستيقظ علي رعشة البرد في أواخر السحر. وتسطع الشمس مرة أخري علي عالم واسع متحجر لاشيء فيه. ويمر اليوم الطويل. نعم يمر، ينتهي اليوم..! فما كان ليري له نهاية.

وفي المساء يدفعه القهر، في وحدته، إلي مايشبه هذيان الممسوسين فهو يهيلُ السخط والسخر والحقر لنفسه ولأمله ولعالمه. ويشعر بشوق غالب لأن ينشد من يكلمه ويؤنسه ويشعره بحرارة الرفاقة والزمالة. ويحن إلي زملائه بالقاهرة حنيناً لايحتمل، وإليها. ولكن الكبرياء والعناد يصفّدان قلبه بالقسوة. فيذهب إلي بيته ويرتمي علي الأرض في عتمة الحجرة الخاوية، ويبكي مرة أخري كأنه طفل لا يطمئن إلا لآلامه وفي حميّ دموعه.

وعندما يجفوه النوم ولايجد راحة، يجلس علي العتبة يحدق في النجوم الصغيرة اللامعة التي لاعداد لها، ويحس رقة غريبة تتسلل إلي داخله وتعزيه في اهتزازات هادئة، فيقوم يتمشي في الليل، بين الحقول،

يسمع الرصاص يطلقه الخفراء من بعيد، للارهاب، أو ليطردوا النوم عن أعينهم. ويحس كآبة صامتة طويلة كأنها السلام، أو كأنها نوع من الخدر والجمود، وعندها يذرع طول الجسر علي النيل يصغي إلي هذا النشيد القديم الذي يسري مع مياه النهر ثم ينداح في نفسه، فجأة، ألمٌ ضيق مرهف حاد، كأنه جرح.

لكنه الآن لايجد حوله إلا الفراغ، ولايحس شيئا. ولم يعد إلا التراب يتساقط في نفسه بهدوء.

وهو متعب مجهود، يجر قدميه ببطء، وفي نفسه سأم كأنه من الصفاء. ولا صفاء هناك وإنما ثقل وملال.

لم يأكل طيلة نهاره شيئا، ولعله لايذكر، في الحقيقة... وهل قضي سحابة يومه يمشي علي هذا النحو، بلا غاية ؟ لايعرف. وهو لايهتم. لايهتم. إنما يريد أن ينتهي الآن من كل ذاك.

كان يقترب من القرية، وضوء القمر ينسكب علي البيوت القلائل، وعلي أبراج الحمام الشاهقة البيضاء، وأطرافها شائكة بالسنان المشرعة إلي السماء. ورأي جماعة من الفلاحين، فيهم حمدان، وقد التفوا في حلقة حول نار من قوالح الذرة يعدون عليها الشاي، وانطلق نباح الكلاب، ولمح الفلاحين ينظرون إليه ويتبادلون همساً سريعًا. ثم عرفته الكلاب، فأخذت تهرّ في سعادة خافتة وتتواثب حوله وتتمسح برجليه. وارتفعت في نفسه فجأة، مع ذلك التعب المتهالك، رحمةٌ رقيقة نحو

هذه المخلوقات كلها ـ وقد أحس نفسه منها ـ هذه الكلاب التي تلحس يديه وتحمحم في قناعة، وهذه الفلاحين بوجوهها الخشنة المجعدة تنعكس عليها ألسنة النار الهادئة، كأنها في حلم متكسر من المحبة. وعجب لنفسه، فهو لم يحس لهم حتي الآن إلا النفور أو اللامبالاة، أو ألفة السيد بالأجراء، كأنه لم يعرفهم قط.

ولم يره الفلاحون أبدا كما كان في تلك الليلة، يضحك ضحكة كبيرة غير معروفة عنه، كأنها ضحكة أبيه. ويحكي لهم عن مصر، وقد جلس معهم يأكل كوزاً من الذرة المشوية الطرية ويشرب الشاي. ولكنهم مع ذلك يستشعرون شيئا في الجو، كأنه ريح أمشير علي وشك الهبوب في يوم مشمس حار، شيئا غريبا يتولد.

ثم هب واقفًا فجأة، وألقي عليهم بالتحية بجفاء، وبشيء من الصرامة. وذهب إلي البيت في آخر القرية، وحده.

كان النسيم يأتي إليه من النيل، والجداجد تصفر في الليل، وعصفت بروحه طاقة غير ملجمة جموح. وهو يحس قلقًا. فانحني فجأة يخلع حذاءه ويحمله في يديه، بلا تفكير. ووطئت قدماه نعومة التراب الساخن من أثر شمس النهار. وأحس حنانًا وحرارة تنبعث من الأرض إلي دمائه وتتشعشع فيها بلذة غامضة، اذ تغوص قدماه في جسد الأرض الدفيئة. ثم وجد نفسه يسرع في سيره متجها إلي غير وجهة، وجاءه الألم وشيكًا، والضيق. وصورٌ من العنف والتدمير تلمع في ذهنه

ثم تنطفيء، وضحك من نفسه :

ـ يمشي حافيا علي الأرض..

والقلق يهيجه، وشيء يشبه الخوف.

ـ لماذا مرت حياته علي ذلك النحو، لامعني لها ؟

خيبة واحدة كبيرة متصلة. وكذبة لم تأت إلي شيء. مجرد هذا الشقاء الذي يحطّ في أحشائه بكل ثقله، عميقًا وراسخًا كأنه أصل وجوده، هو الدليل علي أنه قد خاب. كأنه في حاجة إلي دليل... !

وصفاء نفسه يضطرب. وغاب فلم يعد يفكر أو يحس شيئا، وهو ينحني يلبس حذاءه ويسرع في سيره. وانحرف، عن غير قصد تمامًا، يطأ عقب سيجارة مشتعلة لعل أحد خفراء القرية ألقاها علي الأرض، هذه النقطة الحمراء المختنقة تحدق إليه من التراب، كعين مفتوحة بلا جفون. وكأنه مايزال طالبًا بالطب بالقاهرة، خليّ البال، يذهب إلي غرفته لينام بعد سهرة مضنية، ويطأ في طريقه عقب سيجارة.

ووجد نفسه علي عتبة البيت، وكل شيء هاديء، وخرير المياه في الترع يصعد إليه، وصفير الجداجد، والكلاب تنبح الليل من بعيد، والقمر. وهو يستنشق ملء رئتيه هذا الهواء المعطر برائحة الزرع. وابتسم ابتسامة قاتمة يصور لنفسه انتقامًا يُنزله بأبيه الشيخ، وسعاد، سوف يتعذبان. وسمع ضحكة غريبة تنطلق بجواره فالتفت بدهشة، وهو يفيق من غيبوبة الدم المثقل المتقلب. ثم أدرك أنها ضحكته هو. وأحس

خجلاً من نفسه. لا، لن يفقد أعصابه الآن. ليس الأمر انتقامًا يرتفع من دمائه الموحلة في ضحكة لاتعي، والموت يبدو غامضا في سحابة مضطربة، شيئا بعيدا عنه لايهمه. وبعد الموت ؟ لايدري. ولايهتم. وليس الآن وقت هذا كله. تبدو له المسألة من أولها لآخرها كخواطر هذيان حمي قديمة، غير واضح ونصف منسي. لكن هذه الحمي ماتفتأ تلح عليه، كأنه علي وشك أن يتعذب من جديد. وشعر بالدموع تصعد من أعماقه دفعة واحدة وتملأ عينيه فجأة بنافورة مرارتها المغرورقة، فتحجب عنه كل شيء. ويحدوه نزوع لايقاوم لأن يترك الآن ذلك الأمر كله، لأن يرتمي فقط علي هذه الأرض ليبكي. يبكي نفسه وحياته كأنه ينعاهما. والهواء حلو بعد حرارة اليوم المرهقة، ملءُ رئتيه، والحياة تبدو كأنها ماتزال مقبولة.

وفي جهد حبس عن نفسه راحة الدموع، تلك الخدعة. ووقف يهتز في العاصفة التي تريد لتحمله. إنه لو بكي فلن ينتهي إلي شيء. لو بكي لواتته الراحة التي تعقب الدموع. راحة الاستسلام التي تجعل الحياة محببة، كأنها الأسي الشائق في السماء الهادئة بعد المطر.وهو لن يستسلم، بل هو لايفكر الآن في شيء، وليس به حاجة أن يقرر شيئا، فكل شيء قد انحسم من زمن بعيد، قديم، موغل في القدم.

وانفجرت في نفسه تلك الزوبعة التي كان ينتظرها، متمردة وحافلة بالخبال. لكأن العالم كله يتمزق ويدويّ، ويتكسر في زلزال متدحرج

متدهور. وآتته فجأة نزعة ثاقبة في أن يضرب ويخرّب، أن يصنع شيئا لايجسر أحدٌ علي النظر إليه، أن يسحق كل شيء، بضربة واحدة، كل شيء، حتي الفُتات.

ودوّت في العزبة النائمة طلقة نار.

وظن القرويون وهم يتقلبون في نومهم الثقيل أن أحد الخفر يطلق بندقيته، للإرهاب، أو من الملل.

الاوركسترا

صدمته صفارة الكمساري من آخر الترام، هزته من غيبته، وأيقظته إلي ماحوله، فانتزع نفسه بجهد مفاجيء من تَملُّك هذه الوجوه التي تحيط به، وسيطرتها عليه، وإحداقها به تحت المصابيح الكهربية الصفراء الباهتة، بين زجاج النوافذ المقفلة علي الترام الضيق، والوجوه مرصوصة إلي جواره وأمامه في صفين متقابلين. وجوه الناس، أقنعة من الارتداد والجمود الجهْم، والأعين فيها، نوافذ ضيقة مسدودة، لا يكاد يُلمح فيها بصيص يعكس الحياة في داخلها، كل منها عالم خاص، لا أمل أبدا في الوصول إليه، عالم تسوده وحشته النهائية، وتموج جنباته بمسوخه وتهاويله الشخصية، بامتداداته ووهاده وضياع آفاقه، في كل منها عمقه ومهاويه وبناياته، حوائطه المكسورة وشوارعه الضيقة تمتد عليها أذرع رقيقة لكنها مفتولة العصب، متطلبة أبدا متخطفة أبدا، مادةً أصابعها المرنة الطويلة الجائعة، كألسنة حادة لزجة دقيقة ماتفتأ تبحث عن الطعام، مهتزة في جوعها عبر المسالك، مصطدمة بالحيطان،

متراجعة عنها في ذعر وسرعة، كأسلاك كهربية حية مشحونة لاتني تهتز تحت رياح الرغبة والجوع والبحث الذي لايرضي أبدا ولايكف.

هذه الوجوه المرصوصة علي مقاعد الترام، محبوسة في النور الباهت بين قلقلة الحديد وصلصلة العجلات التي تصطك بالشارع وتقضمه وتترنح عليه، هذه الوجوه تطل عليه، أقنعة من يأس لايدري بنفسه، والتجاعيد حول الأفواه المطبقة في حبوط، وعظام الخدود الجافة كصخور شققتها رياح قاسية، وفجوات العينين، في نظرتها الحانقة لم يعد فيها أمل، ونتوءات الفك العنيد، مصممة علي مضغ ماتصل إليه من لقم الاشباع والتحقق والتملك، مصممة علي ضَرْس رمال قليلة من صحراء لانهاية لها، هذه الوجوه تزدحم حوله وتحيط به وتملكه وتتضخم في عينيه، صامتة شاهقة بفجواتها ونتوءاتها، تسد عليه العالم. وهي الآن تتراجع فجأة أمام صفارة الكمساري وتسقط إلي مكانها المألوف علي المقاعد الخشبية تحت النور الرث الهزيل، فلا يري إلا أناسًا في حالهم مستسلمين لرحلتهم القصيرة، كل منهم ينتظر محطته.

ورأي فجأة أنه قد وصل هو إلي محطته. تقاطع شارعي فؤاد والنبي دانيال، فأسرع إلي الباب بعد أن صفر الكمساري، يصطدم بُركَب الناس وأكتافهم، واندفع يقفز نازلاً بعد أن بدأ الترام سيره وتلقفته الأرض تجري قليلاً تحت قدميه مندفعة إلي الوراء، تبطيء شيئا فشيئاً حتي تثبت أخيراً في مكانها، وهو منذهل قليلاً في اندفاعة حركته، والأشياء

تدور وتجري إلي جانبيه ثم تعود إلي وضعها المعتاد الثابت، كأنه يثب من كوكب آخر إلي الأرض الدائرة تحت قدميه، ويعود من رحلة إلي بيته.

أيجد صيدلية الآن، والساعة التاسعة مساء، واليوم يوم أحد ؟ سوف يري بعد قليل. ألا توجد صيدلية في آخر الشارع من اليمين ؟ يذكر أنها هناك. وإلا فعليه أن يبحث في شارع سعد زغلول.

ـ فتحي، رايح فين ؟

أمه من غرفة النوم، وقد استلقت علي سريرها، بعد نوبة مجهدة من السعال استمرت تهز جسمها النحيل من تحت الملاءات. دقيقتين علي الأقل، دقيقتين خيل إليه أنهما لن تنتهيا، وهي تصارع هذا الذي يطبق علي صدرها، وتدفعه عنها إلي الخارج، وتنزعه في دفعات طاردة من علي جدرانها الداخلية، وهو يتشبث بها، متعلقًا لايتزحزح، رازحًا، ملتصقًا بجوانب رئتيها، يسد عليها مسالك النَفَس. وقد قامت إلي أعلي قليلاً من رقدتها، لتطرد، في حميا السعال العنيف، هذا الدخيل الذي يستولي الآن علي حياتها، هذا الثقل الذي يضغط علي جنبات صدرها. ثم استرخت منهوكة، وارتد الدم عن وجهها المحتقن، فتركه باهتاً مستنفداً، وهي تنهج في ضعف.

هذا البرد قد نال منها، منذ أسبوع وهو مايزال يمسك بها، لاينزاح.

وأحس فجأة أنه لابد أن يفعل شيئًا. لايطيق أن يدعها تكافح عنها هذا الدخيل، وحدها ومازال الليل طويلاً أمامها. وعليه أن يمد إليها

يده، بأي شكل، في وحشة انتظار مرور هذا الليل الذي عليها أن تقطعه وحدها، من أوله إلي آخره، امتداد مظلم شاسع يتربص فيه الدخيل بها، في كل خطوة منه.

ولبس بسرعة، وهو يدير في ذهنه أن سيذهب يبحث عن دواء لهذه الكحة، شيئا إن لم يخفف عنها فعلا، فهو رمز علي الاقل، تستند إليه في رحلتها الليلية.

ـ رايح فين دلوقتي ؟

بصوتها الأبيض الخفيف من الإجهاد والمرض.

ـ والله رايح القهوة شويه ياماما، وحاشوف كمان اجزاخانة أجيب لك منها دوا ولاحاجه للكحة دي، إذا لقيت النهارده الحد وكلهم قافلين. حاشوف علي كل حال. مش حتأخر قوي.

ـ طيب يابني، ربنا يخبّز لك وينجّحْ مقاصدك يارب، ويوعدك باللي تريحك وتريح بالك.

دعاؤها المألوف، تردده باستمرار، وهو يشتبه أن هذا الدعاء ليس إلا نصف دعاء حقاً ونصف رُقْية. كأنها تعرف أنها لن تستبقي ابنها إلي جوارها أبداً، وقد تقدمت به السن الآن، فلابد تأخذه منها زوجة، وهي تتمني أن تكون زوجة محبة لابنها، تستكمل له حبها الأموي. ولكنها في الوقت نفسه، إذ تدعو، تعبر بصوت مسموع عن رجائها وعن خوفها من تحقق هذا الرجاء أيضا، وتحول مؤقتًا دون تحققه، كأن دعاءها

تعويذة تسترضي بها أقداراً ساطية غامضة تسمع منها وتفهم عنها، فترضي، وتؤجل لها تحقيق دعواتها قليلاً من الزمن أيضاً، وتترك لها ابنها، قليلاً من الزمن أيضاً، كأنها تقول لهذه الأقدار ـ أنظري هأنذا أعرف وأرضي، هأنذا أقبل وأسلّم بأن يتركني، ألاتسمعين ؟ أتسمحين الآن أن تبقيه إلي جانبي، قليلاً من الزمن أيضا، فأنا لست أعاندك بل أرضي بقسمتك، هأنذا طيّعة مستسلمة لأمرك، ألا أستحق جزاء صغيراً، أن أحتفظ به إلي جواري، قليلا ؟

هذه الأم الذي لم يعد لها شيء غيره. فقد مات أبوه منذ سنوات. وأخته الصغيرة بنت علي أي حال. وهو يعرف أن أمه لاتحب أحدا سواه. ويشفق عليها، هذه العجوز التي لاتري عالمها إلا فيه، ويضيق أيضا بهذا الحب، بهذه القبضة الحنونة المتملكة.

رد الباب خلفه ونزل السلم كأنه يهرب من الميدان. كأنه يهجر ساحة معركة طويلة بطيئة متقلبة الأدوار. فما زال لديه، إلي جانب ذلك، محاضرات كثيرة عليه أن يراجعها. والامتحان يقترب. وليس لديه وقت. ليس لديه وقت، عمله في المدرسة يستغرق ثلاثة أرباع النهار، وهو محضّر طبيعة في المدرسة العباسية الثانوية، ثم يعود لينقل المحاضرات ويذاكرها. كان قد اشتغل بالمدرسة بعد وفاة أبيه، وهو يقضي يومه في معمل الطبيعة يحضّر الأنابيب والقوارير والأجهزة للمدرسين، ويعد المعمل للدرس، ولكنه التحق بكلية الأداب، قسم

الفلسفة، فلم يكن ليقبل أن يستمر في وظيفته الصغيرة، وبنفسه أمل غامض في التدريس، في الكلية ربما، مدرس في الجامعة، أو علي الأقل، وهو يقبل هذا الاحتمال بنفاد صبر وخوف ونفور،وأمل مبهم في الإفلات منه، مدرس في مدرسة ثانوية، علي الأقل، مدرس فلسفة.

كم يود أن يسيطر وأن يسود في فصلٍ هو مملكته الخاصة، يلقي بعلمه علي طلبته، يقودهم إلي الفهم، يفتح لهم آفاقًا جديدة، في الكون وفي النفس، ويؤثر علي حياة كل منهم، يشكلها إلي حد ما، يفرض عليها حبه للمعرفة، للتطلع، للكشف، وينقل إليها قلقه، في الجامعة أو علي الاقل في المدرسة الثانوية. أيقضي حياته كلها في المعمل، يحصي الأنابيب ويهيىء الأجهزة، ويرجع من علي باب المعمل قبل كل حصة، ثم يأتي يجمع أجهزته وأنابيبه، يعدّها ويصفّها في أماكنها، بعد كل درس، كل حياته، في المسرح الخلفي، لايحس به أحد، في العتمة، وراء الأبواب.

وارتقي الترام، وسقط فجأة في قبضة هذا الكابوس من وجوه الناس، وهاهو الآن يبدأ بحثه عن صيدلية، في شارع فؤاد.

وكانت السينمات تفرغ مافيها، وأزواج مساء الأحد كثيرة تزحم الشارع، في جماعات ملونة متقاربة ضاحكة مستريحة. والسيارات تتتابع لامعة، صامتة، مقفلة علي سكانها.

وخلا الشارع فجأة حوله، واتسع. وهبت عليه رياح قوية. وكان الأسفلت الأسود مصقولاً. فارغاً، موحشًا. وقد تقوس الشارع تحت

قدميه وامتلأ تقوسه، حتي أصبح قطاعاً من كرة هندسية شاسعة، كأنه مسطح علي نصف كرة هائلة من الأسفلت الكابي، تلمع عليه أنوار الشوارع، صغيرة دقيقة، تحت سماء مهجورة فسيحة. وقد تضاءلت البيوت، وهبطت وكادت تختفي إلي جانبي استدارة الشارع المقوسة، ولم يعد علي هذا السطح الصلب المصقول إلاه، صغيراً صغيراً في صحراء مكورة من الأسفلت الأسود الجاف المكبوس، صغيراً يتقدم ويتدحرج لكنه لايقطع خطوة إلي الأمام، في هذا الامتداد اللانهائي الصامت الخاوي، يسمع فيه زفيف رياح آتية من سماء بعيدة، ويري ومض أنوار كهربية كأنها معلقة، في خفوت، بينه وبين اتساعات الكون التي لاحدود لها. وجدران البيوت رقيقة تهزها الرياح في أسفل، علي جانبي هذا الامتداد المحدب الشاسع، وهي واجهات فقط، واجهات بيوت لاشيء وراءها، ديكور من طوب قديم رقيق، مائل يتداعي في ضآلة، بعيدا هناك تحت، علي جانبي هذا الامتداد العريض النازل من الجانبين في استدارة واسعة، واجهات صغيرة منسية، تهب بها الريح وتجول حولها، في الخلاء الغامض المعتم الذي يذهب بلا نهاية وراء هذه الدفعة القوية المقوسة من أسفلت الطريق، كأنها صدر ممتليء بالنَفَس، صلب العضلات، مصقول، يتحدي السماء.

وهو يدرج علي هذا السطح الزلق المسدود الأملس، هذا الصدر الصلب الذي لامسام فيه، يدرج عليه كأنه قطرة من الزئبق، تتدحرج

وحدها علي الصلابة الرافضة المصقولة، تتدحرج ضئيلة لاتكاد تمس هذا السطح، ولاتترك خلفها أثرا، ولاتخدش هذه الملاسة من الأسفلت المتلىء بقوة مشحونة مقوسة، ولاتدع فيه أقل تجويف، لاتضربه، بل لا تكاد تقع عليه، ولايأتي عنها صوت. تتدحرج معدنية، فضية، مستديرة، مغلقة علي استدارتها الكاملة التامة، شيئًا ملفوظًا باستمرار، متماسكًا، يفلت من كل قبضة، ويفر من كل إمساك، محتفظا بنفسه، مسدوداً علي نفسه، كاملاً لم ينل منه شيء، ولا يقبل بأي حال أن يتشربه الطريق، أن تمتصه بل أن تمسه هذه الغرابة الأصلية عنه، لايلتصق بشيء، لايجذبه شيء ولا يخلف أدني أثر، يمر فإذا مسطحات الأسفلت المدفوعة إلي أعلي في شهيق جامد مازالت صقيلة ملساء ممتدة كاملة النعومة والانسداد، كأنه لم يمر إطلاقا. ويدفعه شوق متصل أن يلتصق بهذه الارض المصقولة التي تلفظه وترفضه، أن يدخل فيها، أن ينفذ من قشرتها الكثيفة القوية المنيعة، أن يجد له شقًا يتسلل منه إلي ظلمتها الداخلية، أن يندمج في أحشائها، ويَفْنَي في دفئها الباطني، ويتشعع مع حناياها، أن يمرغ نفسه ويتحلل مع ترابها الدفين الغني الناعم الوثير، يتفتت فيه ذرات دقيقة من تراب دافيء، ولكن لاتربة هناك ولادفء ولا خصوبة بل سطح مصقرل مسدود يلفظه، ويرفض، في حياد طبيعته النهائية، أن يتشربه، بل أن يقبله. فهو يتدحرج علي صلابته، قطرة من زئبق مغلقة علي ذاتها، مرفوضة.

حفّت به السيارات، واصطدم به الناس، فصعد إلي الرصيف، ودخل وسط جماعة من الناس اللابسين أشياء أنيقة مكوية، والنساء اللاتي تفوح منهن أنفاس بعيدة لطيفة من التطرية والزواق المتحضر الخفيّ الدقيق، واضطرب في وسط هذا الجمع المتمدين الذي يوشك أن يبدأ سهرة ليلة الأحد، وتطايرت حوله ضحكات وعبارات فرنسية ويونانية وإيطالية وأحس نفسه في هذا الجو السكندري الأليف الحضري الذي لم يستطع أبداً أن يأنس إليه، ولم يستطع أبدا أن يفلت منه.

واسترعت نظره وراء الردهة المفتوحة المعتمة التي تفضي إلي سينما محمد علي، أصص زرعٍ للزينة وجو احتفال، وأناقة مقصودة مزهرة في جماعات الناس، كأنهم في عيد. فدخل متردداً حتي وصل إلي باب السينما ووجد نفسه يقرأ الاعلان الموجود علي الباب. حفلة سيمفونية تقيمها أوركسترا فيلهارمونيك برلين، وأحس بوهج الانفعال يهب عليه من الداخل ووثبت في نفسه فجأة فكرة الدخول. ليست الموسيقي غريبة عنه، ولكنها، علي الأصح، قريبة قرب الأحلام. ونزوعه الخفي لها لم يتخذ موضوعا له من الخارج، بل ظل شيئا في نفسه، يشبه التهويم، وقلقًا غير محدد. وكان يسمع منها بالصدفة، أحيانا، في الراديو، دون منهاج، ويحلم، ساعات، بالسفر إلي أوربا ليشهد أوركستراتها العظيمة. أية صورة من الحلم، وهمهمات تنوس في عتمة خيالاته، عن الموسيقي السيمفونية.. ! أي أصداء عميقة مبهمة مترامية، مكتومة الافاق، تتردد أحيانا بين جنبات نفسه.. !

ووجد نفسه يسأل في شباك التذاكر. ولكن التذاكر كلها مباعة، وهمَّ بالرجوع وقد هبط قلبه من صدمة أمل عزيز مخيب، عندما نادته العاملة وقالت له إن لديها تذكرة واحدة. لم يكن في جيبه إلا نصف جنيه والتذكرة بثمانية وثلاثين قرشا ونصف. وهو مضطرب لايعرف أن يحصي بقية نقوده، وأصابعه مرتبكة، وهو سخن. وكانت فكرة الدواء لأمه المريضة والصيدلية التي لم يبحث عنها، تهجس به من بعيد، صوتًا صغيراً خائفًا في عمق منه. لكنه لم يكن يصغي إليه، وقد نضحت علي وجهه طبقة خفيفة من ندي العرق الواهج. وقلبه يخفق في انفعال جديد وشغف آمال غريبة.

وكان المكان كله جديداً عليه، والعامل يوجهه إلي الباب يرتقي منه سلمًا جانبيًا، بدا له مهجوراً في ضوء مصابيح كهربية صغيرة نفاذة وهو وحده، والسلم يدور به، وينفتح علي أبواب معتمة خفية تفضي إلي فراغات معمورة بشخوص الناس، ولا أحد إطلاقًا علي السلم، حتي لقد خشي أنه ربما أخذ الطريق الخاطيء الذي لاينتهي إلي شيء. لاأحد إطلاقًاعلي هذا السلم المنير الصامت المحجور عليه، خلف الأصوات الغريبة المختلطة التي تأتي إليه من وراء جدران لاأبواب فيها الآن كأنه يرود رواقات خلفية محظورة، لاحق له في الدخول اليها، حتي وصل أخيراً. وعندما وجد عامل السينما علي الباب المفضي إلي أعلي التياترو فرح قلبه كأنه وجد أول انسان بعد رحلة طويلة في متاهة.

وأرشده العامل في العتمة إلي مكانه، فقد كانت الحفلة تكاد تبدأ، في تلك اللحظات القليلة التي تسبق العزف بعد إطفاء الأنوار. وسار متوجساً وقد غرق في وسط مئات من الناس علي مقاعدهم في الظلمة، يصعدون أنفاسهم، متزاحمين، متقاربين، حميمين، لهم دفء التلاصق البشري الوثيق ورائحة الناس. وعلي هدي طعنةٍ دقيقة محدودة من النور الكهربي وجد لنفسه مكانًا بعد أن تعثر مرة وكاد يقع عند سلالم صغيرة، وما أن جلس، وهو ينهج قليلاً، حتي انفتحت تحته هوة القاعة المعتمة، وبدا له المسرح في نهايتها، منيراً، صغيراً، وقد اتخذت الاوركسترا مكانها وأخذت تجرب آلاتها. وفي القاعة طنين من الاصوات المكتومة المنفعلة ترتفع في موجات متعاقبة من الهمس وخشخشة الملابس واضطراب الحركة والضحكات الصغيرة ودقات دقيقة سريعة علي الطبل وانفلاتات حزينة من الأوتار، تنقطع فجأة، ونفخات مفاجئة من الأبواق، ورنين مرتعش مقشعر وطنين من أجواف الآلات، ونواح الكمان وصرخاته الممتدة، كلها تختلط وتهوّم في القاعة.

ثم دخل المايسترو وصفقت الاوركسترا واندفعت القاعة تصفق في زوبعة واحدة متحمسة، ثم تراخت الصفقات الأخيرة، كرذاذ من المطر ينقطع ، وسُمعت طرقات المايسترو الخفيفة الحاسمة. وهبط علي القاعة هدوء عميق كهوةٍ مفتوحة مشحونة بالترقب والشغف.

وحملته الامتدادات الأولي المتطاولة من نغمات مسترخية في نوع من يأس صاف رقراق . وأخذ يعلّ من شراب هذا اليأس المشعشع،

يشفي غلة قديمة صادية في أرض قحلة جافة مشققة، ورق يأسه، وامتد مرهفا كأسلاك مرتعشة من زغب هفهاف راجف، يتقدم في توتر حساس عبر وحشات شاسعة. وتضخم اليأس وامتلأ، وارتفع في دفقات كثيفة ناهضة إلي أعلي، غنية بالعصارة، يهزم ويجلجل، ويختلط بأحشائه فيملؤها بنزعات منتفخة بدم الأرض الثقيل، ولم يعد يأسًا بعد، بل شيئًا بدائيًا قويًا لا اسم له. وارتفعت العصيّ في الأوركسترا معًا، وهبطت معًا، تحرث تربة الأرض في عزم ملهوف مصمم، في نظام يضمها كلها ويتجاوزها ويتخطاها، وهو يتابعها وأنفاسه تتسارع، مبهور الصدر، كأنها فؤوس رقيقة رفيعة قوية تعلو وتنخفض في معادلة رياضية تفي به وتحققه.

وطبول السماء تقرع فجأة، والصناجات تصطفق في روعٍ نحاسي، توسّع العالم كله، وهذه الخلوة الفسيحة تمتد حواليه، وقد تهللت السماء وفرغت وذهب عنها كل حضور، وهو يمتلك الكون كله،بلا حدود، فيصبح كونه. لم يعد غريبًا هو، إنه يقبض علي أطراف السماء نفسها، ملء ذراعيه، في خبطات الطبل وصفقات الصناج، إنه يهتف بالعالم، في امتلاءات صدره بالأبواق. والأكوان الشاسعة تسقط بين يديه، فيجمعها في فرح شرس، يرقّص الأفلاك. وحيطان العالم قد اصبحت هشة تذروها الرياح، فتسقط عنها نُفاضة النجوم.

ثم تدور به حسابات الجمال الدقيقة الملآنة، ويغيب في خدر رقيق لم

يعد يعي فيه، خدر من معرفة وضّاءة العتمة، حتي يستيقظ علي ألم موجع، علي رهافة جرح تبتر حديه الأوتار. وترتعش أطراف جرحه المفتوح، مشدودة الحساسية. وتنتقل ساقاه، في بطء، كأنما تقاومهما الرياح، علي مسطحات مِلْحية من عُمق رمادي لانهاية لوحشته، وهو ينقل خطواته في هذه السهوب التي تفوح بها نسماتُ توقٍ مبهم، تنوح في دقة خفية بعيدة ورقيقة، وتدمدم من ورائها، من بُعدٍ لايُنال، زلزلاتٌ مهدَّدة مكتومة، متربصة أبداً منتظرة، وغمرات مرهوبة يتحلل خطرها برُقي فعالة، كأنها رقي تتلوها شفاه أنثوية، من محبات صابية عميقة.

والأوركسترا تبدو كأنها فرقة أنيقة منظمة من العمال، صغيرة كدمي مشغولة منهمكة في عمل تافه لاقيمة له. لاصوت له، غير مفهوم، كأنها شيء آخر لايمت إلي رؤياه، ولاصلة بينها وبين هذا العالم الذي ينفتح حوله، ويسوخ به، يرفعه ويسحقه، ويملكه كل شيء ثم يحرمه من ذات نفسه، يجرحه ويزلزل حشاه، ثم يملأ صدره، بنفحات هواء طليق حارٍ من التحدي.

والديكور علي المسرح قطعة من القماش الملوّن عليها رسوم أشجار باهتة لاحياة فيها، جذوعها من بقع الالوان البنية المسطحة المشققة، وورقها أخضر مفلطح ثابت لايهتز، وألواح الخشب تبدو علي أرضية المسرح عريانة بذيئة تافهة في عريها الحقير. هذا هو مسرحه الذي تدور فيه مأساته. لكن هذا الديكور كله يطفو علي سطح وعيه، لايتصل في

شيء بالحياة التي تهزه الآن. وهو مدرك أن لاسبيل للاندماج بينهما، بين هذا الديكور السوقي الرخيص الذي لايستطيع أن ينساه منطبعًا في ذهنه يكويه بحقارته وهذا الوهج المشع الأصيل في حسه، وفي وعيه، في بؤرة حياته. كأنه مقسَّم يحيا حياته الحادة علي سطحين منفصلين، في وقت واحد.

لم يعد غريبًا في لحظته الآن، بين الناس الذين يحسهم قريبين إليه، بأجسامهم المتلاصقة الحميمة، أخوةً له، لم يعد وحيداً، وهو بين أشباهه، علي أنه يحيا وحدةً خاصة به، لكنهم جميعا، بصورة ما، في كون واحد. لم يعد الآن ملفوظًا يُدحرجه أسفلت صلب مسدود، وأمه المريضة لم تعد بعيدة، ملقاةً في عزلتها الليلية الطويلة، بل معه بدعائها ورجائها وخوفها، معه أيضا في شوقه إلي أنثاه، شوقًا غامضًا حنونًا إلي مستقبل من المحبة ينتظره وراء ركن من شوارع حياته بين السيارات وعربات الترام، لم يعد ذلك شوقًا قلقًا وشهوة خشنة تكسر نفسه في غبار حجر صلد، بل توقًا يتفق مع يأس مقبول رخيّ. والعتمة الهادئة تعطيه سماءها، في نغمات عذبة يفهم فيها علي نحو ما، نوعًا من الرضي، يفهم فيها أن الأمل الذي لامعني له، هو عيده الخاص، بأحزانه ذات الابتسامة الوضيئة.

أبونا توما

كانت ليلة خريفية من بابَهْ، القمر مشرق في سماء الصعيد، والصحراء تئن فيها الريح والدير يبدو بأسواره الضخمة ومنكبيه الكبيرين، نصفه غارق في الظلمة ونصفه متوهج بنيران القمر البيضاء، كحيوان خرافيٍّ من رؤيا يوحنا. وكان أحد الرهبان يطوف علي السور العريض، للحراسة، معلقًا إلي كتفه بندقية عتيقة، حتي إذا وصل إلي القبة الكبيرة جلس تحتها، مستنداً إلي الليل في العتمة. والنجوم القليلة تلمع بعيداً عن القمر في حِجْر السماء الحريري. وثم عواء ذئب يسري بين الرمال.

وعلي مبعدة من البناء الضخم تتناثر أبنية صغيرة قليلة متداعية، يتكوم معظمها في صمت. مهجورة. علي أن النور يشع من صومعتين متجاورتين منها، باهتًا في ضوء القمر.

وبين الدير الشامخ وبين هذه الأبنية المبهمة كالمقابر تتخذ الحجارة

والأنقاض أشكالاً غريبة في الليل المقمر، كأنها أجسام متصلبة في كابوس، ترمي بذراعيها متشنجة، فاغرة أفواهها بلا صوت. وثم جماجم قديمة مرمية، بيضاء من طول التعرض للشمس، تبتسم أبداً عن نواجذها وعن عيونها المفتوحة بلا راحة.

كانت الذئاب الضارية، في القديم، تقف علي أبواب هذه الصوامع في خشوع، لتحرس سكانها القديسين. وكان الرهبان يقضون فيها أيام التجربة علي الأرض. في وحدةٍ مباركة بالروح. لكن الرهبان هجروا هذه الصوامع شيئًا فشيئًا، وهجرت الذئاب هذه الناحية من الصحراء. أما البذور التي ألقاها الزارع الصالح فلم تهلك كلها في الرمال والصخور. بل نمت وترعرعت منها نبتةٌ طيبة أو اثنتان، وها الضوء الأصفر مايزال يشع من هاتين الصومعتين، في انتظار ملكوت السموات، في هذا السفح الموحش، المهجور إلا من الثعابين، والثعالب التي تأتي أحيانا فتقف علي الباب بهدوء وتمضي وهي تقرقر بأسنانها.

وأبونا توما وأبونا متّي لايفتآن يصليان، ويترنمان بكلمات الله وتسابيح الآباء والقديسين. كانا يذهبان في الأعياد إلي كنيسة الدير، ثم يعودان محملين بزاد روحي من التقوي، وبقففٍ مملوءة بالخبز الجاف يأكلانه علي مدار السنة ميللاً بالماء الذي ينتحانه بأنفسهما من البئر في صحن الدير ـ كانا يعيشان في عزلة النساك الاقدمين ـ ثم يتناولان القربان المقدس وينالان بركة الأب الرئيس.

وكان أبونا توما يرجع بكمية كبيرة من الورق السميك الأصفر، وحزمة من بوص الغاب للكتابة، وزجاجة كبيرة من الحبر الأسود ومثلها من الحبر الأحمر. فقد كان ناسخًا يقضي أيامه ولياليه ـ بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب وأداء الصلاوات والترنم بالمزامير والتسابيح ـ في نسخ الكتب المقدسة والأشعار التي قيلت في تمجيد الحَمَل الوديع وتقديس أم النور، وفي زخرفة الحواشي بالرسوم الطاهرة، وتدوين سير الشهداء والقديسين. وكان يحب أن يرسم العذراء وعلي ذراعها الطفل الالهي، وحول رأسيها هالات من النور بالحبر الأحمر، تحيطهما الغصون المتشابكة وأوراق الشجر والزهور المستديرة الحمراء، كأنها تترنم باسم القدوس.

أما أبونا متّي فكان يعود وملء يديه سعف النخل وخيوط الكتان والخوص والإبر ونحوها من أدوات خصف القفف وصناعة الأقفاص. فقد كان بعد أن يؤدي واجباته الروحية كلها يبارك المواهب المتواضعة التي منحها إياه الرب يسوع، يعمل بيديه في ابتهاج، مقلّداً النجار الإلهي، مترنما بالتسابيح، ليعود في العيد التالي إلي الدير وعلي كتفيه وملء يديه السلال المجدولة بشكل ساذج وجميل والأقفاص الخشبية من سعف النخل في غاية القوة والرقة، والقفف المخصوفة في دوائر تامة الاستدارة.

وعلي هذا النحو كان أبونا توما من ناحيته يعبر أيامه ولياليه، حالًا في غيبوبة من الكلمات المقدسة، يرددها بصوت خفيض وهو ينسخ في غيامة من جمال يسوع وطهر العذراء، ونعيم الملكوت في أورشليم الآتية.

أما أبونا متي فكانت صومعته فسيحة ومنيرة في سقفها فتحة واسعة يري منها السماء والسحب البيضاء الطائشة تطفو علي أمواج الضوء الزرقاء، وتلمع فيها نجوم المساء وهو يخصف ويُسبّح، في صوت جهير.

كم مرة توجه الراهبانْ فيها إلي الكنيسة في العيد، وصليا في الهيكل، واعترفا بخطاياهما ؟ لاأحد يدري علي وجه التحقيق. لقد امتلأت مكتبة الدير بالكتب الجميلة التي نسخها الأب توما، وامتلأت الأروقة والصوامع بالسلال والقفف، وما من راهب في الدير إلا وهويذكر أنه عندما جاء الدير لأول مرة، كان الراهبان في صومعتيهما المنعزلتين، لاهما بالشابين ولا بالشيخين، كأنهما لايعرفان معني الزمن.

وكانا يتناديان أحيانا من وراء جدران صومعتيهما، ليذكرا مجد الرب أو يتعجبا لآياته التي يظهرها ليل نهار لأعيننا الخاطئة، نقاوة القمر أو رقة السماء أو لطف النسيم في أول الليل، بعد يوم حار.

ومايزالان يعملان، هذا يخصف ويجدل، وذاك ينسخ ويرسم، سعيدينْ بالروح، ظافرين بالجسد متغلبين علي الشيطان، ببركة يسوع المصلوب، ونعمة الأم المقدسة.

وفي تلك الليلة من بابة كان أبونا توما يفكر في الشيطان. ألم يدعُ الآباء القديسون إلي التفكير في العدوّ، حتي نتخذ منه حذرنا ونعد له عدتنا، ونقهره بالروح ؟ وذكر الاب توما كيف كان الشيطان يجرب الرب إلهنا في البرية. لاتجرب الرب إلهك. لاتجرب الرب إلهك. ولسوف يتغلب رب الجنود علي قوات الشر، ويحبس الشيطان ألف سنة، يسود فيها السلام، في أورشليم المجيدة الثانية. ألف سنة ؟ كان ذهنه مضطربا الليلة. وبعد هذه الألف ؟ لم يكن يذكر تماما ماذا يحدث بعد هذه الألف سنة. وعيناه مظلمتان قليلا لأنه كان يري أورشليم الماضية، أيام نزل الرب أرضنا هذه. في القبور القذرة الموحشة يهيم بينها من مسّهم الشيطان، أولئك التعساء يجرون بين المقابر وهم يمزقون شعورهم، مهلهلين بلا طعام ولا مأوي، بأعين متألقة وأصوات مبحوحة، يعوون إلي الرب يسوع، إذ يمر علي المقابر، أن يخلّصهم من الشرير.

وكان يتحنن عليهم المخلص، ويأمر الشيطان فيحل في قطعان من الخنازير التي تنطلق فجأة من علي الجرف، وهي تعوي بدورها وعلي أشداقها الدم والزبد، تتدافع إلي البحر وتسقط في الماء وهي تشرق وتغوص، وهي تقبع وتعوي وتموء. وهزته قشعريرة وهو ينظر إلي الظلال المحمرة التي تلقيها الشمعة علي جدار صومعته. هذه الظلال التي عمرت ليالي حياته تبدو له هذه الليلة غريبة. وهو يفكر في النباح والجوع ذي الأعين المتألقة، والشياطين تأتي لترقد في الظلمة خارج

صومعته، وترسل العواء عاليا يمزق الليل. لماذا الرب يتركها ؟ هذه الشياطين تعوي في الليل، وتطأ الروح بأقدام من الشوك. تطلق الدماء والرغوة إلي الأشداق ثم تختنق في الماء بعد أن تسقط من الجرف. لماذا الرب يتركها ؟ لاتجرّب الرب إلهك. مكتوبٌ في الكتاب لاتجرب الرب إلهك.

كان الراهب خائفًا،وكانت الريح تزف. وأدرك أنه يعاني تجربة ليست من الله. فمتي يهدأ قلبه ومتي يتقوي بالروح ؟

ركع وراح يصلي ويستغفر الآب، مغمضًا عينيه، والتهب وجهه كأنه شرب خمرةً شريرة والصلاة زادته الليلة حمي وقلقا وجوعا إلي الله. جوعًا لعل الشيطان نفسه فتحه في أحشائه. إنه لايدري. إنه حزين هذه الليلة، وضعيفٌ بالقلب، كأنه طفل في لفائف أمه.

وأمسك قلمه فجأة وأقبل علي الورق، يكتب رسالة من الرسل، معقدة لم يكد يفهم لها معني، علي الرغم من أنه يحفظها عن ظهر قلب. ثم توقف. إنه لم يرسم علامة الصليب علي وجهه عندما انتهي من صلاته، وأقبل علي كتابته. ولأول مرة في حياته. فرسمها في تعجل ويداه ترتعشان. هذه الليلة لاتنتهي.

واستحال خطه رويدا إلي تلك الكتابة الجميلة التي ملأ بها مكتبة الدير، وهو يحلم من غير أن يحس ـ رسالة إلي أهل تسالونيكي، إلي رومية، إلي أهل كورنثوس، وأفسس، هذه المدن التي مايزال يعيش

فيها الراهب، إذ لايعرف غيرها. مدن واسعة وثنية فخمة فيها قصور من الرخام الأبيض الناعم، والحمام في الشجر، ورجال ضالون يهرولون في شئونهم الدنيوية، والنساء في ثياب حريرية هفافة. وقد نسي كل شيء عن أزمة ليلته، وعن تجربته. وكانت الرياح تقصف بالخارج.

ثم سمعها فجأة، تتأوه في أناتٍ عميقة ممتدة مع الريح، متهدجة في شكاة:

ـ يابونا توما....... بونا توما.......

ورفع رأسه في دهشة كاملة. مَنْ تلك التي تناديه بهذه اللهجة؟. وهجم عليه الخوف دفعة واحدة. وهبت الزوبعة تنز في نفسه بعنفها كله. هذه التي تهتف باسمه في تلك النبرة الطويلة الدافئة المرتعشة، يايسوع، من هي ؟

وأشرق الجواب في ذهنه فجأة، كترياق ينصبّ في روحه المظلمة المسمومة، إنه متّي، هذا الأبله بجواره، يناديه والريح تحمل إليه النداء فتغيّر من نبراته. الأحمق.

وخرج من صومعته، وعصفت الريح بثيابه السوداء الفضفاضة، وهو يصيح :

ـ واي يابونا متي. عم بتنادم ليه ؟

وجاءه الرد في صيحة مندهشة مبغوتة :

ـ بسم الآب والابن والروح المقدس. بتجول إيه يابونا توما ؟

ـ واه عم بتنادم عليّ ليه ؟

وسمع الاجابة الضاحكة :

ـ جبْر يابونا جبر. بنادم ليه ؟ دي الريح باواه. وأنا هاعيط عليك الساعة دي ليه ياخوي ؟

ـ بُهْ. الريح.

إذن فهي الريح من أول الأمر لآخره. وليس ثم نداء. وامتعض وحنق علي نفسه، وهذا الأبله متّي يرد عليه هازئًا. وهو يضرب الحصي بقدميه راجعا والريح تضرب ثيابه السوداء الفضفاضة.

ـ جَبْر يابوشنودة جبر. دتاري سرك باتع صح.

وهو طفل في الصعيد في قريته البعيدة، وسمع أمه من أمام الفرن، ذات صباح، وقد رأت عقربًا صخمة شائلة تنطلق نحوها من تحت أقراص الجلة الجافة، في سرعة عمياء. وصاحت أمه بالقديس أبو شنوده ـ شفيعها إد يلم بها الخطر أن يوقف هذا الفزع الداهم. صارخة بأعلي صوتها كأنما تريد أن يسمعها في السماء، ومن حرارة ذعرها

ـ وجُفه يابوشنوده وجُف

وسمع الراهب صرختها تتردد في جنبات طفولته، وهو يعود إلي صومعته. وقد وقفت العقرب كأنما الصرخة العالية سمّرتها بالأرض، كأنما القديس شلّها علي الفور ولم تتمالك الأم في طيبة قلبها أن

تهتف، وهي تهبط علي العقرب بأقرب شيء وقعت عليه يدها، قرصاً جافا من الجلة، فتقتلها، وينكسر القرص :

ـ جبر يابوشنوده جبر. دتاري سرك باتع صح.

ودخل صومعته فأحس ريح الليل تتسلل معه، وتعصف بذبالة شمعته. كانت أمه تقول إذ يأتي ليل الخريف :

ـ بابه خش واجْفل الدرابه.

وكانوا يُحكمون إغلاق الباب والنوافذ جميعا، ويقعد جَارَ أمه بجنب الفرن، وإناء العدس الأصفر يغلي ويملأ المكان بعبق لذيْذ، بين الدجاجات النائمة التي تنق في أحلامها، والماعز ، والجاموسة في طرف القاعة تجتر طعامها وهي ناعسة في كسل، تنبعث عن جسمها الضخم وروثها ودفئها رائحة حريفة ثقيلة طيبة.

ومد يده يتلمس دفء الفرن من الجهة الشرقية، ووقعت يده علي فراغ. ففرك عينيه المتعبتين وهو ينظر إلي أكوام الورق والزجاجات القذرة من الحبر يكسوها الرمل الناعم الجاف، وأعواد الغاب تحت السكينة التي يبري بها أقلامه.

هذه الذكريات الباطلة. والخوف والوهم والأكاذيب التي في القلب، وعلي شفتيه كالنار المتقدة.

ومازلنا في أول الليل.

وركع يصلي والشمعة تذرف آخر نورها، وطوته الصلاة بين ذراعيها،

حارة متصاعدة تتدافع. ومشاعره تتدفق وتهضب. المشاعر المكومة المحبوسة تنبجس وتنفجر، في كلمات من الحمّي. يدعو إلهه ان يخلصه، أن يمد له يد معونته. وإلهه لايسمعه.

يايسوع. إنه فقد صوابه هذه الليلة. وسحابة شريرة أغرقت روحه بالخيالات. هذا النداء الشهي. هذا النداء الشهي. كم مرة ينبعث له. له وحده. يدعوه. مرة من الظلمة في ركن الصومعة، خافتا متآمرا يقظا في الليل. ومرةً من الريح في الخارج، ضاحكًا معابثًا، ناعمًا بتلك النعومة اللاعبة المرحة، يرتعش لها جسده، كرعشة الموت، ومرة في صوت أغن يشكو ويعاتب. كيف يصده ؟ كيف ينحّيه ؟ويأتيه النداء ضارعا في لهفة كأنه يموت من الشوق ثم يصمت، لكي يراوده فجأة في أنين مسترحم عميق. ذلك الأنين تهتز له أحشاؤه، في رعدة تتنزي كانبثاقة الحياة نفسها في لعازر القائم من الأموات.

والرب نساه. ويسوع الذي عرف آلام المجدلية فرحمها وغفرلها، لم لايصغي لندائه الآن ؟ لم لايسمع له وهو يقرع بابه بانسحاق ؟ وكم من مرة وضع حول رأسه هالةً من النور، بالحبر الأحمر الجميل، وكم من مرة أنشده التسابيح والأشعار. فلماذا لايراعي دموعه، الآن، ويطرد عنه الروح الشرير ؟

وارتفعت إلي عينيه سحابة باردة من الدموع ثم ذابت في حرارة من الملح المؤلم. لكن الثقل الذي يفدح صدره لم يرتفع. والدموع لم تنهلّ

بعد. وهناك شيء ما. جائع. جائع. ينهش قلبه وينز في دمائه، ويلقي به في نوبات متعاقبة من القشعريرة والسخونة، تلفحه وتكتسحه.وهو يصلي كأنه يحتفر حُفراً في أغوار نفسه، ويتكسر كأنه في زلزال، والصور الشريرة تقترب وتحوم حوله، ولا يجد رحمة، وربه قد هجره في محنته، وتركه يصارع العدو بالأيدي العارية

ـ أبونا توما.... توما.... توما....

تدعوه وتحتضنه بين ذراعين حريريتين، وتقبله علي شفتيه بقبلة هادئة ندية كملمس زهرة غضة. يارباه. هذه الطراوة. هذا الدفء اللين.

وضم حول صدره الناحل ذراعيه. لكن نفسه مثلوجة صادية.

كلا ياالهي. كلا. هذا الشيطان، يجربه.

وانحدر رأسه علي صدره. ونظر إلي قلمه علي الأرض في يأس. وراحت يده تتلمس شيئا بين الورق كأنها تبحث عن شيء تعرفه، حتي وجد صليبًا فضيا صغيراً كان قد أهداه إياه رئيس الدير. ونظر إلي الصليب قليلا بعينين شاردتين. وقرّبه من شفتيه المرتجفتين ببطء. رويدا وشفتاه يسفعهما شوق ممضّ كالملح. وفي حركة حادة مفاجئة اكتسح الصليب بشفتيه وقبّله في عنف مر، قبلة متحطمة مهروسة، مرةً ومرة وأخري، ثم دفن رأسه بين ذراعيه بقوة. واهتز جسمه وتساقطت الدموع من عينيه أخيرا، حارة منتزعة كفلذٍ ممُزعة من روحه مازال يقطر منها الدم. وهو يشهق شهقات عميقة خشنة، خاف لها هو نفسه، ويرتعش.

ولفظت الشمعة آخر أنفاسها، وتركته في ظلمته يبكي. كلا كلا إنه يريد أن يعيش مع المسيح، يريد أن يحيا في الكلمة المقدسة مع الله. لاشهوة له في العالم الباطل. لا يريد إلا يسوع. الذي أحَب وتألم، وغفر لمن أحبوا وتألموا.

امح من قلبي ياإلهي خطيئتي واغفر معاصي، روحًا مستقيمًا جدد فيّ يألله، وقلبًا نقيا اخلق في داخلي.

وهدأ نشيجة رويداً واستند إلي جدار صومعته المظلمة، من غير أن يفتح عينيه. واستسلم لهذا الضني العذب الذي يملأ روحه الآن. هذه الغفوة الكئيبة الممتعة، وهو يهمهم شبه نائم بترنيمة قديمة حزينة عن آلام المصلوب ودموع العذراء الواقفة تحت الصليب.

ـ يابونا توما.. توما..

في صيحة مُحبّة. صيحة حبيب قديم وجده نائمًا بعد أن بكي. فضمه إلي حضنه، كأنها أمه تطايبه. وأراد الرجل أن يريح روحه الجريح بين الذراعين الناعمتين.

وكان النداء ينبعث إليه خافتا متكرراً لايستكين إلي صمت، من الأرض ومن السماء ومن دمائه التي تنز بالتعب الساخن. والنداء يتعلق بعنقه في ارتعاش، ويدعوه.

وخرج إلي السفح ينظر مرة أخري إلي السماء، وإلي الدير الكبير. وتنهد في سأم وصبر. هذه الليلة. هذه الليلة التي لاتنتهي.

لكن لا أبدا لاشك هده المرة. انه متّي يناديه. هذا الصوت مقبل من ناحيته ليس ثم شك

ولم يجب علي النداء هذه المرة، بل تسلل إلي الصومعة المجاورة في خبث ساذج، ووقف بالقرب من بابها.

وانبعث إليه النداء من داخل الصومعة.

قفز إلي الباب. ووجد زميله ساهراً في عبادة الرب يخصف سلة كبيرة من جدائل صفراء وخضراء، وهو ينغض برأسه، ويترنم شبه ناعس، وضوء القمر ينير صومعته. نظر إليه برهة ثم قال بصوت واثق، هادئ، من التهديد.

ـ أبونا متي. إنت كنت عم بتنادي المرة دي.

وكان الراهب الصالح لم يشعر بعد بوجود زميله علي الباب، فانتفض بذعر، والتفت يرسم علامة الصليب ·

ـ بسم الآب والابن والروح القدس. مالك يابونا توما ياخوي ؟ جري لك إيه الليله دي ؟ روح صلي يابونا. أنا ناديتك ياحي ؟كلمة مسيحية ماناديتك الليلة. روح صلي وأرشم الصليب علي وشك. واطرد الشرير عنك يابونا

يصلي ؟ يطرد الشرير ؟

وقف بالباب صامتًا. ينظر إلي زميله، والشك يعتصره، والغضب يغمر أحشاءه بالدم وهو يسمعه يقول كلاما عذبًا، مسيحيًا. كثيراً، عن

حيل الشرير ومقدرة الرب يسوع، عن التجارب وضعف الانسان.لكنه لايسمع شيئا غير الريح في داخله،ونفسه تخرج عنه إلي الليل كقطيع ممسوس من الخنازير تندفع إلي الجرف وهي تعوي وتصأي.

ودار فجأة بلا كلمة،وذرع السفح إلي صومعته، وهو لايري ولايسمع، ومسح شفتيه الجافتين.

انحدر القمر أخيراً نحو الغروب مُتعبًا قبل مطلع الفجر، يلقي بأشعته الشاحبة الاحمرار وظلاله الطويلة عبر الصحراء وعلي البناء الكبير بقبابه المتتابعة، وقد ضاع في ظلها الراهب الحارس ، وعلي أنقاض الصوامع المهجورة، والعظام، والأحجار علي السفح.

وكان الأب توما في صومعته يكتب بلا توقف، يكتب في مدٍّ طويل متصل يرتفع أبدا لايفكر وإنما ينسخ كلمات لانهاية لها، وجسمه ينبض بالتعب.

كان نائما، وقلمه في يده، مستمراً في حلمه بالكتابة. وما أبعد هذا النوم عن لياليه السابقة، حينما كان يأوي إلي الراحة، وهو يحس البر، وانه أدي واجبه في محبة الله. لكنه الآن لايستريح.بل عليه أن يكتب في نومه بلا توقف كأن شيئا يلاحقه، وهو مطحون، وعظامه تنز بالانحطام.

ـ توما... بونا توما...

كينبوع من العسل واللبن، ينفجر فجأة من صخر. كقبلة كلمسة من النار، كصرخة هاتفة من اللذة المتطلِّبة.

وقفز واقفًا من نومه، في لمح البصر، وقد صفا ذهنه صفاء باهراً، وكل عصب في جسده متوتر كأنه كان ينتظر هذه الصيحة. كأن شيئا شده فجأة إلي يقظة قلقة مرهفة تخز في العظم وتبريه، وهو يختطف السكينة التي يبري بها أقلامه ويده تتقبض علي كتابه المقدس الصغير بلا إدراك. ولفحت الريح وجهه، وعصفت الدماء بجسمه المرتجف، سوف يُخرس هذا الصوت، سوف يخرسه، ولم تمضِ بعد لحظة واحدة منذ أن استيفظ من نومه. أبدية من الغضب والعزم.

وتراجع الآب متّي عن سلّته التي يخصفها في دهشة، ووقف نصف وقفة، وصرخ صرخة واحدة يايسوع وعيناه مفتوحتان من الذعر والدهشة. وقبض عليه الراهب وتلمسه بيده، وارتفعت السكين الحادة ثم شقت الهواء في عصف وهي تسقط، وغاصت في الصدر بين الضلعين اللذين يحميان القلب، وكان كل شيء يسطع.

وعبر بذهن الأب توما، في خطفة برق، أن رداء الأب متّي ممزق وقديم. ألم يكن الأبله يستطيع أن يرتّقه ؟ وعنده كل هذه الإبر وهذا الخيط ؟ وخيّل إليه أنه يضحك بل يقهقه بملء صدره، يملأ جنبات العالم بقهقهته.

وتمزق الرداء تماما، وارتفعت السكين ثم هبطت مرة، مرتين، ومرة أخري.

وسقط الأب متي علي ركبتيه وتفجرت من صدره الدماء وخرجت من فمه حشرجة ممتزجة برغوة من الدم. وهو ينهج في النَزع. وانفتح الصدر

وتهدلت إلي الخارج العضلات الدامية ماتزال تنبض وترتعش كأن بها حياة خاصة.

ورمي توما سكينه وهو يتلمس الصدر المنفتح في فرح شرس، ويزيح الدماء النازفة بلهفة كأنها الشغف، وهو يزوم، والدماء تنز في رأسه، ويداه الجافتان الناحلتان تتلمسان هذه الدماء الحارة الناعمة اللزجة، وهذا الجسد الآدمي النابض الذي يموت، في لذة كبيرة. يتحسس العضلات اللدنه المتهدلة التي ترتعش تحت أصابعه الغائرة، كأنها الرحم المفتوح.

وترامي في أذنيه نداء قديم كأنه يأتيه من حلم حلو بعيد :

ـ أبونا توما.. توما..

وهي تبتعد، بنعومتها ودفئها، بصوتها اللين الحريري المتمطي. وهو يتلمس الدماء اللزجة واللحم السخن، يتغلغل بجمع يده في الجسم الممزق. وهي تتراجع وتبتعد في نغمات أنثوية راضية :

ـ أبونا توما.. توما..

وعوي الذئب في الجبل عواء طويلا قويا خائفًا، كأن الفجر لن يطلع أبدا.

مغامرة غرامية

نزل درجات السلم مسرعًا، فلم تبق الا بضع دقائق حتي يصل إلي عمله في الميعاد. وقد رد الباب خلفه في شيء من العنف، حتي يتردد صوته في بير السلم، حتي يتأكد من أن نداءه قد انتهي إلي وجهته.

فهي، في شقتها التحتية، تنتظر هذا النداء.

ودرجات السلم تستدير به، ينزلها خفيف الخطو متوثبا بحياة الصبح البازغة، وفي جسمه انتعاشة الصحو من ليله، وعيناه مفتوحتان علي عالم جديد الولادة.

لكن السلم ينحني ويستقيم، ويستدير، وينزل، وينبسط، دون أن يصل إلي شيء. لاتنتهي هذه الدرجات أبداً، كأنها معلقة بالحائط القديم، تصدر عن بابٍ علوي ولا تفضي إلي شيء، وهو مايفتأ يهبط

الدرجات المتعاقبة، لاتكاد قدماه تلمسانها، ولا يري نهايته.

والسلم يجري إلي أسفل، بين الحائط والسياج، ولا شيء يوجد بعد في العالم كله الا درجاته الهابطة الصامتة، عليها أقذار اليوم الفائت، نفايات مختلفة من قشور الخضر والفاكهة القديمة وأعواد الملوخية وقصاصات الورق المتقطع وعفرة التراب، وضوء الصبح ينزل عليها كلهامن السقف العالي، فيفضح عريها النيّء الذي ناله عفن قليل. وهو ينزل، يكاد ألا يكون منتظراً نهاية. درجة بعد درجة، بدون ملل، بدون دهشة، لايكاد يستند في سرعته إلي السياج المدوّر المكتنز بجسده الخشبي الناعم من طول مس الأيدي الطالعة النازلة، كعاهرة قديمة شبعت من حس الاصابع المبلولة، والحائط ينزل إلي جانبه، بلا نهاية، معلقًا في تجربة متصلة لايوجد فيها معني الزمن ومازالت في البيت أنفاس الصبح الثقيلة من النوم، خامدة فيها حرارة الفراش والأجساد المتقاربة الملففة في أغطيتها وملاءاتها المتراخية المهدلة، ومازال بالسلم ريح بطيء ينفذ إليه، من تحت الأبواب المسدودة، عن تقلبات الغرف المغلقة وهوس اللحم والأحشاء والليل اللزج. وهذا الريح يتشتت قليلاً مختلطا بعري النفايات النيئة، وصفائح الزبالة علي أركان السلم تتخثّر وتتصعّد نَفَسها المعجون. لكنه يهبط لغاية هذه الدرجات التي لا تنتهي أبداً، علي هذا السلم المتمطّي في نومة أول الصبح.

وانفتح بابها فجأة، وخرجت إليه، وهي ترتدي ثوبًا حريريًا قديمًا

للنوم، قصيراً أحمر قانيًا لايصل إلي سمّانتي ساقيها البيضاوين، وينفتح، في سعة، عن كنز ثدييها الحافلين باللحم المستدير العريان، إذ يتلامسان في تكوّر متجسد من العجين الأبيض الذي مازال يحتفظ بدفء الفراش. وقد صبغت شفتيها ـ علي الصبح ـ بأحمرها الفاتح، وفي شعرها الكثيف القصير لمعة سوداء متماسكة متألقة. ونظرت إليه بعين الأنثي التي لاتشبع، وذراعاها العاريتان تفلتان من ثوبها الأحمر كأنهما فخذان، وفي طية اللحم المنكشف المزنوق تحت الابط وعدٌ بلذة مشبعة دفيئة ريانة.

كانت تنتظر نزوله عادة، حتي تلقاه أول الصبح، كل يوم. وهي تتظاهر أنها وقد كنست البيت، مبكرة، تُخرج الزبالة إلي السلم، في هذا الميعاد بالضبط، حتي لاتثير ـ جداً ـ شبهة حماتها، وسلفتها، وأولادها الكثيرين. وهو يسمع الآن ـ إذ يمر بالباب ويتأني قليلاً ـ زياط الاولاد في داخل الشقة المزدحمة وأصوات الاستعداد للنزول إلي المدارس، وابور الجاز وغسيل الوجوه وإعداد الفطار. لكنها لاتكاد تفوتها مرة واحدة، تقريبًا، بل تخرج إليه كل صباح، في ميعاد نزوله، ينفتح عنها باب الشقة الخشبي المسوَدّ القذر، وتطلع منه، محشوةً برغبتها الدسمة فيه. ومدت يدها، فأخرجت من بين ثديها ورقة أعطتها إياه.

ـ صباح الخير.

وترمقه بنظرتها الثقيلة، من تحت جفنين مسودّين قليلاً ينزلان علي عينين عميقتين. والباب مفتوح، وفي الجو كله خطر الانكشاف والفضيحة، وسرعة المؤامرة.فاختطف الورقة المطبقة بعناية، وفيها نفحٌ من باطن جسدها وعرقها الخفي.وأسرع نازلاً يخرج إلي الشارع.

كان الشارع واسعًا فجأة، بعد هذا الحلم الضيق المتوتر الخطر. ونظر خلفه فرآها في الشرفة تنظر إليه.

جريئةٌ فعلا هذه المرأة، لاتتورع، في رغبتها، أن تجازف. هذه النظرة المخطوفة السريعة من الشرفة، قد تكشف الأمر كله. واستدار خلف ناصية الشارع، وفي عينيه صورتها، حديد الشرفة يستدير بها، رقيقًا في صفوفه النحيلة، كأسلاك دقيقة صغيرة معلقة بحائط البيت من الخارج، في صفاء الصباح، تحت سحاب أبيض قليل ساكن في سماء نقية. ويحيط بها، وهي عالية بعيدة، صمتُ رغبةٍ خافتة غير شبعانة.

وما كاد يدور خلف حيطان الشارع الآخر حتي فتح الورقة، في الطريق. والناس تمر عليه، وتفتح دكاكينها وتنتظر الفرج وتهرول خلف الترام تلحق به قبل أن يقوم.

«حبيبي. ياأعز حبيب

«لماذا تصمم علي هجري ؟ هلي نسيت حبنا أم»

«تريد أن تتناسي ؟ أنني أحبك حبا »

«ملك عليّ حواسي فحرام هذا التجاهل ماذا »

«تريد إنني طوع أمرك ؟؟ أين نتقابل ؟»
« ومتي ؟ أنني أسهر الليل انتظارا لعودتك »
«من ملاهيك دائما فلا أنام الا اذا آويت»
«إلي مضجعك فأنام أنا الأخري متخيلة أنك»
«معي وأنتظرك صباحًا لأراك عند ذهابك»
«إلي عملك فإن لم أراك أظل طول يومي»
«شقية معذبة لأن في رؤياك عزائي»
«حبيبي هب لي من لدنك يوما نتلاقي»
«فيه وسيكون آخر لقاء كما تريد وان لم يكن»
«فخطاب مطول أقرأ فيه حبي الذي مات ولم»
«يُولد بعد أو أي شيء يذكرني بهذا الحب»
«الذي كان. وسأبتعد عنك ولا أتهافت»
«عليك وأنطوي علي دموعي وأحزاني وفشلي»
«في حبي الوحيد.»

* * * ».

وابتسم لنفسه، ابتسامة خاصة به، في الطريق، وهو يسرع خَطْوه. وقد خفق قلبه بالرغم من كل شيء، خفق لهذه اللهجة المؤثرة الفصيحة التي تكتبها، بأخطائها اللغوية، ومزاجها الغرامي، ولحظ أن هناك وراء هذه الكلمات شيئًا صادقًا عنيفًا، ألحب أم مجرد الرغبة العطشي ؟ وقد

رضيت فيه كبرياء هشة.

ولم يشأ مع ذلك أن يقتنع أن في هذا الكلمات مايريد من الصدق. خيل له أنها تمرين في كتابة الرسائل الغرامية.. لاأكثر.. ومع ذلك..

كانت علاقتهما، بداءة، مبنية علي خديعة، من جانبه علي الأقل. وهو مدرك ذلك واع به. ويقبله، لانه قد برره لنفسه. لم يكد يطيق الحرمان الدائم المطلق الجاف. وهاهي ذي امرأة تقبل عليه. أيرفض ؟ أيستمر إذن يتقطع وييبس ويتصلب، ويسقط ذابلاً، من غير ماء ؟ لماذا تتآمر عليه الظروف والناس، فلا يجد في حياته كلها، حتي الآن، حبًا أو مايشبه الحب؟ وقد مرت عليه سنوات طوال، مقفرة كلها، موجعة. أليس من حقه الحب، ومن حق كل واحد ؟ أليس ذلك جرمًا ؟ لايهمه أن يقترف هو أيضا جرمًا، مادام هو الضحية، علي أي حال. وهو يحس نفسه مَغريًا بمتابعة هذه الحكاية.

مغامرةً اذن، فقد ضاق بالتزمت والتزام الطريق الضيق القويم. ضاق بالعمل في البلدية، والقهوة بعد الظهر، والسينما، والصحاب من الشبان دائمًا ـ دائمًا من الشبان. يتكلمون هم عن مغامراتهم فلا يجد إلا أن يصمت، أو أن يعلق علي حكاياتهم بالسخرية أحيانا والتهوين.

ومع ذلك. فقد انتهت هذه الخدعة المقصودة، من جانبه، إلي أن يكتشف في نفسه، بعد ذلك، شعوراً لم يكن ينتظره. كان يستشعر عطفًا غريبًا يربطه بهذا الكائن الذي ملأ عليه طرقاته الآن. عطف المنسي

المحروم الذي يجد أنّ بيديه ثروةً يرمقها الآخر بعين الطلب. هذه المرأة التي جاوزت شبابها، وتهدل خدها قليلاً، داخل خطوط وجهها المستقيمة النقية، علي جانبي شفتين مكتنزتين، حمراوين دائمًا، هذه المرأة، لعل حياتها قد تقضت إلي اليوم، دون أن تعرف إقتناعًا لشهوة غامضة ترقد في داخل أحشائها، إلي متعة لم تتحقق بعد. وهل تتحقق أبدا هذه الرغبات الداخلية، هل تتجسم أبداً هذه الشهوات، في الحياة التي نحياها ؟ كم نتوق نحن إلي التحقيق والإشباع، إلي إرضاء نزوعات بدائية جذرية تمتح ماءها من عمق أرض نفسنا. فهل تتحقق أبداً هذه النزوعات؟

انها خرجت إليه، هذه المرأة، تطلب منه هو تحقيقها. فلعلها لم تقع علي ذلك، عند زوجها، طيلة تقلّبهما علي ملاءات الزوجية، طيلة حياتها معه، ومع حماتها، وسلفتها، وعديلها، وأولادها، في الشقة المزدحمة، وهي لاترضي بالأفق الذي ينسد أمامها رويداً، وسوف يغلق عليها، وشيكا، إغلاقًا نهائيًا قاطعًا، وتتلمس ثغرة تنفذ منها إلي مايتجاوزه، هذا الافق المسدود. لذلك كان يحس انعطافا علي هذه الرغبة، وحنواً أمامها. لذلك قام بين جسديهما تقارب حميم، وعطفٌ نسيجه من الفهم يؤلف بين الجسد والجسد المنعزل المنفصل، المغلق أبداً علي حياته الخاصة، النازع أبدا إلي التداغم والتواحد، إلي الانفتاح

والانطلاق لِصق الجسد الآخر.

لم يكن يعرف عنها، أول الأمر، إلا أنها جارتهم في البيت، زوجة مقاول نقل، يشغّل سيارة للبضائع أو سيارتين، لايدري. وهو منشغل طيلة نهاره، لايعود للبيت الا متأخرا كل ليلة. وأنه تزوجها عن حب، إذ كان يتتبعها، زمان، ويرصد حركاتها. وقد كانت مدرسة شابة، بعد، في مدرسة للبنات، حتي انتهي الأمر بأن لها اليوم خمسة أولاد أو ستة لايذكر، كبراهم بنت في الحادية عشرة الآن.

وقد كان يجدها أحيانا، واقفة داخل باب شقتهم، إذ يعود من عمله في البلدية، تكلم أمه أو إحدي أخواته، فتجري تختبئ مسرعة، حفاظًا علي التقاليد واستحياءً منه، ويلمحها تجري في خطوات رشيقة، وهي تكاد تصرخ صرخات صغيرة من المفاجأة، وتضع يدها علي فمها تكتمها، يعنيا، حتي تدخل حجرة أخري فلا يراها ـ أو هكذا كان يجري الدور.

وكان يعجب أحيانا، بسذاجة ودون تفكير كثير، كيف كانت تلك مدرّسة تخرج للعمل، وتعالج، في أدائها لمهنتها، كل صنوف الناس ؟.

ثم خفّت حدة خجلها منه بمرور الوقت، وهوه يختي ده غريب ؟ وأصبح من الممكن أن يتبادلا تحية قصيرة، سعيده، سعيده، وهي ترمقه من عينين سوداوين شرقيتين مثقلتين، خافضة رأسها قليلا، خزيانة ماتزال، وهو يبتسم لها، وذراعاها القصيرتان المكتنزتان مع ذلك

تخرجان من كميها القصيرين دائما، مدوّرتان باللحم الشهي.

وطلبت منه مرة، عن طريق إحدي أخواته، أن يعيرها شيئا تقرأه، إذ أنها يعتورها الأرق كثيراً، بل غالبا، فلا تنام أبدا إلا متأخرة، ولم يعرف إلا بعد ذلك، أنها تنتظر زوجها دائما لتعد له عشاءه، وتسهر في سريرها، تقضم قطعا لاتنتهي من الشيكولاته، وتقرأ أي شيء، خصوصا الروايات نعم كانت تحب الشيكولاته كطفلة، هذه المرأة التي خلفت قطيعاً من الأولاد، وماتزال بجسمها بضاضة شباب يغصّ بالجسد الساهر المتيقظ.

وأعارها رواية، وأخري، وقد كان لديه خزين من روايات الجيب، واتصلت العُرَي بينهما، وفي مرة، وقفت إلي باب غرفته، لاتجرؤ علي الدخول، تطل عليه في وهج خجل لاينطفيء يشعلها كلها بتوقدٍ غريب، تمد له يدا مترددة بكومة من الروايات.

ـ أنا خلصت الروايات دي كلها. عندك حاجة تانيه ؟.

وهو يبتسم لها:

ـ قوام كده ؟ إيه النشاط ده كله ؟

ـ أصلي بنقرا بسرعة جداً. مااقدرش ابتدي حاجة من غير ماخلّصها. لازم اخلّص اللي في إيدي قبل مانام.

وأثارتهما معا، هذه الاشارة إلي النوم.

ـ أنا كمان خلصت الروايات الغرامية اللي عندي. تحبي تقري حاجة

غير الروايات الغرامية ؟

ـ الله ! والنبي مالك حق. أنا بنقرا كل حاجة.

وهي تضحك، مع هذه العبارة المحملة بامتدادات من الايحاء، ضحكةً خافته خجِلة، كضحكة البنات الصغار في غرارة شبابهن لما يكدن يكتشفنه.

ـ أصلي مانقدرش ننام بدري أبداً. بالليل لازم نقعد نقرا، أي حاجه، حنعمل إيه.

وهي ترميه بنظرة خفية، توحي بساعات الليل.

واستطاع بعد ذلك أن يجلس معها، في حضور شخص من أفراد اسرته، عادة، إذ تأتي لزيارتهم، ويتصل الحديث بينهما، والحديث يدور في تلميحات مثيرة واعدة.

كانت قصيرة نوعًا ما، ممتلئة شيئًا ما ولكن خفيفة رشيقة دائمًا. وهو يلحظ، باستغراب طفيف، أنها دائما تتحالي له، وتتخذ زينتها ـ مامعني ذلك ؟ من أجله ؟ غير معقول ـ وأن وجهها تحده تلك الخطوط النقية الخالصة، تأسر عينيه، وتذكره بالجواري الشرقيات في الأفلام الامريكية والجواري الفارسيات في ألف ليلة وليلة. شعر ليليٌ عميق كثيف، وعينان تلمعان كأن فيهما وحلاً طريًا أسود، لزجًا تحت ماء قليل مُرقرق، وحدود الوجه قاطعة جريئة حاسمة، فيها هذا النبل وهذا العناد،

وهذا التوقد أيضًا في العزم والرغبة.

وكانت تثيره فعلاً، بشفتيها اللحيمتين وثدييها الكبيرين، وهاتين الساقين المدورتين القصيرتين، ولبسها المحبوك على جسد فوار. وكانت تسليه أيضًا. فاقتطع مرة قصاصة من جريدة، عن قصيدة حب قصيرة، ووضعها لها في رواية، مغامراً بنفسه، محتاطًا مع ذلك. فالقصاصة المنسية في رواية لاتدين أحداً، ولا تعني شيئًا إذا اقتضى الأمر، وهي مع ذلك واضحة المرمي، إذا كان الجو مواتيا.

وأتاه الرد بأسرع مما يتوقع، وبشكل أدهشه، بل كاد أن يزعجه. كتبت له على الفور ورقة جريئة تناديه فيها بحبيبي وتلوم عليه أن أرسل لها قصاصة مطبوعة من جريدة، لاتكاد تعبر عن شيء. لم لم يكتب لها يشرح لها أهو يحبها كما تحبه. لقد حاولت أن تخفي عن نفسها هذا الغرام الذي يشتعل في قلبها ـ هكذا قالت ـ ولكنها مضطرة الآن أن تبوح فلم تعد تطيق الكتمان وهي ترسل له قبلاتها وتتمني لو بادلها هذا الحب الذي عرفته أخيرا، حبها الوحيد الذي ملك عليها حواسها وقلبها بعد طول انتظار ـ أو كما كتبت له.

ولكنها كانت حريصة أبدا، فيما يري، فلم توقع على رسالتها باسمها، بل بصلبان متقاطعة، هذه الصلبان التي تقوم مقام القبلات، كما يبدو ، في اصطلاح العشاق.

وراعه هذا التطور السريع المفاجيء، كأنه لم يكن ينتظره في الحقيقة. هذه الأشياء لا تحدث إلا في الروايات. وهاهي ذي تحدث له، مع ذلك. لكنها متزوجة، ولها أولاد. هذا صحيح، ولكن ماذنبه في ذلك ؟ أينكص الآن بعد أن قطع هذه المسافة في مغامرته، أو بعد أن سارت به المغامرة هذه المسافة ؟ وهاتان العينان المرميّتان عليه بطين عميق لذيذ ؟ وهذه القوالب الطرية المطواعة في جسد خبير دفيء. ؟

لم يتردد كثيرا فأرسل لها إجابة سريعة. والبريد الآن قد أصبح سالك الطريق ممهدا، بين صفحات الروايات، فلم يكونا يستطيعان الحديث وحدهما. ودعاها إلي السينما أول مرة، كتابة، إلي فيلم أمريكي، حتي يتجنب شبهة أن يراها أحد من أقاربها أو من معارف زوجها، فهؤلاء جميعا لايرتادون إلا السينما المصرية.

وجاءت متأخرة، ودخلا القاعة في تلك العتمة المواتية الرفيقة بالهاربين.

وكانت تنتفض فعلا أول جلستها، من حسّها بالخطر وقربها منه علي مقعدين متلاصقين، وحدهما في ذلك الجو المثقل بالصور الباهتة البعيدة عن الشمس، وعن الشارع. وكان يسخنه حسّه بجسمها قريبا منه ويشعر بوجهه وأذنيه متوهجة كلها. والعرق الخفيف علي وجهه، وهو يحمد للظلام ستره ومؤامرته. وذهبت يده تتلمس ذراعها الغضة في العتمة

وتعتصر ساعدها المكشوف علي جانب المقعد، تفركه في تماسك متلهف، ثم انحدرت علي فخذها تتلمس طراوته من علي الفستان الرقيق الناعم، وتمشي حتي تقع فجأة علي الركبة فتنزلق تحتها، وتغوص بين اللحم الدافيء الطيب ومقعد السينما الجلدي، وتَدخُل بينهما، ثم تطمئن حينا هناك وادعة، ناعمة بحس الجسد تحت نسيج الشراب الذي يلف أعلي الساق لفة وثيقة شفافة حنانة، ثم تستأنف يده تجوالها واستكشافها، فاذا يدها تمسك بأصابعه فجأة بعنف متشنج، كأن إثارته لها قد بلغت حدّها. وتتشابك اليدان برهة، في عناق متلوٍ متراكب بين الأصابع المتقبضة. ثم يأخذ يتحسس بطن يدها المكتنز وأصابعها القصيرة السمينة، حتي تقع أصابعه فجأة علي حلقة معدنية صلبة، خاتم الزواج. لكنه لايتردد في أن يداعب أصبعها حول الخاتم، يديره حول إصبعها ببطء ويتحسسه وهو يبتسم في العتمة ابتسامة راضية ظافرة رخيصة، يقبّل رخصها ويحس حقارتها، ويشرب من متعتها.

ـ عجبك الفيلم ؟

فترمقه بنظرة متوقدة ثقيلة.

ـ وهو انت خليتني أشوف حاجة منك لله.

فيبتسمان معا. وابتسامتها خجلة مرتبكة مذنبة. وابتسامته واهنة، ولايرد، وهما يسرعان بالنفاذ من بين جماهير الخارجين من الدار، ويسيران في الطريق الفسيح، في عتمة أول المساء كأنهما مع ذلك يسيران في حرش مخوف، يتكلمان ويرمقان أركان الشوارع في خشية

من مقابلة عارضة قد تودي بهما، ويتحدثان حديثا متقطعا عن الفيلم، وهما يُعدأن خلف الحديث المعاذير والحجج يدبرانهما للرجوع، ويهيئانها حيطة من الانكشاف، تعلة أمام الأقارب أو المعارف، أو تبريراً أمام الزوج نفسه، إذا اقتضي الحال. هذه الاحتمالات القابضة كلها ماثلة في حديثهما الخافت، وهما يمثلان دور العاشقين.

هو ـ علي الاقل ـ لا يريد منها إلا حسه بهذا الجسد الناعم الذي لاشك يحتفظ بذكري مداعبات زوجها، وغَيْره ربما، من يعرف، واقتحاماته هذا الجسد الذي لاشك قد ناء ـ كم مرة ـ تحت ثقل ذكورة متملكة هاجمة نفاذة مخصبة. ويثيره هذا الجسد مع ذلك، في تقزز خلقي، من نوع ما، ويجتذبه ببشاعته نفسها، فلا يملك أن ينتزع نفسه من عجينتها الموحلة، بل يشتهي أن يهبش لها مااستطاع من متعة، حتي لو كانت تَقْلِب أحشاءه.

وكانا يسيران معا مرة علي الكورنيش، في ظُهر حار، ينشقان ملح الهواء البحري، وهي يرهقها عرق المشي تحت شمس قاسية لاتكاد ترقق من حدتها هبّات النسيم النهاري، وهدير الموج لايحمل معني.

وكانت تسير إلي جانبه، وهو لاينظر لها، تحكي له عن نفسها. اشترت له قلم حبر هدية، فاكتشفه زوجها في حقيبتها، واضطرت ان تكذب قائلة له إنها اشترته له هو ـ هكذا، دون مناسبة ؟ ـ ولم لا أليس زوجها ورجلها ؟ وقد لاحظت أن قلمه قد أصبح قديما.. إلي آخر ذلك.

وكيف كانت مضطربة، كانت في حقيبتها رسالة له تصاحب القلم. ورعبها أمام احتمال الفضيحة، ولكن الله سلم ولم ير زوجها الرسالة، في سروره بهديتها. ومع ذلك، ماذا يهمها ؟

ـ كنت طلعت عندك، وقعدت معك في أودتك. بعيد عن الناس. بعيد عن كل حاجة. مش كده، مش أجمل إننا نقعد مع بعض. كده علي طول ؟

ونظرتها تتعلق به، في الظهر، في وجد.

هذه الصورة الرومانتيكية العجيبة، كيف تبعثها له، وتبث فيها من حياتها، هذه المرأة المتزوجة ذات الأولاد ؟ كيف يمكن أن تتكلم علي هذا النحو ؟ أي نوع من الحياة الوهمية الآتية من الروايات ؟ في غرفته معه، علي طول ؟ وأسرته، وأسرتها، والناس ؟

وذهنه واضح صاف تؤوده هذه المشكلة طول الوقت. مشكلة أنها تتكلم علي هذا النحو، لامشكلة أنها تهرب معه، فما هناك شبهة احتمال في ذلك، ويلوذ بالسكات من تعذيب هذا الزيف الذي يستشفه في لهجتها الطفلية، وهي تلثغ إذ تحدثه، ويلاحظ ذلك لأول مرة، لدهشته، كصبية غرة هاربة من المدرسة، وزيف هذه العلاقة بينهما، هذه المرأة التي تفر من حياتها، تجري إلي جانبه، هاربة بكنزها المزوق من الأمل والرغبة، هاربة من عرق زوجها ومله، وهجمته التي تأخذها مُسلمة، كقطعة من أرض الجسد، يطؤها بالعادة ويمسح فمه بعد أن

يأكل، في رضي المتملك الشبعان، هاربةً من أولادها وبناتها، وقد تحددت بهم الآن شكول حياتها واتخذت قوالبها النهائية، كأنهم بضعة من نفسها قد انفصلت عنها، ولم تترك لها إلا بقية متوهجة من نار لاتعرف كيف تموت، نار لا انطفاء لها في النهاية، دون أن يبلل الريَّ حرقتها اللاسعة الأكّالة. لذلك كانت تفر إلي حلمها الجنوني العجيب التافه، وهي تستشرف طعما للسعادة لن تعرفه أبدا، ومن يعرفه ؟ طعم تلك السعادة الهاذية في رؤي احلام أولية مبهمة، مقضي عليها أن تظل احلامًا.

والحيرة تمسك به طول الوقت. نعم يستطيع أن يدعوها إلي جارسونييرة أحد اصدقائه. أي متعة ينالان في غرفة مقفلة، عليهما، هذا الجسم المختبيء خلف قناعه، ينكشف له إذن عن كنوزه اللينة، تنفتح له مخابئه اللدنة الطرية، ويغوص هو بين الذراعين المتفسختين تلفّان عنقه في حضنهما الوثير.

ولكنه لايصل أبداً إلي قرار. وتستيقظ الآن في نفسه نَفْرةٌ لاتقاوم. كيف يجرؤ بعد ذلك أن يُحيِّ الرجل، هذا الزوج الذي أولدها خمسة أطفال، أو ستة لايذكر ؟ أيبادله التحية إذن، في نذالة، جاره هذا المخدوع ؟

لايصل أبداً إلي قرار.

واستمرت بهما سورةٌ قصيرة من المقابلات التي يُخافتان بها، في

مشارب الشاي البعيدة الرومانتيكية في ذلك الجو المبتذل المثقل بالتعريضات المتضمِّنة البذيئة، المستورة مقابل ثمن. هذه المقاعد في الأركان، والمصابيح الخافتة، والجرسونات الفاهمين المؤدبين جداً، وبنات العائلات اللاتي يبدون مع ذلك كالمحترفات، شعر اكرت وثياب رخيصة ونظرات خائفة ومصممة مع ذلك، والشبان معهن مضطربون، شواربهم القصيرة المحفوفة وربطات العنق الضيقة المحبوكة والبدل المكوية المخصوصة للمناسبات، يمثلون أدوارهم المؤسية المضحكة، يهربون برغبات شبابهم المكبوتة المذعورة، يهربون بها من مطاردة الأهل وقلة الحيلة وضيقة النَفَس، ويضحكون ضحكاتهم العصبية الخافتة، ويبتسمون ابتسامتهم التي تجمد علي شفاههم في حمي من الارتياك، ولا تكاد أيديهم تعرف ماذا تفعل بنفسها. هذا الديكور السوقي كله، الفاجع مع ذلك، يدخل فيه مع صديقته تلك، يمثلان دورهما فيه، تحت نظرات الجرسونات المهذبة أكثر من اللزوم، وكلامهم الرقيق إذ يدعونها مثلا ان تأخذ جاتوه أيضا ؟ شاي كومبليه ؟ أو جلاس ؟ كاساتا، جرانيتا ؟ أيس كريم بالشيكولاته ؟ بالصودا ؟ وليس معه إلا قروش يخاف عليها، ويتظاهر بالثبات وطول الباع في هذه الشئون. ثم ينفض جيوبه ويقوم بعد أن ينفح الجرسون البقشيش السخي المفروض في هذه الأحوال، ككل العشاق الغلابة من الموظفين.

ولم يفعلها أبدا، في نهاية الامر. لم يدعها إلي جارسونييرة صديقه. وارتخي التوتر بينهما، فقد استراح شيئا إلي تردده، والي سكاته، وإلي

تحلل عزمه. لكنه لايستطيع أن يخلّص تماما من أسر هذا الجسم الممنوح، المرفوض.

وهو مايزال ينزل السلم كل يوم، يرد الباب خلفه في شدة، فتخرج له دائمًا، دافئة من نومها، بنظرتها المثقلة باللوم والرغبة.

لم يجب علي رسالتها الأخيرة. إنني طوع أمرك. أين نتقابل؟ ومتي؟ لقد بلغت الحد في صراحة رغبتها. ودماؤه تثور كلما تذكر هذه الكلمات. فلا أنام إلا إذا آويت إلي مضجعك ـ هكذا ـ فأنام أنا الأخري متخيلة أنك معي. إنها لن ترفض شيئا. الأمر الآن ملء يديه، وعليه أن يقبض علي هذه العلاقة بين كفيه، ويسوي، كيفما شاء، صلصالها الطيّع. يستطيع منها أن يصوغ قوالب شهوته الناضحة بالمتعة، إذا أراد، وأن يخلّص حياته من جفاف شوارعها ومقاهيها وحيطانها. ويستطيع، إذا أراد، أن ينتزع نفسه من تشبث الصلصال الذي يتعلق بأطرافها كطحلب مليء بعصارة ثقيلة، طفيليّ يمص من دمه المتخثر بأحلام سوداء.

هو يصمت، ويتردد في قلب صمته، بعيداً عنها. فانه لم يعد يلقاها الآن، عليه أن يسوي حسابه مع نفسه، ليس لها شأن في هذا. ولذلك لايجيب علي الرسائل. بل ينزل السلم أحيانا مسرعًا قبل ميعاده. يفلت، يهرب، ينكص، يجبن، نعم.. لكنه يواصل صراعه.

أحسّه الأخلاقي أم الخوف وراء هذا النكوص ؟ وزوجها الطيب

الواثق أم شيء لا يكاد يتبينه في نفسه هو ؟ رُعْب من جسد المرأة الناضجة، من الجسد المدرَّب الذي يخفي في طياته الدسمة أنواعا من المعرفة لايكاد هو أن يلمّ بها ؟ خوفٌ طفلي إذن يدفعه للهرب، أم قلق خلقي، وشهوة للنزاهة لا يكاد يعرف أن يقاومها ؟ أيستطيع، هو، أن يفصل بينهما، وأن يتبين نفسه من خلال هذا التشابك ؟ وما هذا الالحاح علي نفسه الآن ؟ لم يجهد نفسه، ينخلها، ويتعمقها محاولا أن يجد تفسيراً، او لعله تبرير ؟ كأنه يسوغ ذنبا ؟ مازال يري نفسه برئ الساحة. ماذا فعل، في الواقع ؟ دعوات للسينما والشاي، ومشيات علي الطريق ؟ لم تضمهما أبدا غرفة خالية مقفلة. ولم يتجاوز الأمر كله صداقة فيها شيء من الحسية صحيح، ولكن ماذا ؟ كل شيء مرجعه إلي الحس في النهاية، النظرة والابتسامة أيضا ونبرة الصوت في التحية قد تكون مكهربة بشحنة لاتدانيها إعتصارة الشفتين وامتزاجة الريق في تكهرب اللسانين المتلامسين.

وهو يستدير خلف ناصية الشارع، ولا يملك نفسه فيلقي بنظرة إلي الوراء، قبل أن يغيب، فإذا هي معلقة في شرفتها الضيقة الرقيقة، عالية لِصق حائط البيت، تقع عليها صفحة الصبح الثقيلة الساكنة، فتبدو خامدة، ثابتة، خارج الزمن، يثقلها ويشلها الرفض والحبوط.

وراعته، لأول مرة، مقدرته علي إيلامها وتعذيبها. أحس بوطأة الحرمان الذي يوقعه عليها وهو، نعم هو، الذي يفرض عليها هذا

الحرمان. ودقات ذكورته تتسارع مع شعوره بالقوة، والخوف من هذه القوة، الخوف أيضا من إساءة استخدام هذه القوة.

والتفت خلفه فرأى بنتها تجري وراءه، وهي تنهج قليلا، وتلحق به وتتلفت حولها في خوف، ثم تمد له يدها بورقة مطوية في عناية.

وسطع في ذهنه هذا الوجه البنتيّ الصغير، كأنه يراه لأول مرة. وجهٌ أسمر رقيق، دقيق الملامح، فيه عينان واعيتان حزينتان، عينان محمّلتان بفهم مؤلم فاجع، باتهام ليس موجها لأحد، بل للعالم كله، وبيأس لن يجد علاجا أبدا. وشعرها المفلفل المصفف في عناية، وثوبها النظيف الجديد، ثوب بنت مطيعة، أمها تُعني بها.

كيف تجد هذه المرأة من نفسها المقدرة علي أن تكلف بنتها ـ بنتها التي تنضج الآن أمام قسوة العالم وأمام نار مراهقتها ـ بأن توصّل رسائلها الغرامية ؟ وهي مدركة تماما أن البنت ليست بالغبية ولا بالغريرة. هذا الكائن الذي ينمو معرّضًا لكل الأخطار، مكشوفًا، دون حصانة، أمام كل الهجمات، كيف تغمسها في طين علاقات جسمها بالآخرين ؟ هذه الطفلة الأنثي تجري في الصبح وراء صديق أمها، صغيرة أمام الناس والدكاكين، نحيلة أمام الترام الذي يصطك بقضبانه القوية وصلصلة حديده وزحمة الركاب فيه، تمد إليه يدها، كأن في حركتها ضراعة صامتة، ونداء غير واضح.

«حبيبي

«انتظرني اليوم الساعة الخامسة والنصف أمام البوستة»
«أيها القاسي المجرد من الحنان. اني وعدت»
«نفسي ونذرت ألا أعاتبك أبدا ولا ألومك علي»
«هجري ولا علي شيء، وإن ازددت جفاء وصدا ولا أعترف»
«بشيء من حبي الذي يشتعل كنار محرقة»
«هذه الليلة اشتد سعير قلبي بالرغم مني»
«سأخولك أسرار قلبي العاشق. فقط أريد أن»
اراك اليوم ياحبيبي. وبعد ذلك سأصمت»
«ولا أتكلم، ايها الحبيب العنيد»

هذه اللغة التي تأخذها من الروايات، وتلاحقه بها، أهي حقا تعبر عن لهفتها له ؟ أفيها الحب الصادق الذي يريد ؟ وما الحب الصادق الذي يريد، علي أي الاحوال ؟

ومن الآن لايملك أن يرفض. لن يدعها بالطبع واقفة أمام مبني البوستة، بالقرب من البوابة الحجرية العتيقة، والناس تدخل وتخرج، والفراشين، وباعة الظروف والجوابات وأقلام الرصاص يتغامزون بها. كأنها إذ تضع نفسها في هذا المأزق، ترغمه وتقسره علي أن يمد لها يده، فيأتي. تربطه بمعني من الرجولة ليس بوسعه أن ينكص عنه، علي الاقل. ففي ذلك خسة لا يقبلها أبدا علي نفسه. وكان نور آخر العصر يسقط علي جسمها المحبوك أمام الجدار العريض القديم، وهي تمسك

بحقيبتها مسكة عصبية متوترة. ومياه ذهنه تضطرب وتصطفق في دوامة تخبط وجهه من الداخل، هل يقرر اليوم أمره ؟ أيأخذها إلي شقة صديقه في الرمل، أم يدعوها للشايِ في مكان ما، يتحدثان حديثهما المتقطع المحرج، ثم يودعها إلي غير لقاء ؟

أخذ بذراعها وسارا قليلا وهما يتبادلان عبارات التحية المؤدبة، وفكرهما بعيد عن هذه الكلمات التي تعبر الهوة المحفورة بين جسميهما القريبين، علي أرصفة الشوارع. ونحل نور العصر، واشتعلت مصابيح الشوارع تشع ضوءها الأصفر في تراب الغروب المعلّق حول كراتها المنيرة تحت سماء مغبّرة حزينة. ودعا إليه سيارة أجرة ودخلا وأقفل باب السيارة عليهما وألقي إلي السائق باسم محطة في الرمل،

ورد زجاج النافذة التي تفصل بينهما والسائق، فسقط عليهما فجأة جو حميم مغلق من بطانة السيارة الجلدية الوثيرة. والسيارة تقوم مسرعة في المدينة التي خفتت أصواتها من وراء الزجاج، كأنها عالم وحده يجري إلي مصيره الخاص، عالم غريب عن شوارع هذه المدينة وأرصفتها ومارّتها الذين يظهرون ويختفون مثل دُميً تهرول وتلوح وتشوّر بأيديها وتفتح أفواهها بلاصوت.

وتزحزح مقتربًا منها بل ملتصقًا بها، وجنبه إلي وركها المقبّب الصادر من بطن يلفّه الفستان فيحبك استدارته الغنية. وامتدت ذراعه تحيط بخصرها الممتليء وتتلمس طيات جنبها الآخر، فترمقه بنظرة وامقة

ثقيلة، منتظرة، كأن فيها لهفة مكتومة واطئة، كأنها قطة متكومة في سخونة انتظارها له. وارتفعت ذراعه تحيط بجسمها، وراحة يده تنفتح وتستقر علي جانبٍ من ثديها البعيد عنه، وقد وقعت أصابعه علي قَزْر صغير في خياطة الفستان فنفذت منه تتلمس طراوة اللحم، وتضغط هينة داعية تنادي من داخلها رداً، وتقبضت يدها علي يده الأُخري تتلمسها وتضغطها وهي تهمس

ـ السواق.

والتاكسي يجري بهما في الشوارع التي لاتنتهي، والمصابيح تتعاقب، يتعلق بزجاجها المشع تراب أصفر من نور الغروب الباهت. والتاكسي يبطئ قليلا أمام عسكري المرور، فتهبط يده إلي جنبها تنشد الحماية، من نظرة العسكري، تحت الباب المقفل، وتنفتح كفه، مبسوطة إلي أعلي، ملتصقة بأسفل الورك المستدير، مضغوطه بينه وبين المقعد، وهو يحس أنفاسها السريعة تصعد وتهبط بصدرها الملتصق بجنبه، كأنها سفينة مبسوطة الشراع تجري بها رياحٌ رخيّة علي الأمواج السُخْنة. والعسكري يمد ذراعه بشارتها البيضاء، في آخر الغروب، والمارة يتمهلون بالقرب من زجاج النافذة، ويرمقونهما بنظرات غريبة، ويلوّحون.

ثم يقوم التاكسي، ويجري في طريقه الذي لاينتهي، بين المصابيح، ويفاجئان نظرةَ السواق مثبتةً عليهما من مرآته الصغيرة العاكسة.نظرة ثابته محايدة مترفعة.

وهو ينتبه، دَفْعة واحدة، إلي هذا الظهر المعطي لهما، من وراء الزجاج، صلبًا قويًا، ساكنا، لاتهمه مغامرتهما الصغيرة في الطرقات. وهذه النظرة التي تمسح الشارع أمامها، وتسمرهما مع ذلك في داخل نطاقها، لاتفلتهما أبدا من سيطرتها.

إنه يوجه قدرهما الآن، مقابل المبلغ الذي سوف يرقمه العداد بعد قليل، ويسودهما.

حياتهما بين يديه الماسكتين بالعجلة في حزم، في شيء من الاستهتار قد نشأ من عادة القيادة الطويلة، كأنه يقود هذه السيارة الصغيرة التي تشق طريقها، إلي مصير غير محدد، منذ أزمان لابدء لها، منذ أزل قديم تقصر عنه الذاكرة. وسيظل يقودها إلي متي ؟ إلي أين ؟ هذا السائق الصموت الهادئ.

وهو لايستطيع أن يتذكر وجهه الآن. ولا يري منه إلا هاتين العينين، بلا عمق، بلا معني، جامدتين، كأن فيهما كل الأسرار. كم رأي لاشك من أسرار وحوادث ومآسٍ في سيارته. والناس يهرولون إليه فينقلهم إلي لهوهم أو موتهم، إلي الحزن أو الرقص، إلي المستشفي أو السينما أو الكنيسة أو المقبرة. يفتح لهم الباب، ثم يغلقه بعدهم، ويقبض الثمن. ويعود يقود سيارته. وهو لايستطيع أن يتذكر الآن وجهه. إنه يذكر أنه رأي غضونا في وجه حليق، رأي شابًا بهذا الشباب الذي لايأتي عن الحداثة، كأن الزمن يقصر عنه، ولا تمر به أمواجه أبداً. وجه هادئ التقاطيع هدوءاً لاينم عن الراحة، بل يأتي من البعد عن مستويات

الراحة والتعب. أين يذهب بهما ؛ وكأنهما لن يصلا إلي وجهتهما أبداً. وما وجهتهما ؛ يكاد أن ينسي الآن..

وضمها إلي جنبه بشدة كأنه يهرب من الحضور الماثل أمامه. هذا الظَهْر الراسخ، لاتبدو منه إلا عينان منفصلتان عنه، ومرتبطتان به مع ذلك، بشكل غريب ليس من هذا العالم، تطلان عليهما من مرآة صغيرة عاكسة، وتُدخلانهما في حساب طرقات المدينة كلها بمبانيها ومصابيحها ومفارقها، تدخلانه وصديقته كعنصر ليس بالتافة وليس بالقيّم، لكنه هناك، بلا تقويم، وسط عناصر أخري لاعداد لها. ولا تقويم لها أيضا.

ضمها إليه بعنف إلي جنبه، حتي استدار وجهها إليه في دهشة خفيفة وشيء من السرور واهتز شعرها فمس جانب خده، وشم الأنفاس التي تعمر خصلات هذا الشعر الكثيف الأسود.وارتفعت يده تضغط اللحم علي ضلوعها، وتجوس تحت جانب ثديها، كأنما لتدفن نفسها وتخفي سرها.ثم انحني فجأة إلي الامام، ودفع الزجاج الذي يفصل بينه والسواق، وقال له شيئًا، بلهجة مُلحّة.

ولم يرد السواق، ولم تختلج في وجهه نبرة. وظل ظهره معطي لهما، هادئًا، راسخًا، محايداً، ونظرته مثبتة بهما، وبالطرقات.

والتاكسي يجري بهما في سرعة صامتة، يحسان العجلات تغنّي تحتهما أغنيتها الرتيبة وهي تكشط أسلفت الطريق المصقول. والمصابيح تجري إلي جانبيهما، ولا تنتهي، محدّقة إليهما بعيونها المنيرة البيضاء التي لاتري. وفي السماء حمرة مترية.

فى داخل السور

ـ هنيّه... هنيه.

استيقظت علي الصوت الوهنان العجوز، المثقل بحملٍ من حنو الأم وضعف السن وحياة طويلة متعبة. والصوت يأتيها من الباب الموارب، عبر جو الغرفة وعتمتها الصباحية الهامدة، ونور الشارع يرتعش علي الجدار، مخففًا متميعًا مجرداً من حدته، ومازال في الغرفة كلها نَفَس الليل وزهومته الدفيئة المحبوسة المشبعة بريح النوم.

وهي تتقلب علي المرتبة القديمة، وتلف حول وركيها الغطاء الخشن المريح وقد اكتسب من طول التفافه بجسمها قربًا منها كأنه أصبح بضعة حميمة من جسدها، وهي تحسه يحيطها كما لو كانت تأتي بذراعيها حولها وتثني ساقيها لتضغطا علي ثدييها، فتنعم بالتفاف أطرافها حول بعضها بعضًا، وتقفل جسدها علي نفسه، آمنةً إليه وادعةً به، مستريحة

إلي حسه المألوف الطيّع، لاخطر فيه بل لحظة من الأمان والحب، فتندفع، في متعتها بنفسها، وقد التفّت في البطانية الوثيرة الخشنة، تدفن فمها وذقنها في حجرها، وشفتاها تمسان ركبتيها وفخذيها، وقد غرق وجهها في جسمها، واطمأن في موجة صاعدة دافئة لدنة القوام من لحمها، فلن يتأتي لها أن تحس أبداً بهذا القرب وهذه الطاعة وهذه اللذة السهلة المشبعة من شيء، ولا من أحدٍ أبداً. لاشيء، يشبه ذلك، لاشيء أبداً يقرب من هذا الاندماج البحت التام. فإن الانفصام موجود في كل السَكْرات الأخري، والشرخ موجود، يصدع كل تحقق وكل وفاء.

حتي أمها، تلك التي توقظها الآن، وقد أوهنتها السن، فهبطت بصوتها إلي حنو عجوز يائس مجهود.

ويقبض الآن علي قلبها مسٌ رقة بنتٍ تحب أمها، وتشترك معها في مشروع خطر يكاد يشفي علي الجريمة. وهي تشفق عليها من التهديد الغامض الذي يحوم حولهما معًا، غير محدد وغير معروف، لكنه مترصد بهما في الخارج، حولهما، وفي نفسيهما أيضًا.

لكن أمها مع ذلك بعيدة عنها، شخص آخر. وخطوط الشيخوخة التي تشقق جِلدة وجهها الطرية، وتميّع عينيها المشتتين الوانيتين، وتجفف هذه القبضة من الشعر الأملح الذي يتعلق برأسها فتخفيه في منديلها الباهت القديم، كل ذلك يضع بينهما بُعداً لايستغرق، ويعطي لحنانها نحو أمها عمقا آخر، كأنه حملٌ من معني رسالة تأتيها من شخص يحبها، لكنه بعيد يقطن بلاداً أخري.

وغطت في فرشتها، ثم تكورت في حركة مُترفة، ورفعت وجهها من بين وركيها، ودفعته مغمضة العينين، وهي ملفوفة في ملاءاتها، إلي حضن مخدتها الندية السخنة من طول التصاق خدها بها في الليل، ونشقت من بين كثافة المرتبة والمخدة، تحت الأغطية، ريح جسمها الشبعان من النوم والدفء، ريحا معجونًا بتقلبات اللحم وعصارات الليل، ثقيلة حريفة دسمة بدسامة الأحشاء والشهوات المدفونة، نعم ليس لها إلا هذا الجسم وما يحتويه، هذا الجسم الذي يملأ العالم كله،فلا يوجد أبدا شيء خارجه، الحجرة والشارع والناس والسماء، ليست كلها فيما تحس ـ إحساسها الغامض الثخين ـ إلا أبعاداً تحد جسمها وتنتهي علي حدوده. فليس يوجد ثم خارج لهذه الحدود، والعالم كله إنما يقع داخل خطوط هذا الشيء الذي لها، وهو كل مالها، لها وحدها، تلفه بالملاءات وتنشق ريحه الزهمة السخنة وتتمرغ في طياته الداخلية.

ولم يوجد أبدا شيء فيما يعدوه. زوجها الذي كان يأتيها في ليله خشنًا جافًا أوشك علي مقاربة الكهولة، وعرق ذكورته الشائخة ممتزج برائحة البصل النيء وتراب المخازن وعفص شوالات الخيش الجاف، فقد كان الرجل تاجر بصل، حتي زوجها لم تكن تحس اعتداءاته عليها اقتحامًا لنفسها، بل ماكانت تحس به تقريبًا، إذ ينهج فوقها ساعات طويلة كأنه لن ينتهي، مجهداً تتتابع أنفاسه القصيرة الخشنة من الدخان والأفيون والبلغم القديم المتشبث بجدران صدره. فكانت ترقد تحته

لاتحس إلا تعبًا قد فقد حدته حتي لم يكد يصبح تعبا، محايدة، بعيدة، كأنها ترقب جسمها وما يقع عليه من نقطة أخري، لاشأن لها به ولا بما يحدث له، حتي ينتهي الرجل من مكافحة شهواته العنيدة البطيئة التحقيق، ويقذف بما اعتصره من عمق حقويه من نزوع لزج، وينحدر بجانبها جثة لرجل ضئيل غير مهم، فتمسح بلله عنها وقد كادت تقع في النوم، وليس عندها إلا شيء طفيف من إشفاق علي هذا الكائن المهجور الذي يأوي إلي جنبها، تحت ذراعها، رأسه الساكت المغمض العينين يكاد يقع علي ثديها، مُستَنْفَدا، نشف كل حياة عنه، شيئا جافًا من العظم القديم، كأنه قد مات.

وقد مات فعلاً، منذ سنتين. ولم تستطع أبداً أن تحس أنها فقدته. فإنه لم يكن لها في أية لحظة. وعندما رأته في ملاءات موته، ناشفًا ضئيلاً عجوزا مقددا، علي شفتيه رغوة قليلة باهتة البياض، لم تشعر إلا بشيء طفيف من إشفاق، وهي معزولة عنه، ترقبه من بعد سحيق.

ورجعت إلي البيت، بيت أمها، وقد كان لها إبراد صغير من بضعة قراريط، واستأنفت حياةَ بنتٍ أرملة في الصعيد، مقفلاً عليها بين الجدران القديمة، تروح وتجيء بين الغرفة علي السطح والمطبخ فوق السلم.

لكن جسمها كان يتمرد بها، وجنبات العالم تنبض بتطلّب لا إسكات له. ودَفَعها هذا التمرد الغامض لمطالبها الخفية أن تفعل مالم تكد تفعله بنت في العائلة، في مثل موقفها، وحجتها أنها لم تعد بنتًا بعد.

كانت تخرج إلي الزيارات مكشوفة الوجه، كنساء الموظفين الحضريات، كبنات المدارس من الجيل الجديد. وثارت علي هذه البرْدة التي تتلفف بها النساء في البلد، من الرأس إلي القدمين ويخرجن بها إلي الشوارع لاتكاد تظهر منهن إلا حدقات الأعين اللامعة في هذه الخيمة الفضفاضة المتحركة السوداء، كأنهن أشياء محظورة تتحاماها الأبصار، كأنهن موضوعات تابو تتجسد فيها قوي غير إنسانية مخيفة.

ولم يكن ذلك خطيراً - وإن كان مازال مهمًا - في البلد. ففيها يصح أن تري زوجات الموظفين وغيرهن في ملابسهن الأوربية، عليها مسحة من إقليمية، صحيح، لكنها حضرية في نهاية الأمر لكن الخطير حقًا أنها كانت أحيانا تأتي بهذا الزي إلي القرية، حيث تقع أرض العائلة. وقد كان في ذلك فضيحة وأية فضيحة، لكنها عنيدة وقد ركبت رأسها فلم يفلح شيء في ثنيها. وليست العائلة - وهم أقباط - من الفلاحين تماما، بل يقومون بالتجارة والمزارعة ويرسلون أبناءهم إلي المدارس والكليات، وقد تخرج وعاش منهم في القاهرة أطباء ومهندسون وصيادلة، ولكن البلد هي البلد. وما كان يصح أبدا أن تأتي ذلك، هنية. وحتي زوجات الأطباء والمحامين من العائلة ماكن ليجسرن علي تحدي قانون البلد هذا : ألاّ تخرج المرأة، في الصعيد، وفي القرية خاصة، إلاّ ملففة في أغلفتها السوداء الشاملة.

وحتي المحامين من العائلة، وكبار رؤوسها، وهم قوم مثقفون، ما استطاعوا أن يبلغوا إلي إقناعها شيئا. ففي عينيها لمعة تحدٍ، ومتعة بهذا التحدي، وعلي شفتيها الرقيقتين الضيقتين شيء يتلاعب بأطرافهما كأنه سخرية خفيفة، كأنها تعرف ـ وهي التي لم تكد تكمل تعليمها الابتدائي ـ أشياء لم يجسر أحد من هؤلاء الناس علي معرفتها، وتواجه في معرفتها تلك حقائق يفرون منها دائما. وهي في حركتها العصبية المستوفزة، وجسمها الصغير المتوتر بحدته التي لاتكاد تخمد، وضحكتها الجريئة، ومشيتها الواثقة الرشيقة الأنثوية، تفحمهم جميعًا، لا بالكلام بل بمجرد حضورها وتدفق حيويتها، لابل هي تثير فيهم دائما خوفًا وقلقًا، كأنها تضع أصبعها علي جروح مقفلة قد رُمّت علي حساسيةٍ غير مستقره، فتمسها وتؤرثها وتكاد تفتحها، تكاد تفتح فيهم أبوابًا قلقة علي تيارات كانت حياتهم كلها مجهوداً متصلا لقمعها. نظرتها اللامعة اللامبالية ـ نظرة قطة فرعونية ـ من عينين سوداوين مفتوحتين علي آفاق من الجسم تريان كل مافيه، ولا تريان عيبًا فيه، وجسمها كله الذي يعرف نفسه ولا يخاف من نفسه، ذلك هو الخطر الذي كان يتهدد هؤلاء الناس فيغمضون عنه أعينهم، ذلك هو الخطر الذي كان يحيق بها أيضًا، ويرود أطراف حياتها.

ومعرفتها الخاصة الخفية لم تعد اليوم سراً، فقد تناهي إلي العائلة،وتواتر بين الناس، خبر علاقتها بهذا الفلاح المسلم الذي كان

يزرع لهم قراريطهم في القرية. والاشاعات ملحة لاذعة تطن حول الرؤوس كذباب عنيد.

هل يبيت هذا الفلاح ليلته، حقا، في بعض الأحيان، بالبيت ؟

مستحيل، وأمها.... ؟

هل يُري، صحيح، وهو يخرج مع الفجر من الشارع الضيق في البلدة النائمة ؟

وما سر انتقالاته المريبة من القرية إلي البلدة، وتردده الكثير علي البيت ؟

للحساب ؟ ومناقشة أحوال الزرع ؟

لمَ لايذهب إلي كبار رجال العائلة الذين كانت مهمتهم دائمًا أن يتولوا هذه الأمور؟ لمَ يذهب يناقشها مع هاتين المرأتين في بيتهما الضيق المعزول ؟ هل هو يذهب حقًا ، علي أيه حال، كما تصرّ الأقاويل أنه يفعل ؟

الأم، بصوتها الواني المجهود، تنكر كل ذلك جملة. والبنت لاتكاد تسمعهم حتي تضحك ضحكتها العصبية تلك المثيرة، وتنفي كل شيء في استخفاف، فتزيحه عنها ببساطة، ودون انفعال، اتهامهم ذاك، دون مبالاة.

ـ هنيّه، جومي يابنتي الوجت راح.

فرفعت رأسها عن المخدة، وتهدل حولها شعرها الأثيث، لم يكن أحد يدري ممّ جاءت بهذه الثروة من الشعر الأسود الصقيل الكثيف، علي

رأسها الأسمر الدقيق الملامح، كأنها بنت من مصر القديمة.

ونزعت الملاءات عنها، فدخلت نفحة من ريح الغرفة الدافئة بين ساقيها العاريتين تحت جلباب نومها الأسود السابغ، وهي تهب نازلة من علي السرير، فتقع خفيفة مرنة علي قدميها، وتحس وَبَر الكليم الصوفي الخشن يدغدغ باطن قدميها، وهي تبتسم لنفسها ابتسامة خاصة، غريبة.

ـ الساعه كام يامه ؟

نعم عليها أن تسرع الآن، فقد أوشكت الحموة أن تعلو، وقد تأخرت في الفرش.

وعندما طلعت إلي السطح، سقطت عليها فجأة سماء الصعيد، ثقيلة، مسدودة، كصفحة من رصاص أزرق كاب، لاتطاق. وقد توقف الهواء تحت هذه السماء، كأنه مشدود حتي ليكاد ينقطع في مجهود يستهلك منه آخر طاقته، مجهود احتمال هذه السماء، يتوتر تحتها، مهتزا دون لحظة راحة، تحت حمله الذي لايكاد ينهض به،كأنه عضلة تبذل كل عصارة قوتها للقيام بثقل رازح لا يرتخي عنها لحظة واحدة.

وعبرت ساحه السطح إلي غرفة الفرن كأنها تشق موجًا من الحرّ والوطأ يقاومها في ثبات مسدود لم يصل إلي توازنه القلق إلا بجهد جهيد.

ورأت أمها أمام الفرن، مُقعية ترمي إليه بالوقود، وتعد عدتها لإشعاله، تُحركها حياة صغيره منشغلة مهمومة، مطوية. وعاودها مَس

تلك الرقه المختزنة التي تداعب قلبها في لطف لاصبر لها عليه، في حساسية مرهفة مرهفة كلمسة شفرة حادة عذبة المقطع، كجرح فجائي في غاية الرقة، وحلو.

لكنها وقفت بباب غرفة الفرن، مع ذلك، تسلّم علي أمها من بعيد. فلن تستطيع أبداً أن تذهب لها، وتحيط كتفيها الواهنتين بذراعها وتقبّلها، وإن عذّبتها الآن رغبتها في ذلك. حركة مثل هذه ليست بالمألوفة بين البنت وأمها، عندنا، ولا معرفة لها أبداً بها أيضاً، لن تعرف أبداً كيف تنقل إلي أمها رسالة هذا الحنان الذي يقطع في روحها جرحا الآن، ولن تعرف أمها شيئًا وستذهب.

واستدارت تشق موجة السماء الحارة الثقيلة المتوترة أبداً باهتزاز عزم سخن مسفوح حتي آخر قطرة. وخفّ عنها حملها إذ تسير في ظل البيوت القديمة المتقاربة في شارع البلد، وهي تخطو علي التراب المرشوش في الطريق، وقد انزاح عن كاهلها لحظة، عبء حبها لأمها وعبء السماء، فراحت تذرع الشوارع الضيقة الملفوفة المتراكبة البيوت، نشطة في ثيابها الاوربية المنسرحة علي هيكلها الضيق الممشوق، وقد انشغل ذهنها بمهمتها.

بالأمس جاءها من زكري خبر يدعوها للذهاب إلي الجنينة في الغد. لتسوية حسابات الموسم ومناقشة أمور الأرض، مع بقطر ابن عمها، وشفيق.

وقد كان الذهاب إلي الجنينة، في أرض العائلة، يشوقها دائما ويثيرها. كأنها مازالت تحتفظ بسحر نزهاتها الطفلية فيها، وهي لابد اليوم راجعة بشيء من الفاكهة، هدية، وربما قبضت شيئا من حسابها وحساب أمها. وقد كان يمكن أن يأتوا لمحاسبتهما في البيت، هذا صحيح لكن فكرة الجنينة، والفسحة، والظل البليل تحت الأشجار الضخمة العتيقة وخرير المياه الطينية القليلة في الترعة الضيقة التي تنسرب، كالخيط الملتوي، من الساقية، هذا الصوت المائي الرطب في الظهر الحار المفتوح المنفسح أمام نسيم الخلاء، ذلك كله يدغدغ في أعماقها حسًا بالتشوف واللهفة، والنزعة إلي الانطلاق، ويهدهد مع ذلك مخاوف مبهمة. إنها لاتخشي هؤلاء الناس، أقاربها، ولكن تشعر أمامهم بالغربة، كأنما لايربط بينهم جميعا دم الأسرة الواحدة، كأنها لاتعرف من هم. وهي لاتنظر إلي عيونهم مرة إلا رأت عالما بعيدا مقفلا لاصلة لها به. وأرقامهم وحساباتهم وهمومهم التي لاتنتهي عن المحصول والبيع، والايجار والرهونات، لم تحاول أبدا أن تفهم شيئًا من ذلك كله، وكان يبدو لها كل هذا الهمّ عناءً سخيفًا لاضرورة له، ولا وزن له علي أي حال. وكان يسئمها ويضجرها الحساب، ولاشك أنهم يغشونها، لكن لايهمها ذلك، بالرغم من أن كل قرش لاشك، ينفع.

واجهت النيل فجأة، فنزلت من علي شارع البحر إلي رصيف المعدية التي تعبر بها النيل إلي أرضهم في الشط الآخر، ومنها إلي الجنينة.

وكان علي الرصيف بضعة أفندية يحمل أحدهم طربوشا وبذلته حائلة ، وأوراقا، ربما كان محضراً، أو من رجال الادارة أو المحكمة، والآخرون تجاراً ومزارعين وفلاحين، يجر أحدهم معه جاموسته يعبر بها النيل،ذاهبين إلي القرية التي تقع علي بعدٍ قليل من الجنينة، وامرأتان أيضًا في بِرْدتيهما السوداوين، متلففتين في سخونة الضحي العالي، مندفنتين في الأنسجة الثقيلة الحالكة، حتي لاتراهما أعين الغرباء.

وجاءت المعدية فخطت إليها، وشعرت بأرضيتها القلقة تحت قدميها تتأرجح هينة علي صفحة ماء الشط، وتهتزّ فتشعر، تحت جسمها الواقف في توازن حرج، بهذا الخطر الخفيف اللذيذ الذي يلعب طافيًا في رقة هشة لكن متماسكة، علي مياه النيل.

واذ تحركت المعدية هب الهواء آتيًا من علي النهر العريض الفسيح، ومياهه تجري تحتها في جلال ساكن، تُشعرها بشيء من الرهبة لايكاد يستبين، وقد انزاح تماما عبء السماء الثقيلة عنها، كأن في النهر سحره الالهي القديم، فإذا بالسماء ترتفع عن أكتاف الناس - طالما كانوا بين ذراعيه - وإذا صدورهم تَنْشق هواءه إلي أعماقها، رحبة منفرجة الآفاق، تمتد في داخلهم حرية ممدودة شاسعة.

وكانت المعدية العريضة تضطرب، يدفعها نوتيان بعصيهما الطويلة، والجاموسة تخور فجأة رافعة رأسها نحو وقدة الظهر تحت السماء، ثم تعود تجتر ويتساقط من خَطْمها علي خشب المعدية خيط أبيض من لعاب طويل.

وهم يقتربون من الشط الآخر، وقد بدأ النخيل والشجر في أكوامه المتقاربة يكبر رويداً ويتضح ويتحدد. ويقبض علي قلبها شيء كالخوف، مرة أخري، إذ تنتقل من عالم مألوف إلي أرض مجهولة محفوفة بالتهديدات تترصدها بين الأشجار الأثيثة التي تترقبها كعيون جائعة من عالم آخر. كأن هذا النهر سوف يلقيها، ويهجرها، وحدها، علي هذه الأرض، وسوف يسترد لنفسه ما أعطاها لحظة من حريةٍ ورحابة وامتداد فسيح في الصدر، ثم يذهب في طريقه، غير مفهوم، إلي مصيره الذي ليس من مصير الناس.

أما هي فتقع علي الشط، بجسمها الصغير الذي هو كل مالها هنا في العالم، كل مالها في أي مكان. جسمها الضيق النابض الذي تنطبق جوانبه علي جوانب العالم مرة أخري، فتخطه وتحده وتقفله. وأحست بالسماء تعود فجأة فتنحط عليها، لقد انتهت الرُقية. وهي تخطو علي تراب الطريق الذي يفضي إلي الجنينة، تهبط السماء عليها كيدٍ صلبة، تطحن كتفيها، وتكاد تغور بها في الأرض. نعم، قد تأخرت، وهاهي حموة الظهر قد عَلَت وقد عاد الجو مسدوداً، في حرارته المرتعشة، بين غيطان الذرة تحيط بها كجدران من الخضرة المرتفعة المتراكمة يعلوها التراب. وهي تكاد تشهق وتختنق في هذا الهواء المترب المشدود بين الأرض والسماء المنطبقة.

وكان الفلاحون يماشونها بضعة من الطريق، بوجوههم السمراء الصفراء، تنفتح فيها، ولما تكد، عيون مسحوقة جائعة فيها كل الحزن وكل الخَرَس وكل الشقاء الذي لم يبحث أبداً لنفسه عن معني، ولم يشتبه أبدا في وجود شيء آخر، شقاءً بليداً من طول رسوخه، هو قوام الحياة كلها. وأحست بنظراتهم تماشيها، وفيها ألمهم الجاف الصلب الذي نزل عن كل اتهام وعن كل رغبة في الفهم أو التبرير، هذا الألم الذي ليس له إطلاقًا غير ثقله الرزاح الوطيد الذي لايُطاق، والذي يستمر مع ذلك، ويطاق، دون أن ينال منه أقل أمل، ألم صرف خالص لايعي شيئا إلا ثباته الذي لايتزحزح أبداً.

ثم انشعب بهم الطريق، فمضي الفلاحون إلي القرية، وأخذت هنية ممراً ضيقًا يفضي إلي الجنينة، وارتاحت الآن من هذه النظرة التي كانت تقع عليها كأنها تقع علي حيوان غريب، غير مفهوم أيضًا، ككل شيء، فكل مايحيط بهم غير مفهوم، ولا رغبة لديهم في أن يكون مفهوما ـ حتي هذا الثقل الذي هو وزن حياتهم.

نعم، أحست الآن أنها ليست شيئًا. هذه النظرة التي ترودها، وتتخايل لها من تلك الوجوه الصفراء المسودة الناحلة، وهذه السماء الفادحة الثقل، تعود فتُشعرها أن ليس لها شيء. ليس لها حتي هذا الجسم الذي تهدّه حرارة الظهر ونبضة الإجهاد في دماء بطيئة سخنة، وهذا العرق الذي يلتصق به التراب وينضح تحت إبطيها، وفي داخلها،

بخوفٍ غير واضح لكنه يعتصر عقدة صغيرة صلبة عنيدة في نسيج أحشائها، خوف من الغيطان المتقاربة الكثيفة الضيقة المسالك، من قصص العصابات والقتل والخطف والفدية التي دارت في هذه الطرق الضيقة بين الغيطان، هجمات الرجال الذين يطبقون على فرائسهم، متحركين بعنف بدائي وحشي، بتمرد الإنكار الكلي، بالدم الذي يقامر بالسماء والأرض جميعاً في يأسٍ لم يعد يقبل الخضوع الذي لانهاية له.

وهذا اليأس، ورغبات الرجال، مازالت هناك. تحسها متعلقة بهذه العيدان من الذرة المليئة المتضامّة المكسوة بتراب خفيف. كأنها قد انفصلت عن الرجال ـ تلك الرغبات الناهشة اليائسة ـ وتعلقت بحرارة الظهر، نزوات لا ريّ لها ولا استرضاء ابدا، شهوات التمرد وجمحات الخطف والهبش والسلب والعدوان، خارجة من ظلمة أركان النفوس التي سُدت عليها كل السبل، اغتصابات اكتسبت حياة مستقلة عنيدة غير ملموسة، تبث في الظهر كله أنفاسها القابضة المتهددة اللا إنسانية.

وهي إذ ترمق الغيطان خلسة، وينوشها هذا الخوف، في عمقها، تطؤها ضآلتها فلا تعود تحس بقيمة، أية قيمة، لنفسها. وتسير إلي الأمام تتعلق بأطراف شجاعتها القديمة، تتشبث بها كخشبة في بحر غَرِقها.

وهي تسير وحدها في هذه الوحشة المصمتَة التي لافراغ ولا هواء فيها، وتشقّ هذا الامتلاء الثقيل السخن الذي لايكاد ينفتح لمرورها

حتي يوصد ثانية، أمامها وخلفها ومن كل ناحية، كأنه، إذ تتسل في قلبه، يعود ثانية فيحيط بها، لايعترف بها، وإذ تشق شرخها الرفيع فيه، يعود فيلتئم علي الفور من حولها، ينكرها، ويلفظها باستمرار، ويمحوها.

ووجدت أمامها سور الجنينة فجأة، علي غير انتظار، كأنه قام في نهاية الطريق، في لحظة واحدة، ونهض من التراب قبالتها، ضخمًا بأحجاره القديمة الصلبة لم يكد طول مر الايام أن ينال منها. كانت الجنينة ميراثًا لعائلتهم من قديم، ولعل أحد أجدادها اشتراها من أحد كبار الملاك من زمن بعيد. وكانت رصيداً من الفخر والكِبْر للعائلة كلها، هذه الجنينة الواسعة العتيقة الغنية، علي أرضها المرتفعة شيئا، بسورها الضخم المتين.

وردت لوحة الباب الخشبي العتيق فصرّ علي منصلاته الصدئة. وتركت قدماها تراب الطريق الضيق الخانق إلي فسحة من طريق واسع، تنمو الأعشاب والحلفا الشائكة علي جوانبه، تحت الأشجار الغليظة الوارفة ذات العضلات الخشبية المتينة.

وكانت الحديقة خالية، صامتة، واسعة، تتبدي في نهايتها، من بين جذوع الشجر المفتولة والسامقة، أحجار السور العتيقة المحملة برسالة لغزية لاتنطق. وارتفعت من أشجار اللبخ المشوقة، فجأة،صرخة غراب يفزع إلي السماء، وأجنحته تصطفق.

ودارت بنظرها في هذا الامتداد الخاوي. وسارت إلي السقيفة في آخرالجنينة، وهي تحس أنها وحدها في العالم، وحدها حتي دون خوف، ودون أمل، ودون رغبة. وحدها تماما كأن العالم كله قد أفرغ مرة واحدة من الناس جميعا، بل كأن الناس لم يمروا قط علي صفحته، كأنهم فكرة مغايرة أجنبية لم تخطر له علي ذهن، ولم يكن من الممكن أن تخطر علي ذهنه ـ الناس ـ عنصرا غريبا عنه، لاصلة له به.

الوحشة، وهدوء الأرض التي تتنفس حرارتها المتربة الخاصة، والطرق المصنوعة كي لايمشي فيها أحد، والساقية تدور وحدها، تجرها هذه البقرة المعصوبة العينين، دون توقف، منذ أزل لابداية له، دون أن يسيرها أحد، كأنها انبثقت هناك، من تلقاء نفسها، تجوب دون انتهاء خط دائرتها المقفلة المتصلة.

وكانت هي تسير نحو السقيفة تشعر بشيء كأنه سلام الرضي والتسليم وقناعة بهذه الحديقة الواسعة المهجورة منذ الأبد، بأشجارها العتيقة الملفوفة العضلات، وطرقاتها الفسيحة الترابية، وأرضها غير المستوية، وأكوام ترابها، ونخيلها السامق، والمعوج، وسمائها البعيدة الزرقاء المحايدة، وهذا السور الذي ينتهي عنده كل شيء.

وانحرفت، وهي تسير كأنها ليست هناك، نحو السقيفة التي ينتظرها فيها أقاربها. بقطر، ابن عمها مباشرة، يكبرها بعشر سنين، وهي تعرف ذلك، وتحفظه، كأنها تجد فيه شيئًا من الفخر، وصلة أخري تربط

بينهما. وكم هو قوي متين الأسر، فيه تلك السمرة الرائقة، ولخطوط وجهه استقامة وصرامة وفي عينيه نظرة ثقة وتملك، فارع الطول، ونزيه. وهو أبرز رجال العائلة وأنقهم سمتا أيضا. وهو الوحيد فيهم الذي لم يكد يكلمها بشيء في موضوعها ولم يكد يوجه لها سؤالاً أو نصحا أو لوما، أكثرهم قصدا في كلمته، وأكثرهم إدانة لها، بنظرته المتغلغلة التي يسودها به، ويحيلها أمامه إلي شيء صغير. وهو الوحيد أيضا الذي تستشعر أمامه هبوة من الخوف تتطاير في نفسها، وإعجابا فسيحا.

أما شفيق فكان قد رجع من الجامعة منذ سنوات، وهجر ملابسه الأوربية، واطمأن إلي بيته وأطيانه وجلبابه الواسع، واكتسب لحما رهلا يحيط بكرشه وذقنه، وهو يكاد يكون ناعما، وتقاطيع وجهه بسمنتها وبياضها رخية دسمة، تتألق فيها عينان صغيرتان نائمتان. وقد كانت تحس عينيه مع ذلك تعريانها، دائما، تشتهيانها وتحومان حولها، تدوران علي سطح جسمها، دون جرأة علي لمسها أو الدخول إليها. كانا ندّين من عمر واحد. وكانا ـ قبل أن يذهب إلي القاهرة – في الطفولة الباكرة، يلعبان معا. لكنه تزوج تلك النحيلة المصوصة، لأطيانها. وتركها تقع إلي زوجها الشيخ، وأمن إلي الدعة والراحة في بيته الكبير، والي ليالي السكر التي لاتنتهي إلا مع الصباح. وهو إذ يأتي موضوعها، عصبي يتدفق بالثورة والتهديدات.

يبقي زكري. رأس العائلة فعلا وأكبر رجالها المعدودين سنا ومقاما. وهو لاينتهي من أعماله : تأجير ومزارعة وإدارة ووكالة، ولايزال رائحا غاديا يهد الأرض تحت قدميه الغليظتين، بجسمه القصير السمين. لكن شخصيته القوية تنتزع الاحترام، وحيويته لاتنفد ولا تهمد، وصوته الأجش المبحوح فيه عمق من ذكاء، وهو لايحول عينيه لحظة عن المصلحة والمكسب. وهو أرقّهم لها حديثا إذ يكتسب صوته تلك النبرة الأبوية الملاطفة الوقور، وينصح لها ويدعوها أن تراعي علي الأقل ما يتقوّل به الناس، ومركز العائلة. والمسيح والرب يدخل ويخرج من حديثه، وشرف الآباء، وموقفنا كأقباط، يرفرف كالعلم عاليا فوق كلماته المبحوحة التي تسقط في النهاية إلي الملال ومايشبه اللامبالاة.

سيحاسبها الثلاثة، كل فيما يتعلق به، عن محصول الموسم. نعم، وستنتهي من الحساب سريعا، وتخرج تجمع رمانتين وسباطة بلح وترود الجنينة وحدها.وتشم هواء العصر.

ودهشت قليلا، قليلا جدا. من أنها لم تلحظ السقيفة قبل الآن، هذه الحيطان العريضة المنخفضة المكسرة الأطراف تغطيها فروع من النخل الجاف، وحصر وأعواد حطب القطن المجدولة المرصوصة. لم تلحظ أن السقيفة هي هذه الحيطان المنخفضة المكسورة.

ودخلت السقيفة دون أن تلقي حتي نظرة أخيرة علي الثروات المهجورة التي تخلفها وراءها، هذه الاشجار والنخل، نازعة نحو السماء

بلا جدوي، وهذه الساقية تدور دون توقف، دؤوب مستمرة صامتة منذ زمن لا تاريخ فيه.

ودهمتها إذ تخطو إلي الداخل عتمة خفيفة مشبعة برائحة التراب، والظل الرطيب.

وجابهتها المسوخ الثلاثة في العتمة البليلة الترابية. وتجمدت نفسها علي الفور. وفارقتها كل مقدرة علي العمل، حتي علي المشي خطوة واحدة أيضا، وقفت علي الباب، ولم تعد تملك لنفسها شيئا. كأنها هنا أيضا ترقب نفسها من بعيد.

وكانت تحيط بهم جميعا رهبة نهائية قاضية لافكاك منها. شفيق بعينيه اللامعتين في وجهه الدسم المندي بعرق خفيف، كأنما سوف يغتصبها الآن بعد طول انتظار. وزكري بعيد كبرج خلفي من هذا الهيكل المنخفض الضخم الثابت القديم الذي يواجهها الآن، والذي عليها أن تدخله. ويقطر هو عود هذا الصرح، وقد وقف في غير تعجل، وألقي بسيجارته إلي الأرض في حركة هادئة. وهب شامخا كأنه كاهن فتي قوي في كنيسة عتيقة أثرية وبوجهه الأسمرنبل مصمم صليبي به بشاعة الحكم، وحتمية لا انحراف عنها، لا مفر أمامها، لاتخطر بالذهن أمامها، علي الاطلاق، فكرة الهرب - فهي تسحق، دون أدني جهد، كل مقاومة، وتقبض علي ماهو لها منذ البدء في ملكية واثقة نهائية.

وسمعته يقول كأنها في حلم، من آخر هذه العتمة التي تتضح لها قليلا قليلا في نور غريب :

ـ تعالي ياهنيه.

ولم تستطع أن تفتح فمها، ولا أن تحرك قدميها، وخيل لها أنها ستنهار الآن، في أية لحظة، زايلتها كل شجاعة كأنها لم تكن أبدا تلك البنت الجسور الساخرة التي تخط طريقها بنفسها في وسط المدينة، وبالرغم من الجميع. لكنها لم تقع، وهذا الانتظار الحميم يشغلها عن كل شيء انتظار أن تقع الآن، هذه اللحظة، علي الأرض. لكن اللحظات تمر، وهي لاتقع بل تقف معلقة أبدا علي حافة الوقوع، مهتزة في توتر يستنفد منها كل طاقة، وليس في مقدورها شيء علي الاطلاق.

ورأته يقترب منها بخطوات واسعة ليس فيها حدة، بل واجب، ورأت تقاطيع وجهه قريبة فجأة من عينيها، مكبرة ألف ضعف، وفي نظرته تصميم لاعمق له، وأحست حركة مضطربة، واذا بيدين تقبضان فجأة علي يديها، ويدين تقفلان فمها، ويدين تطبقان علي عنقها، وإذا فمها ينسحق فجأة علي صدر قوي، فتسد شفتاها إلي الأبد، واذا بيدين تأخذان رجليها، فترتفع مرة واحدة عن الأرض بين أجسام الرجال، مغلولة فجأة في شبكة من الأيادي والأصابع القوية. تحيط بها كلابات حية غائرة في كل أطرافها، والأذرع والصدور سلاسل وجدران قابضة مطبقة.

عندئذ، في لحظتها تلك الواحدة، انفك الاسر الذي كان يشلها من الداخل، وانبثقت في أحشائها نزعة حارة نحو الحياة، لهب كاو مشرق غير عاقل يحرق داخلها شوقا إلي البقاء توقا إلي الاستمرار، رغبة في مواصلة امتلاك هذا الجسم الذي يقع الآن أسيرا في أغلال من الأيدي القابضة التي لن تنفك. وهي الآن قد انفجرت كتلة متخبطة متملصة من الأطراف والعضلات الحية تناضل بين هؤلاء الرجال وتبذل مجهودا لم تكن تعرف من أين تستمد القوة عليه، في تصميمها علي التفلت، في عزمها علي الانطلاق، في نزعتها التي لاترد إلي الخروج، تحت السماء، إلي الانفلات من هذه الأذرع والصدور. الانفلات. الانفلات.

وصوتها الذي تريد به أن تملأ جنبات العالم لاتخرج منه إلا حشرجة تختنق في عمق حلقها ويداها تكادان تنكسران في يدي زكري هذا الذي يضغط ظهرها بكرشه حتي يتملكها تماما. وضغط هائل متركز في أصابع من الحديد يقبض الآن علي عنقها، وهي تحدق في وجه بقطر الأسمر العنيف المكبوح النافر العروق الذي لم يعد إنسانيا في جهده الضخم المبذول، جهد كل جسمه وجهد يديه المعتصرتين، بل كل أجسام الرجال في كل الأراضي في كل الأزمان، جهد كأنه يأتي من جسم العالم كله، وهو يطبق عليها، يسد مسالك التنفس عليها، يخنقها دون هوادة ويتزايد كل لحظة، ويثقل وطؤه ويطبق ضغطه. وهي تحس فجأة رِجْلين تنفذان بين ساقيها العاريتين المعلقتين، من الداخل، ويدين

تضغطان علي كاهليها في مسكة متوترة كأن فيها ثملا غريبا مميتا، وهذا جسمها الذي تريده بكل قواها ان يتمزق مفلتا، يستسلم الآن بالرغم عنها لضغط متملك، من جسم آخر طالما عراها بنظرته، يستسلم له كأنه يقبله ويعنو له.

لكنها ماتزال تصرخ، ولا صوت يخرج منها، صرخة صامتة تهد جنبات العالم، وتتفلت في تمرد لن يقبل أبدا ولن يخضع أبدا. وتخبط بقبضتيها المغلولتين علي أحجار سور لن يستسلم لها ولن يخضع ولا تني مع ذلك تخبط عليه وتدقه وتحطمه، لكي تنفذ منه إلي الفضاء تنطلق. وماتزال تضرب الأرض بقدميها في عناد وإصرار لن يهدأ إلي الأبد، لن يهدأ.

وأسقط الرجال مابقي في أيديهم منها، علي الأرض - وخرجوا ينشقون نسمة هواء ويشربون سيجارة، تحت السماء المغلقة المحايدة.

حكاية صغيرة في الليل

كان الليل وديعا، تُقلق سكونه أنغام رومانتيكية رخيصة بذيئة، تتراقص مع الأنوار المنسكبة من النوافذ العريضة، والهواء يلعب بالأستار الرقيقة، والفيللا قد سقطت في حضن الليل، وأمامها النيل ينطلق في جلاله القديم من وراء الشارع، بعد أشجار السور.

وكانت تقف علي باب الفيللا المطل علي الحديقة، تشيعه بنظرها وهو يعود، بطيء الخطو، محنيًا قليلاً إلي الأمام، ينظر إلي الأرض.

ثم سارت خلال الممرات التي تلتمع حصباؤها البيضاء في الليل، وجلست في مقعد في أحد الأركان، ووجهها يضوء في العتمة، كوجه تمثال يلمع ببياض خامد.

ونزعت عن عينيها نظارتها الطبية وأسندت رأسها، مغمضة العينين، إلي جذع التوتة الشاهقة خلف المقعد، وهي تتنهد تنهدةً صغيرة.

كانت الليلة عيد ميلاد قاسم بيه، عيد ميلاده الأربعين.

وكانت قد رقصت كثيراً. وضحكت كثيراً، وشربت، ثم بدأ يسري

التعب والسأم في ساقيها وروحها، فاستندت إلي حائط الغرفة ودارت بنظرها فوق أمواج الراقصين والراقصات في ثيابهم الأنيقة، وفي الجو رائحة التعب والجسد والعطر، وعَرَق الأيدي علي الظهور العارية، والأجسام الأنثوية المحبوكة توقظ في أعين الرجال شهواتها القديمة.

- هدي، أنت تعبانه باين عليك. مش تتمشي شويه في الجنينه، بعيد عن الزحمة والدوشه دي ؟

كان من المدهش، دائمًا، أن يعرف قاسم بيه مايدور بنفسها. كأن بينهما نوعا من الفهم الخاص. فنظرت إليه. وقد تحرك في قلبها شعورها القديم نحوه، شعورا هادئا عطوفا رقيقا به قليل من الضجر وقليل من الاعجاب، مزيجا من محبتي الأم والبنت.

كان قاسم بيه رجلا كأنما طردته الحياة إلي داخل نفسه، بعيداً عن زحمة الحياة في الأسواق. قضي شبابه كله يعيش في كتبه، يهرب من المرأة، كأنما هو موقن أنها لن تكون له. وكان حزينًا، كأنه لم ينسَ أمه التي ماتت عنه في الخامسة من عمره - ولكنه كان قد نسي، فعلاً. وانبسطت حياته أمامه، ممهدة مسطورة، وقد كان دائما في حمي من عنف الحياة. فعائلته ميسورة الحال، وقد انتقل من الكلية إلي النيابة، من النيابة إلي القضاء، كان قاضيا في إحدي عواصم الصعيد، يمضي الصبح في المحكمة يفصل في قضاياه بصوت متعب ملول، ثلاثة أيام من الأسبوع، وبقية وقته في المنزل، يقرأ قضاياه ويكتب كتابه في

القانون. ولا يكاد يلم بالنادي حتي يسأمه فيعود إلي أوراقه المرتبة التي لا تنتهي. وحياته تنسرب منه، كأنه لا يحس بها. حتي مرض فاستقال، وسوي أمره، وعاش في فيللا بالجيزة، يستشفي من مرض رفيقٍ هين لا يفارقه، ويكمل كتابه الكبير في القانون، منفرداً، لا تؤنسه إلا أحلام قديمة متحجرة غير متحققة.

وفي ذلك الصبح الخريفي عندما دخل قاعة المحل التجاري الرحبة، وقد شملها ضوء باهت سقيم يشيع فيه عطر خفيف، ونفح المطهّرات، وأنفاس البضائع المخزونة، لم يكن في القاعة إلا عدد قليل من المشتريات يتناقشن بصوت منخفض مع العاملات بثيابهن الزرقاء الفاتحة. ودخل قاسم بيه يمشي علي مهل، ويتلفت في حذر خجِلٍ كأنه يعتذر من وجوده.

كان يريد شيئا من الورق الأبيض لمذكرات كتابه. وشرد ذهنه قليلا وهو يفكر أن حياته كلها تمضي مع الورق. حياة صومعيّة. وأحس حنقًا قديمًا مألوفًا علي هذه الحياة التي لم يبق لها إلا أن تنتهي، كأنما بلا معني. وأخذ في أثناء ذلك يسرع خطوه، ناسيا تردده وخجله، يبحث عن طلبته.

وكانت هدي مستندة إلي منضدتها المصقولة اللامعة، تنظر إلي السقف المرتفع، والشرفات الداخلية المنسقة بالبضائع، وثم تناسق غامض بين شعرها المسترسل الحالك، ومنظارها الطبي الحريري الأنيق، وفستان

العمل الأزرق المحبوك.. وأحست شيئا فالتفتت فجأة، واذا بهذا السيد الكهل الخجول يحدق إليها.

وتلعثم شيئا، هذا الشيخ الغريب، ثم سألها عن حاجته فلفّتها له ومضي مسرعاً.

ولعله لم يقرأ ولم يكتب مساء ذلك اليوم بل سهر يراوده شوق قديم كئيب.

ولم تملك إلا أن تبتسم له حين جاءها - متأخراً - في اليوم التالي لشراء قلم، ثم كراسة.

ولم يكن لها أصدقاء. فقد كانت نفوراً عصية علي التعارف السهل. ولعل الرغبة الحارة إلي الصداقة والحب، وذلك التوق العنيف للرفاقة والزمالة، لعل ذلك نفسه يشمس بها عن عقد الصداقات وعن التآلف اليسير. من يدري ؟ لعل هذا الكِبْر نفسه الذي تضيق به زميلاتها مجرد قناع مسدل علي شعور ممض بالحرمان والحبوط.

ثم يأتي هذا الشيخ الأنيق الخجول، بنظراته التي يعيش فيها حلم مكسور..

وفي مساء يوم شتوي كانا معًا في دار السينما. وكلاهما يعرف أن هذه هي البداية.

ثم نمت صداقتهما بسرعة إلي محبة غريبة بدائية. كأنها نبات عطشان مصوح رَوِي بالماء فجأة فَرَبا غضًا زاكياً ، ومتأخراً، شرِها للحياة.

وكثر ترددها علي فيللا قاسم بيه وكثر ذهابها مع القاضي الكهل إلي المحلات العامة، ودور السينما، كأنها بنت صغيرة هاربة من المدرسة.

وكانت تحبه أيضا، بلا شك، نوعا من الحب، وحبها له، كشيء بدائي، يعيش في ظلمة مدفونة فيها.

وفي أمسية هادئة تفتحت له، في رضا، وكأنها تؤدي واجبًا عليها أن تقوم به، كأنها تنفذ احدي الوصايا العشر، وأخذته إليها. وكانت تحس دماءه تضرب في عمقها البكر، كدماء مَلكٍ يكاد يفقد صولجانه، فيها كبرياء عتيقة، وحرارة توشك أن تخبو، حرارة منقولة من سلالة عريقة. وكانت مع ذلك تحنو عليه ليلتها، كما لو كان طفلاً، في رقة جسدها الغني الناعم، تعطيه، وتضحك له ضحكة صغيرة رقيقة. ولكنها كانت تعرف أن مَلِكها الحقّ لم يأت بعد، وكانت تنتظره كما تنتظر اسرائيل مسيحها. تنتظره في ثقة دمائها، في رحمها غير المرتوي.

وأقبلت معها إلي الفيللا الساكنة حياة جديدة، متوثبة. وانقلبت الفيللا إلي وكر يمرح فيه قطيع لاه. وابتدأت الموسيقي تعزف بين حيطان كان الصمت قد طال بها، والحفلات تتوقد وتتلألأ، وترن الضحكات. وابتدأت جماعات كثيرة من الشبان والشابات تتردد عليها، والسيارات تغدو وتروح. وفي زمن وجيز وجدت هدي نفسها في بؤرة حياة إجتماعية مدومة. وكان منظارها الطبي يفيض علي وجها مسحة عقلية

غير مألوفة. وهي دائما متسامية علي ذلك الجمع، في مجد طبيعي فطري، بالرغم من طبقتها، بلهجتها الهادئة العميقة، وبجمالها الغامض، ومشيتها الرقيقة المتئدة، وأناقة مدروسة في ثيابها.

لكنها كانت أحيانا تمقت ذلك كله. الضحكات والشرب، والزحمة. مانهايتها هذه اللعبة ؟

شخص واحد تحس منه الفهم العميق الذي يوجد بين الزملاء. يسري. فهل حدس سرها ؟

كانت تري من نظراته المدركة الرقيقة أنه يعرف، بالظن، مايعذبها. لكنها - هي - لاتعرف.

وكانت تفر أحيانا من الضجة إلي غرفة منزوية، لتخفي البريق المبلل في عينيها.

وهذه النظرة، تلك الرقة، وذلك التساؤل، تراها في وسط الزحمة المتلاطمة من الراقصين والراقصات، تحسها تتبعها، دائما، من بين الضاحكين والغزلين.

ماحكايته، يسري هذا ؟ لمَ يحييها دائما بصوت خافت خاص دون أن يحاول، كالآخرين، استمالتها أو مغازلتها ؟ وهو غريب وسط ذلك الجمع، كأنه أكثر اتزانا منهم، وأكثر خبرة، وأعمق. وإن كانت بالطبع لا تستطيع أن تحكم عليه، بشيء. فحديثهما لم يتعد المجاملات المألوفة. وهو لاينظر إليها أبدا مباشرة، كأنه يخشي أن يقع بصرها علي شيء

عنه، عزيز إليه وخفي. لكنه دائما هناك، يتبعها في هدوء، في مقدرة ودون تعجل، دون استرضاء. فاذا التفتت إليه فجأة، كأنما تسائله، حول بصره عنها، وتشاغل.

لكن، ماالفائدة ؟ يعودها هذا السؤال القديم، ماالفائدة ؟ ماجدوي المغامرات العاطفية ؟ كأنها تخشاها، وإن كانت تتوق لها. كأنها موقنةٌ من الآن بالفشل. وشيئا قديما منسيا يحذرها، ويرغّبها، ويخيفها.

ووصلت إليها من الفيللا أنغام الجاز الحاد، من بعيد، لاذعة، تنهج، وترتمي في رنين أجوف جوعان، ونغمات هذه الأشواق الكاشطة تجرحها، وتحيي فيها وحشتها العميقة المرّة. تلك الوحدة التي لن تشفي أبداً. وهي منسية مع آلامها، منفردة بيأس بلا جدوي. كأنها شيء محطم من الداخل، ومنبوذ، ولا أحد يهتم، لا أحد يحس، لا أحد يدري. كلهم يعيشون منزوين في صمت نفوسهم المقفلة. لاجسور بينهم. يملأون حُفَر نفوسهم. بالخمر وبالجاز وبالأنوار، وبالغزل، وبالجنس والعمل. دون جدوي.

وهي ؟ أحَتْمٌ أن تحيا طيلة عمرها، تنتظر وتخشي، محبوسة في نفسها، صامتة ؟

- آسف إذا كنت ازعجتك.

واعتدلت في جلستها بسرعة. وقد باغتها الصوت الرقيق، وهتفت :

- يسري.

وكانت هتفتها نداء. نداءً مثقلاً بالوحشة التي تملؤها، بالحنين والشوق المر، بعذاب الحرمان والنسيان.

لكن هذا النداء، في الأول، لم يكن إلا صيحة دهشة ومفاجأة اكتسبت عمقًا جديداً غير منتظر.

أما هو فقد ارتعد. ارتعد من عمق هذا النداء، ومن عمق هذه الليلة، والصمت الذي يلفها كأنه صمت النجوم، وقف مترددا، فدعته بلهجة حانية رقيقة، وهي تضع نظارتها علي عينيها، أن يجلس. وأحس رهبة عذبة غامضة تتسلسل إلي قلبه، رهبة تفيض علي الكون، فتحيله مبهما وشائقا. وساد صمت مشحون. فقال في تردد :

-ليله.. ليله جميله، مش كده ؟

وصمتت، ووثبت في دمائها نار صغيرة، تدفقت في داخلها وغمرتها. وأومأت برأسها فلم تكن تجد القدرة أن تتكلم. وهي مع ذلك تحس نوعا من الحرج. من الندم. لماذا ؟ لماذا تناديه بهذه اللهجة ؟ وتحس أن حلمها الطفل يسقط عنها كغلاف شرنقة قد بلي وتحس دماءها غنية مليئة كأنها ثمرة ناضجة متوترة عبرت بها غيامات الشتاء. وابتدأت تُفيقها شمس الصيف.

لكنه أراد أن يتخلص من هذا السحر الرومانتيكي كله. واستطاع أن يجد صوته أخيراً وأن يضع في هذا الصوت شحنة كافية من القوة تمكّنه من أن يتحدث. فلم يكن بمقدوره أن يبقي في صمت دمائه التي تبهظه

ولم يكن بمقدوره أن يحتمل منها ذلك الوهج، وهج ثمرة ناضجة تحمل في رحمها كل شمس الصيف، فلجأ إلي إشعاعات خياله، إلي بريق الزبّد. وهو يقص عليها، في سخرية خفيفة مستمتعة، شاعراً بغرابة حكايته، كيف أنهم يزعمون أن هذه النجوم المتألقة فوقهما هي ماسات تساقطت من دروع الملائكة حينما كانوا في البدء يصارعون الشيطان وجيشه من الملائكة الساقطين. والنجوم هي بقايا تلك الحرب السماوية. وتسللت إلي صوته رنة شفقة علي المنهزمين، كأنه يرحم الملائكة السود، وراحا يضحكان بعد ذلك، لغرابة القصة، ومن انفعالهما أيضا، أحدهما بالآخر.

ثم ساد صمت بينهما. ووصلتهما أنغام الجاز، لاهثة من بعيد. فجعلتهما يحسّان عمق وحشتهما، عمق احتياج أحدهما للآخر احتياجا موجعا.

وواصل كلامه، كأنه يكمل حكايته، بنفس اللهجة الخفيفة التي أخذت تتغير شيئا فشيئا، وتتهدج، وتغدو ملحّة، ضاغطة :

- تعرفي، في الروايات وفي وقت زَيّ كده تمام، وفي نفس الجو ده اللي المؤلف بيوضبه كويس، تبص تلاقي البطل يركع مرة واحدة قدام البطلة، مش كده ؟ ويقعد يوصف لها حاجات غريبة... ملتهبة.. بيحسها في نفسه، يعترف لها بآلامه واشواقه وغرامه، ازاي هو يحلم بها طول الوقت، بيعبدها، ان حياته مابقاش لها معني من غيرها...

لكن أنا مش عارف، انا عايز أقول لك حاجة بسيطة صغيرة، في كلمات بسيطة صغيرة. هدي. أنا.. أنا بحبك.

ومرة أخري في تاريخ لابدء ولا نهاية له، تخلقت هذه الكلمات، واكتسبت وعيا. وهي صامتة، ترتجف في داخلها، كما ترتجف الشمس في وقدة ظهر صيفي وتسارعت أنفاسها قليلا، قليلا، بدرجة لاتحس.

وضحك ضحكة قصيرة غير ثابتة :

- مااعرفش. أنا لازم عبيط أوي، وضحك، زي الاولاد الصغيرين. مش حتصدقي انني في بعض الأحيان كنت آجي في العصر، أو بالليل، اقف هناك عند الباب الحديد تحت الشجرة، أقف بالعربية في الشارع، وكل حاجة هادية ساكتة وأقعد أبص في أشجار الجنينه، من ورا السور، زي الروايات تمام. عشان اشوف بس الستارة بتتهز، أو ضل يعدي ورها. خمس دقائق كده، ولا حاجة قبل ميعاد الحفلة، أو قبل الشلة ماتيجي. كأن بيني وبين الباب والشجر والستاير نوع من الفهم والألفة. لكن أنا مش عايز أقول لك الكلام ده كله دلوقتي. كنت عايز اقول لك بس الحاجة الصغيرة البسيطة دي. الحاجة الكبيرة جداً مع ذلك.

وساد الصمت مرة أخري في الليل.

- هدي

نداء موقظًا، فيه حياة كاملة، متطلبة، متوترة.

وهمست، كأنما لنفسها :

- إيه الفايده ؟ إيه الفايده ؟

من غير أن يسمعها.

وضعت يدها على يده، وأخذتها إليها. وأحس فقط أنها تستجيب له، وانجاب القلق المشدود حولهما من صمت اللحظة الفائتة. وأحس رضا وسعادة غامرة هادئة، كموجة من الدفء بعد برد طويل، وضغط يدها وهو يهمس، في صوت مختنق، هدي هدي، في شكر عميق، في حب لا قرار له. ولم يشعر بحاجة إلي أكثر من ذلك، مجرد أن يجلسا وأيديهما متشابكة في ضغط رقيق، في رفق، في ثقة، مستندين معا الآن إلي شجرة التوت، يحدقان في سماء الليل وبقايا حربها، قانعين بما يشتعل في دمائهما من فرح وديع. وكانا سعيدين، لحظة، بمجرد إحساسهما بالليل معا، بالنجوم، بحبهما، وأيديهما المتماسكة.

ولأول مره نسيت. نسيت لأن الحياه جميلة، أو بدت لها جميلة، واستسلمت في الليل لشمس كبيرة تسطع في قلبها، وتركت نفسها مع نسيم ليلة الصيف، كأوراق التوت التي تخشخش فوقهما، وقد تركت نفسها أيضا يهزها الهواء، وتصعد فيها عصارة الأرض.

فهل وجدت الآن موضوع وحشتها وشوقها ؟

هل جاءها مسيحها.. ؟

جاءها فلم تعرفه، في الهزيع الأخير من الليل، وأيقظها، على أنها كانت قد تركت شمعتها تنطفيء، كالعذاري النائمات، لكنه أيقظها،

وأخذها إلي مملكته.

وما بعدها ؟

هذا القلق، هذا القلق المتيقظ أبدا، يقرض شيئا في طرف من نفسها، لكنها لاتستطيع أن تهتم به الآن.

وأغمضت عينيها وتركت قلقها يغرقه هذا الحب. كأنها لاتطلب شيئا، ثم قاما معا. وارتفعت إليهما أنغام الجاز الزنجي يشكو ويئن، يتواثب في سكون الليل دون قناعة.

كانت هدي ماتزال أرقة، بينما الليل أوشك أن ينتصف. وكانت تنظر عبر الحجرة إلي المصباح الخافت، فوق مائدته الصغيرة، تتخايل بجانبه بضع أدوات غامضة المعالم وهي مستلقية كأنها بلا حياة، بجوار أختها الصغيرة علي السرير، ولا شيء يبدو منها غير التماع وجهها الرخامي، تنصت إلي الليل يملأ الحجرة بحرارة مجسدة مبهمة، كشيء بدائي لم يتخلق بعد. لكنه ينبض.

وقد استسلمت، في همود، لحرارة الليل الرازحة.

وكانت أشعة المصباح تسقط علي كوب زجاجي ممتليء بالماء، وتتغلغل في عمقه الشفاف، وهي تبرق وتتخطف، ثم تفلت من جدار سجنها الزجاجي المصمت، ظلالا دقيقة متشابكة صامتة، تهوي من حافة المائدة إلي العتمة.

كانت هدي ترعي هذه الكائنات الليلية السجينة. ولم تكن صافية

الذهن، ولا هي تدرك الأشياء بوضوح، وقد أمضّها الأرق، وإنما تحس في أعماقها بالاتحباس والكظم.كأنما هي تشارك هذه الأشياء مصيرا واحدا، ليل الصيف الذي أُغلِقت عليه الحجرة، وأشعة الضوء المسجونة في الماء.

وهمست في الظلمة كأنها تمنح سرها مخلوقا قريبا إلي قلبها :

- سجن .. كلنا في السجن .. محبوسين.

وجاءها من الليل طنين مكتوم. ووثبت من الظلمة إلي دائرة النور فراشة ليلية بيضاء، راحت تحوم حول المصباح الكهربي المتقد الساكن، وهي تئز كقطعة صغيرة انفلتت من آلة هائلة دوارة، قذف بها خطأ، أو قدر، وقد أذهلها الضوء المفاجيء، فهي تدور في حلقات سريعة متقلبة، حتي اصطدم جناحها الرقيق بحافة الماء في القدح. وانبعثت - ولما تكد - رعدة خفيفة، في المياه المسجونة. - وكانت هذي قد شرد وعيها.

فالتفتت فجأة إلي ذلك الكون الخاص المضيء في ركن الحجرة، ذلك العالم المستقل الذي تمدّه بالحياة شمسه الكهربية. وأخذ بصرها آخر حركة للحياة في ذلك العالم. والفراشة تغوص في الماء. مُضغةٌ مبللة بيضاء راح لونها يدكن بسرعة. وسري في القدح ضباب خفيف من الهباء الأبيض، ضباب باهت ميت كالقمر ينسكب في البرد علي عالم جامد خاو.

وتقلب أحد أخوتها في غطائه وهو يتنهد بعمق، في حلمه.

ونزلت هدي من علي السرير بحذر. وفي ذهنها أن تجدد الماء في القدح. ووقفت إلي حافة السرير تتلمس الشبشب بقدميها حتي عثرت عليه، فأولجت فيه قدميها وسارت علي أطراف أصابعها. وكانت يدها ترتعش عندما امتدت تنزع الكوب من تحت المصباح، وتَقْلب كل توازن في العالم المضيء الساكت الذي مات.

لم تكن تدرك تماماً ما تفعل، بل هو شيء، أي شيء، يلهيها وتتحرك له، كمن ينشد الفرار. هي علي أية حال تغير الماء، فلعل أحد أخوتها، في غفلة من نومه، يشرب الماء القذر الآن. لكن هذا، بالتأكيد لم يكن كل شيء. ولعلها لم تكن تعني كثيرا بالماء أو القدح. بل ينبغي لها أن تفعل شيئًا، أي شيء، أن تتخلص من أسر رقدتها علي الفراش، أن تحطم سداً ، أن تغير الماء، بالطبع، في نهاية الأمر.

وعندما رفعت الكوب من حلقة النور، أقفر العالم المضيء فجأة، من بؤرته، واستمرت شمس مهجورة تسطع في فراغ موحش.

وفتحت باب الغرفة ببطء، وخرجت إلي الفسحة الضيقة، يقدها الملفوف الضيق، في العتمة الخفيفة. ودلفت إلي الحجرة الواحدة الأخري من شقتهم الصغيرة، لتلقي بالماء من شرفتها إلي الشارع.

ولم يخطر علي ذهنها أن حوض المطبخ علي قيد خطوة، بل كأنما كانت تريد أن تفتح لنفسها طاقة، علي الشارع، علي الليل، تحت السماء.

ثم وقفت فجأة أمام باب الشرفة المغلق، وقد هبط عليها شعور محض مبهم، في الظلمة الساكتة، كأنه جوع يناوش أطراف نفسها، لكن ليس إلي الطعام، ورأت الأثاث يجثم في الأركان، ويقوم في وسط الغرفة، كشواهد قبور متصلبة مزلزلة تجمدت في انتصابات غير مألوفة، مائلة ومتحجرة. وفي نفسها صراع غامض يتململ في قيوده.

وأرادت لتتخلص من هذا القلق، علي أي نحو، بسرعة. ففتحت باب الشرفة فجأة، بحدة، برغم الليل، وأخوتها النائمين. الفرار. الفرار. أن تخلص من هذا القلق. واضطرب شعرها وهي تهز رأسها في انكار. كأنها ترفض أن تقبل هذا الضيق في قلبها. تأبي أن تطاوع هذا الألم في داخلها، أو تهادنه. وأفلتت كلمات من شفتيها، متداغمة، مضغوطة، كمريض يئن لنفسه.. :

- وبعدين.. وبعدين.. وبعدين بقي ياربي.

ثم انتبهت إلي حمقها. وحمق انكارها. ولكن العذاب الداخلي تضاعف في نفسها، يعتصر أحشاءها. فضحكت. ضحكت تلك الضحكة المرة الموجعة، في خفوت متوتر، وعيناها تمتلئان بالدموع. وحاولت أن توقف ضحكتها فلم تستطع، واستمرت تضحك وتنشج. وهي تتوق لأن تترك هذا الجحيم يندفع، أن تطلق له السراح، تدعه ينطلق، ينطلق، أن تهشم بين أصابعها كل هذا، كل شيء. لكن الوجع ظل يتلوي بأحشائها، ويدها متقبضة علي الكوب الزجاجي، ويدها

الأخري تتلمس جبهتها في الظلمة، بضغط بطيء عنيف. وأصابعها تتخلل شعرها حتي الجذور في تشنج مكظوم.

بدت لها سخرية الأمر كله. وسخافته. كل هذا الألم الأحمق الذي لا معني له. وهذه النار غير الصافية التي تتقلب وتلسع جدران قلبها، بلا ضرورة. بلا ضرورة.

- سخف. سخف. عبط.

وضحكت مرة أخري. ضحكا قصيرا متقطعا ممضا. وقطرة من الدمع تتدحرج من عينيها ببطء، بالرغم منها.

أعليها وحدها أن تحيا مع هذا الألم، وحدها، في أصفاد واحدة، ألم حب مثبط محبوط ؟ ألم كبرياء جريحة ؟ ألم الضياع والحيرة التي تفقد فيها نفسها ؟ بين الصرخات والنزوعات والأنقاض ؟ لاتدري. لاتدري. ولا أحد يدري علي الاطلاق.

لا أحد يهتم. والنار المسجونة المحملة بالتراب تتسع في داخلها، تعزف، وتدوي. والألم في أحشائها يتضاعف في كل لحظة، وينقسم. قطعان من العذاب تتناثر في نفسها وتندفع في أرجائها. كأرواح ضالة ضارعة.

وسقطت علي مقعد طويل بجنب الباب. ووضعت القدح - دون ان تحس - علي مائدة.

في نفسها كرب وشعور غامض يعنّيها ويمت إلي القلق المذنب الذي

يتأتي عن فكرة جريمة، ونوع من الأسف النادم المر أيضا.

وفاجأت نفسها في يومها ذاك، تفكر مراراً فيما عرض لها.

ما الجدوي ؟ لعل ذلك أحسن الطرق وأقصرها أيضا . وأدارت بصرها بسأم في الغرفة المظلمة، تحدق بنظرة لا مستقر لها - وليل الصيف الفسيح بعيد عنها، وهي كأنها تخشاه الآن. وودت - تاقت بعنف - لو ترتمي علي الأرض. لو تقذف نفسها علي الأرض الصلبة. لكي تبكي تذيب هذا الألم الناهش الذي يولد الآن من جديد، لكي تصهر هذا الرصاص الثقيل الذي يملؤها، لكي تتقيأ، تتقيأ كل هذه المرارة التي لا تطاق.

لكنها ظلت مرتمية علي المقعد. مفككة الأوصال، تحدق أمامها والألم يعض في أعماقها بعناد.

ثم سقط في نفسها، برحمة، نوعٌ من الملل، نوع من الضيق والاستسلام والضجر، وهدأت قليلا.

متي تنتهي إذن كل هذه المعاناة، هذا الألم الذي يعيش من غذاء حياتها نفسه ؟ وكيف - كيف - تنتهي ؟ إنها لا تستطيع. لا تستطيع أن تتخلص من هذا التملك العذب الموجع الذي يأسر حياتها كلها في قبضته. ولا تستطيع أن تفعل شيئا . إنها تحبه، نعم وحبه عميق يملأ شعاب نفسها جميعا، كالبحر، بجزر ومد من الحنان، وكرم الهبة والعطاء، وشهوة التملك، والاقتضاء جميعًا. لكنه الثاني في الصف

حتي الآن. وابتسمت ابتسامة مرّة ملويّة، فهل سيكون لها ثالث ورابع، وصف طويل ؟ بماذا يسمون البنات - البنات ؟ اللاتي يمر بهن مثل هذا الصنف من الرجال ؟ نعم، إن لهن اسما، اسما قبيحا كل الناس تعرفه. وهل بوسعها أن تغمض عينيها وتسد أذنيها عن رنين الكلمة.. الكلمة التي تتردد في الظلام، ولا تريد أن تسمعها مع ذلك، لاتريد، لاتريد،

وما جدوي ذلك كله، وما نهايته ؟

مهين ومذل، ولكنه هناك، هذا الحب الممزق السخيف. وسخرية وبلاهة بلا شك، كل تلك الآلام، لكنها ماتزال مع ذلك موجعة موجعة.

وامتلأت نفسها بالمرارة. مرارة السخرية التي تهرب إليها أخيرا، كدأبها، فتلجأ إليها لتحتمي بها، من جيوش الألم.

ولم تفتح الشرفة. بل ذهبت إلي حوض المطبخ.

وسقطت الفراشة من القدح الي الحوض، كومة مهيضة صغيرة من الماء اللزج، مضغة ضئيلة كالعلقة، ذلك الكائن المرهف الذي دار حول شمسه بعيون لامعة وأجنحة رفافة.

وعادت هدي إلي غرفتها، والليل مازال يملؤها، يتململ كسجين متبرم.

الفراش واسع وثير، بأغطيته الناعمة، تحت الحائط. والمساء يتسلل من خلف الستارة الشفافة، ويشيع في الغرفة الضيقة عتمة خفيفة. وخشب السرير الموجنه الصقيل يلمع، في الركن، في غير وضوح. وعلي

الجدران صور تمتد فيها آفاق الليل الغامضة. وهي راقدة في العتمة الشاحبة. علي بطنها، وكتفاها العاريتان تشعان ببياضهما الرخامي في ضوء المساء. وفيهما حزأن رقيقان في اللحم الناعم من أثر الحمالات الحريرية الرفيعة. وشعرها الأسود الغزير منحدر علي ظهرها، ووجهها مدفون في المخدة. وهي تحس يسري بجانبها علي الفراش. تحس أنفاسه والوهج الدافيء الذي يصدر عن جسمه القوي، والحنو الوادع. وتحبه. تحبه.

ودفعت برأسها تدفن وجهها في المخدة أكثر بعنف وضيق.. وتاقت إلي هذه الراحة المترفة لو تستمر. كم يشوقها لو أنها ظلت إلي الأبد، في راحة هذا الفراش راحة هذا الحلم الخصيب.

ولَمَ لا ؟ لم لا تستمر ؟ لم لا تغرق باستمرار في هذه الأسطورة الناعمة ؟ لمَ كان عليها أن تتحمل، إلي الأبد، عبئها الخاص الثقيل ؟

بل عليها أن تمضي في طريقها. أن تنفذ ما انتوته، ماصممت عليه. وهي تهمس لنفسها في اصرار ممض، في عناد :

- لازم. لازم.

وتستمد من صوتها المدفون قوة جديدة. وتشعر معه بقليل من الراحة، بشيء من الشجاعة.

فتح عينيه في العتمة، من نومته القصيرة الشبعانة، ورأي كتفيها تلتمعان، وشعرها الوحف يغطي رأسها المدفون في المخدة، ويتهدل علي

كتفيها وعلي الفراش، فغمرت قلبه، اذ يصحو، رقة مرهفة حتي لتكاد تؤلمه، وروحه ترتجف من المحبة، فرفع نفسه علي مرفقيه، والتصق بها يبوسها في خدها، وعنقها وكتفها، كأنما من غير إدراك، في ألم الحنان الذي في قلبه، وهي يستنشق جسدها المنصهر تحته، وعبق شعرها الناعم الثقيل الذي يدغدغ صفحة وجهه ويثير شفتيه، ثم انحدر إلي جانبها، وجهه إلي وجهها، ويده تلعب في شعرها، ووهج حار يحتضنهما معا، وهج كنز لا ينتهي. ويحس محبته تتجدد في رهافة، ويحلم كيف سيجنيان الثمرة من جديد.

كيف – وهي تقبل عليه حارةً إليه، كشمس الربيع..

أما هي فتجربتها تبتدئ وهي لصقه، والصراع في داخلها ينهض برأسه.... وهي تتوق – ولو لحظة – ان تفر. بعيدا. بعيدا.

لكنه، هو، كان يعيش في حلمه. ويبتسم. وهو، في دخيلته، لايري شيئا أمامه في مستقبل ما، وانما يحيا الآن. وهنا، وليس بمقدوره، في الواقع أن يراها مرتبطة به طيلة الحياة، بل هي فترة سعيدة لابد أن تنتهي بلا شك يوما . يوما، بعيدا غامضا في مستقبل بعيد غامض.

وإعطاؤها نفسها له كأنما سلبها الحق، في عينيه، دون أن يدري، من البيت والعائلة، إن كان لها الحق في يوم من الأيام. فمن هي ؟ في نهاية الأمر ؟ ما مركزها ؟ وما عائلتها ؟ إنه حتي الآن لايدري تماما، ولم يهمه أبداً أن يعرف بالضبط. وإن كان لاشك أنها ليست من

مستواه. لكنها أيضا ليست بالتأكيد صيدة عادية من النوع المألوف... علي أنه لا يكاد يعطي لهذا كله أهمية، بل هو يحبها، ويعترف لنفسه بذلك أيضا، ويفتقدها جداً. وثَمّ جانب منها لم يمتلكه ولم يعرف أن يصل إليه. كأنها تخفي عنه شيئا، من نفسها، أو من جسدها، وهي تثيره أبداً، وتُشهّيه في الحياة. بل الحياة لا تتصور الآن من غيرها.

وقد أثث لها هذه الشقة الصغيرة، لها وحدها. تأتيه كلما واتتهما الفرصة، ثم تمضي سراعا، كأنما تتخطي الحدود بين عالمين متعادين لاصلة بينهما. وتعود الي بيتها، وحياتها الخاصة الغامضة، حتي يلتقيا مرة أخري.

مخلصة بلا شك، وطيبة، وغريبة جدا، فلم تطلب منه، أبدا، شيئًا. ولم تشر إلي الزواج بكلمة، حتي لو كان زواجا عرفيا، ولو سألته لما أطمأن إلي نفسه كيف كانت تنتهي المسألة. فلعله كان يرضي بكتابة عقد. لكنها لم تفعل.

وبنت واحدة في حياته كلها لم تلهمه بمثل الثقة التي تغمر نفسه بإزائها. الثقة في خلقها، نعم، وفي صدقها، والأمن والاطمئنان إلي حبها.

ومرت أمام عينيها، في أزمتها، هي ، صور الأسابيع الفائتة. كيف كانا يرقصان معا، في الفيللا أحيانا عند قاسم بيه. وفي الأماكن العامة، ثم في هذه الشقة. والنزهات، والحفلات، والسهرات. وطوال هذا

الوقت كانت جريمتها تتضح، وتتكوّن.

انها - هي - مجرد بائعة في محل تجاري، مجرد عاملة. وعلاقتها السابقة بقاسم بيه ؟

ها هي ذي توشك أن تصبح بائعة أيضا لشيء آخر، تبيع نفسها، جسمها علي الأصح، بائعة من بائعات الهوي كما يقولون... ماذا يسمون البنات - النساء.. اللاتي من نوعها ؟ إنه اسم قبيح ذلك، كيف نسيت ؟ بل كيف أمكن أن تحبه، وتنساق ؟ الحب ؟ أيمكن أن يحيا الحب في هذا المناخ ؟ بل أيوجد مثل هذا الحب أصلا ؟ لا. بل تتربص به عين صاحية مفتوحة تحدق فيه، حتي تنقر في صلبه بؤرة عَفِنة لابد أن تنفجر يوما، لتقذف بالنتن في كل اتجاه.

هو - بسيارته، وعائلته الكبيرة، ومستقبله الباهر في الوزارة. وهي، عاملة، شيء صغير، لها علاقات سابقة مريبة. علاقة واحدة علي الأصح. ما أهمية العدد ؟ وماذا يقول الناس ؟ ماذا يعتبرونها ؟ أي اسم قبيح يسمونها به ؟

أما قاسم بيه فقد احس طعنة الافتراق عنها، في أول الأمر، وهو يراها تنساق في تيارها هذا الجديد المكتسح كأنما هي كبرت ولم تعد طفلة بعد بل امرأة وجدت مليكها ورجلها، ثم صمت الشيخ وأصابه يأس هادئ ليس بالغريب عنه، وقَبِل، بل أوي إلي قبوله، ويأسه، كما لو كان يأوي إلي جدار قديم مألوف، يعالج في ظلمته، وحدُه، جراحًا قديمة

مألوفة.

وأما عائلة يسري فقد ترامي اليها بالطبع خبر علاقته بها. ولم تر فيها أول الأمر إلا نوعا من نزق الشاب المعتاد. وإن لم يكن يسري بعد في زهرة الشباب بالضبط ولم يكن معتاداً علي النزق.

لكن الأمر بدأ ينذر بالخطر، وهناك قريبته الغنية التي تموت حبًا فيه، وأبوه محتاج إلي مثل هذا الصهر.

وحدثها قاسم بيه، أخيرا، عن هذه المتاعب كلها، في حيطة. كيف أن يسري يقاوم رغبة أبيه في إعلان الخطوبة. وكيف أنهم عرفوا كل شيء عنها. وإن كانوا لم يواجهوا يسري حتي الآن بذلك.

هل كان الشيخ ينتقم لنفسه ؟ أم هو خُلقه القانوني يضع عليه عبء هذا الواجب الذي قام به ؟ لا يهم. وإنما لاشك أنه كان صادقا، وأن الأمر أضحي الآن معقدًا.

وتغيرت نغمة حبهما القصير الفرح، ورنت فيه أصداء أخري ثقيلة.

وفي هذا المساء في آخر الصيف، جاءته في فستانها الأبيض الخفيف، وجلست الي جواره أمام النافذة، في جو حرج مثقل باحتمالات غامضة. فأحاطها بذراعيه وقربّها منه، وهي مستندة إليه، في آخر العصر، تحس في نفسها تململ العناصر المكبوحة، وتنظر الي حمرة السماء المعلقة بين سطوح البيوت، وهي تعبث بطرف الستارة.

وأسقطت طرف الستارة من يدها فجأة، واختطفت يده اليمني، كأنما

من غير إرادة منها ورفعتها إلي فمها، وقبلتها بشفتين مرتجفتين رقيقتين باهتتين. كأنما طفلة تستغفر من ذنب ثم تركت يده، قبل أن ينتبه للأمر كله، فسقطت يده علي حجرها، بثقل، واصطدمت بلحم وركها من فوق الفستان الخفيف، وهي لم تستطع أن تفهم لماذا قبّلت يده، ولماذا خجِلت بعد ذلك من هذه القبلة. كانت قد احست ثورة مستوفزة في أعماقها. وتلك القبلة ترتفع من داخلها إلي شفتيها دون أن تدرك تماما ما هي بسبيله.

وقد بوغت، وترك يده كأنها شيء غريب عنه، حتي سقطت علي حِجْرها، ووجد يده علي وركها، حميمة، مثيرة، فارتعد، وضمّها إليه بعنف.

واحست بين ذراعيه نوعًا من الضيق المرهف، من السأم، بل من القسوة فانتزعت نفسها من حضنه، واصطدمت بحرف المائدة الصغيرة، وأحست كدمة الخشب الصلب في جنبها. وسقطت منفضة السجائر علي الارض في جلبة وقرقعة.

فخافت، وكان المساء قد دخل، وأحست نفسها وحيدة منعزلة بردانة، وذهبت إلي جانب السرير وسمع حفيف الحرير الناعم وهي تنضوه عنها بسرعة، ورأي التماع جسدها الغض في عتمة الغروب الأخيرة، وكنوزها الأنثوية المليئة بالسر.

كانت قد أعدت له نفسها، للمرة الأخيرة، كما تعد الضحية نفسها

للذبيحة، بخشوع راضٍ، بتسليم ديني. فقط كان يترامي في نفسها حسّ اللذعة المرة، ووخزة من سخط.

أعليها أن تضحي بنفسها إذن، في سبيل مركزه ومستقبله وعائلته ؟ أليست تضحي به أيضا ؟

أم هي في الحقيقة، تخشي أن تفقده، تخشي ألا تستطيع الإبقاء عليه، ولذلك تضيعّه، متعمدة؟ الإبقاء عليه ؟ فيم تفكر ؟ كيف يمكن أن تُبقي عليه هي ؟ وماذا يهمها الآن من ذلك كله ؟

وضحكت فجأة، بسخرية، من نفسها، ضحكتها القديمة المتوترة. وارتفعت يدها تضغط جبهتها في بطء، فاعتدل جسمها المشوق أمامه، كغصن لدن مهتز بفاكهته، ونظر إليها في دهشة، من ضحكتها، وحركتها البطيئة المتألمة، ورأي في عينيها نظرة موجعة مثقلة عقدت لسانه عن السؤال الذي كان يهمّ به، فصمت وخطا إليها مندفعًا، وأخفاها في حضنه، يضمها إليه، يريحها علي صدره، وابتسم في حلم دمائه الذي يدور الآن به، ويتحقق. والتصقت به وضغطت وجهها في وجد علي كتفيه، وأحس وهو يحتضنها، وثدياها ينضغطان علي صدره النابض، أحس في لمحة خاطفة، أنه يطوي بين ذراعيه شيئًا متناهي الرقة، شيئًا هشًا ناعما شدّ مايشفق أن يتحطم بين يديه ويتهاوي، قطعا صغيرة منكسرة متفتتة. فكاد يُفلتها، في خوفه عليها، من ذراعيه، ثم استدرك فاهتصرها إليه بعنف، بغير إرادة. كأنما يخاف أن تهرب منه،

حتي أوجعها، فافلتت منها صرخة صغيره.

وهو الآن، والليل قد أقبل، يغطي كتفيها الناعمتين بذراعه، في رضا، وإصبعه تجري نازلةً علي الخط الذي يفصل بين شقي ظهرها البديع الطويل، وتختفي تحت الغطاء، وتتبع مسارها حتي النهاية فتنقلب إليه، وصوتها يرتجف وهي تناديه، وتبوسه في شفتيه وخدّه وعنقه، قبلات تعرف أنها أخيرة، قبلات خاطفة ملهوجة مسروعة. فيغرق وجهه في شعرها المتهدل الأثيث، وأنفاسه تهب سراعاً.

ورفعت رأسها فجأة. فارتفعت عنه الموجة العطرة اللذيذة من شعرها الذي كان يغمر وجهه. ثم دفنت وجهها، بين صدره القوي الأشعر والفراش، كأنما لتريد أن تهرب منه.

نشقت ريح رجولته المألوفة، وكانت أزمتها تعنف بها. وتجربتها، محنتها، مقبلة، لقد عقدت عزمها، لن تعود إليه، ولا إلي الڤيللا. عليها أن تقطع مرة واحدة خيوط كل هذه الشرايين التي تصلها بدم الحياة نفسه. عليها أن تعود إلي عالمها الجاف، تعود لتؤدي عملها فقط، كمَن يقوم بسخرة، مكسورة الآن، منهزمة، لكن انهزامها علي يدها وحدها، في ذلك نوع من النصر، من الظفر.

ألعلها هي التي أقفلت بنفسها كل النوافذ أمام نفسها ؟ أم هو مصيرها الذي لا محيد عنه : ألا تجد أبداً غير الخيبة والحبوط، يموت أبوها في بكرة صباها، فكأنها فقدت حبها الأول والوحيد، وقد كانت

أمها قد هجرت أسرتها الصغيرة منذ سنوات، وانقطعت أخبارها، فكأنها ماتت، بل أسوأ. ثم هي تحيا لكي تفقد دائما كل تصبو إليه. وكل اختيار لها يقع مخفقاً غير موفق. أعليها إذن أن تحيا دائما يتيمة مهجورة ؟ أم هي تؤثر اليتم، في دخيلتها، وتختاره طائعة، كما لو كانت تطمئن إلي أحزانه المألوفة، وتخشي أن تواجه الحياة، وحدها، بما تحمله من احتمالات آلام جديدة غريبة ؟

وأثارتها الفكرة، أثارها الحرمان المفروض عليها، كأنه القدر لايلين. أثارها أن تغتصب منها مادة الحياة نفسها، بسبب قسوة لاتعرف صاحبها. أثارها إلي حد التمرد، فدفنت رأسها بعنف علي كتفه، وحاولت أن تكفّ دموعها قبل أن تصل، أن تخنقها. فشهقت شهقتها المكتومة وجاءتها النوبة القديمة، تشنج بتوتر وتململ، في ضيق. لكنه كان يعرف حساسيتها، ويعرف بالخبرة ألا يسأل شيئا، فلم يندهش، بل أخذها اليه، يمر بيديه علي شعرها كأنما ليسويه، في حنو وحيرة، وشيء من الضيق أيضا، ويهمس لها مع ذلك بكلمات التدليل، وهي لاتسمع إلا نغمة صوته، دون ان تدرك الكلمات.

بعد قليل يكونان غرباء، غرباء، تفصل بينهما هوة لاقرار لها. وعليها الآن أن تقفز هذه الهوة. وذكرت خطيبته، سوف يلجأ إليها لاشك، ليتعزي أولا، ثم يألفها، وقد يحبها في نهاية الأمر، ويسوّي شعرها، فيما بعد، بهذا الحنان العذب نفسه. وماذا في ذلك ؟ إنه، في

النهاية، ليس لها، بل هو لخطيبته، وعائلته، ومستقبله. وليس للحب - ليس لحبها - بل لعمله، وقريبته وناسه.

وشردت خواطرها، وكأنها أغفت قليلا، ومرت بها وجوهٌ متداخلة. أخت يسري التي ترسل شعرها دائما، بشكل مضحك، وقاسم بيه، كأنه أبو يسري، علي نحو ما، وهو يشوّر بيديه في غضب، دون صوت، ووجوه ناس كثيرة، ترقص وتضحك وتتلاشي.

والظلمة سائدة تماما. والهدوء. كم الساعة الآن ؟ لعلها تأخرت علي أخواتها، وهي تريد أن ترجع. أن ترجع البيت. إنها تريد ان تفعل شيئا. البيت. أن ترجع..

واعتدلت جالسة علي الفراش، مغمضة العينين، متعبة مهدودة، وفي داخلها دوار خفيف.

وتجسدت له في العتمة : ثدياها الثابتان، بطراوتهما، وكتفها المدورة، وذراعاها الغضتان، وهذا البطن المستقيم يلفه طرفٌ من ملاءة السرير، ويحبكه. ما أجملها. لكن شفتيها مضغوطتان في تصميم غريب، ويحوطهما شيء حرج غامض. ووجهها في الظلام، رخامي قاس، في نوع من الرهبة. نوع من الجلال.

وأحس أصابع مثلوجة تندفن في قلبه، بعيداً، إلي العمق. لكنه طرد إحساسه.

وتركته وعيناه تتعلقان بساقيها وظهرها إذ تنزل من الفراش،

وسمعها ترتدي ملابسها في صمت فهتف فجأة، في قلق :

- هدى.

كأنما هي كلمة تحمل في طواياها كل حياتهما معا. كلمة بوسعها أن تُحيي وأن تقتل.

وأحست نفسها تموت. لكن صوتها خرج منها مع ذلك، خافتًا، مثقلاً، لا يحتمل :

- يسري ولّع النور.

وسألها كأنه لا يصدق :

- نعم ؟

وهو في الوقت نفسه يدلي قدميه من السرير.

ولم تر ضرورة، ولم تجد قدرة، علي أن تكرر سؤلها، فظلت صامتة. وضاعف صمتها من ثقل الجو المرهف المتوتر. ومد يده نحو المصباح الأزرق الصغير، فسمعت يديه ترتطمان بمنظارها الطبي فوق المائدة.

- لا يا يسري مش ده النور الكبير.

وأراد أن يسألها لماذا ؟ ما معني هذا كله ؟ كأنه يحس في طلبها معني خفيًا خاصًا. لكن ثم ما عاقه عن السؤال، كأنه في حلم سيء، يطيع قوة أكبر منه.

وسطع النور الكبير من الثريا المدلاة من السقف فملأ الغرفة، وسقط علي الستارة البيضاء وعلي صور أشجار الأروكاريا الصينية وجبال

الألب المثلجة والكليم الأسيوطي القاتم. ولمع السرير الموجنه المصقول في الضوء وانعكس النور عن ثيابها الناعمة وسطع علي وجهها في ثبات، كأنه جَمَد.

ووقف يسري، وقد ارتدي البيجامة، مستندا إلي السرير وهو يحس الملل والتوتر. ما معني هذا كله ؟

وأحست الضوء الناصع علي وجهها، والدماء تتدافع إلي وجنتيها، كأنها خجِلة، ورأت من خلال عينيها المطبقتين حلقات الدماء الملونّة التي تدور في شرايين الجفن الدقيقة إذ يسطع عليها ضوء قوي، بعد الظلام. وكان قلبها يخفق بعنف. وكل شيء دماءٌ قانية تدور بسرعة تحت أشعة النور الجامد. وومضت في ذهنها فكرة خاطفة، ماذا لو طلبت منه الآن إطفاء النور ؟ ويعود كل شيء كما كان ؟ وعبر الخاطر - كما جاء - في سرعة. كلاً. لو فعلت فقد ضاع كل شيء. يضيع هو وهي معا. ويفقد أحدهما الآخر فقداً سخيفًا متطاولاً. كمرض عُضال لابرء منه، وسيفقد أحدهما الآخر، علي كل حال. ستأتي أيام المرارة والنزاع، والتناوش المهين. والانتظار من جانبها لمواعيد لاتتحقق، والتهرّب من جانبه بتعلات رثّة النسيج، وليالي الأرق، ودموع الهزيمة. ويزداد تعلقها به كلما زاد بعده عنها، نعم - فهكذا تجري الأمور. إنها تعرف تماما - حتي يرثّ الحبل بينهما فلا يتعلق إلا بخيط بالٍ واحد. يقطعه هو أخيراً، في ملل، في قسوة فإنه سيكون عندئذ الأقوي. وينتهي النزع الطويل.

وله ؟ لم نَفْخُ الحياة في مخلوق بدأ الآن يدخل فيه أول نَفَس من مرض الموت، مهما كان يبدو في احتدام شبابه. حبهما شيءٌ مقضي عليه، من الآن. فالأجدر بها، والأكرم والأسهل أيضا، بعد كل شيء، أن يُقطع الآن، الآن، هذا الحبل. أن تمضي - ومعها صورة من حبها، رائعة مشرقة، غير مريضة.

- يسري. هات لي النضارة.

واستدار في طاعة مستسلمة، وهو يعجب من نفسه لهذا الخضوع ورأي يدها مسترخية إلي جانبها، طرية ناعمة. كم ضمّها إلي قلبه هذه اليد، مرات لا عدد لها. وأحس حنواً واثبًا نحو هذه اليد الغضة العذبة، وآذاه قلبه من الرقة.

وضعت منظارها علي عينيها، علي نظرة غريبة، كأنها حسمت شيئا. كأنها انتهت الآن من ألم الولادة، من وجع الطَلْق. فدهش وهتف :

- هدي. جري إيه ؟ رايحة فين ؟ مش تستني شويه.

- لا ماشيه معلهش. مستعجله النهارده.

فصمت لحظة وقال :

- ونشوفك إمتي ؟

فقالت في جهد وهي لا تنظر إليه :

- حوّدْ عليّ عند قاسم بيه بكرة. يمكن نروح مع بعض السينما من ستة. عشان بيتعب من السهر. تحب تيجي معانا ؟

في كلمات مبتذلة، وبكذبة تافهة، ينتهي كل شيء. فلن تعود وستدبر أمرها. لن يجدها. ولن تعود

وأراد أن يقول شيئاً، لكنه شعر بغرابة في نفسه كأنه يسبح في جو يعطّل ذهنه. أراد أن يوقفها، هي ماشية، أن يفعل شيئا ما. لكن صوتها، ولهجتها، أوقفاه، لا يأتي حراكا، لاسيطرة له علي شيء.

أما هي فقد أدّت حماقتها الصغيرة كما ينبغي. لقد انتهت من دورها هنا، كأنها نوع من غادة الكامليا، نوع عصري. وابتسمت، ابتسامة مرة. أرجعته إذن لعائلته وعمله، أنقذته دون أن يحس، بتضحية مضحكة لاقيمة لها. وأنقذت نفسها أيضا. لم يبق الآن إلاّ أن تدفن نفسها في أي مكان، في هذه المدينة الضخمة. تجد عملا آخر إذا اقتضي الأمر، فيما بعد سوف تنتهي إلي أن تعثر علي شيء. وتبدأ من جديد. أترجع للوحدة، والاختناق ؟ أم تجد شيئا آخر ؟ سيان. إنها لاتعرف الآن.

ولاتهتم. لاتهتم. حقا.

- سعيده يا يسري.

دون قبلة، دون نظرة، ودون أن تنتظر اجابة.

وعضت شفتيها وهي تخرج، بسرعة مبغضةً لنفسها، تشعر بنفسها شائكة متصلبة، لم تقبّله ولم تنظر إليه، كأنما تخشي أن تبكي، أو أن تعود.

وأحس فجأة بإقفار الغرفة منها. وبإقفار نفسه من حياة حارة وغنية. وأراد أن يناديها، أن يسترجعها، أن يفهم شيئا. لكن اسمها انحبس في حلقه، كأن شعورا بالإثم يخنقه.

وأقفل الباب عليه بعنف، وترامي دوي صَفْقته في السكون الليلي. والنور الكبير يسقط الآن علي فراغ. كان غير مدرك تمامًا ماذا حدث. كأنما شُل وعيه فجأة، كأن النقلة من حلمه السَلِس إلي هذه اليقظة الساطعة قد اوقفت مجري الدماء في داخله، وخلّته محجوراً عليه، معتقلاً في عالم خاوٍ نضبت عصارته.

وكان النور ينصبُ من نافذة الغرفة علي الشارع النائم، كأنه يُفلت من سجنٍ مضيء ساكت، مازالت تدور فيه حكاية صغيرة غير مهمة.

وعندما خرجت من الباب، وعبث هواء الليل الصيفي بثيابها البيضاء، كانت تبدو كأنما تفقد نصاعتها، ونفحة الليل تُذبلها، وكأنما تميتها، وهي تنصبّ الآن في المدينة الكبيرة، مُضغةً مهيضة لا حياة فيها. وفي الشارع نور باهت ميّت من القمر.

فهرست

القصص

مؤلفات الأستاذ إدوار الخراط

التي تنشرها وتوزعها دار ومطابع المستقبل

١ - حيطان عالية : مجموعة قصص (١٩٥٩)

٢ - ساعات الكبرياء : مجموعة قصص (١٩٧٢)

٣ - رامة والتنّين : رواية (١٩٧٩)

٤ - اختناقات العشق والصباح : قصص (١٩٨٣)

٥ - الزمن الآخر : رواية (١٩٨٥)

٦ - محطة السكة الحديد : رواية (١٩٨٥)

٧ - ترابها زعفران : نصوص اسكندرانية (١٩٨٦)

٨ - أضلاع الصحراء : رواية (١٩٨٧)

٩ - يا بنات اسكندرية : رواية (١٩٩٠)

١٠ - مخلوقات الأشواق الطائرة : رواية (١٩٩٠)

١١ - أمواج الليالي : متتالية قصصية (١٩٩١)

١٢ - حجارة بوبيللو : رواية (١٩٩٣)

١٣ - اختراقات الهوي والتهلكة : نزوات روائية (١٩٩٣)

١٤ - رقرقة الأحلام الملحية : رواية (١٩٩٤)

١٥ - حريق الأخيلة : رواية (١٩٩٤)

١٦ - أبنية مُتطايرة : رواية (١٩٩٥)

١٧ - اسكندريتي : كولاج قصصيّ (١٩٩٤)

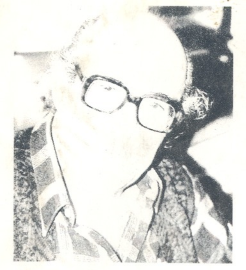
١٨ - مختارات من القصة القصيرة في السبعينات : ودراسة (١٩٨٢)

١٩ - عدلي رزق الله «مائيات ٨٦» : دراسة (١٩٨٦)

٢٠ - مائيات صغيرة : دراسة (١٩٨٩)

٢١ - أحمد مرسي	: دراسة ومختارات شعرية (١٩٩٠)
٢٢ - من الصمت إلي التمرد	: دراسات في الأدب العالمي (١٩٩٤'
٢٣ - الحساسية الجديدة	: دراسات في الظاهرة القصصية (٣ ١٠)
٢٤ - الكتابة عبر النوعية	: دراسات في القصة القصيدة (١٩٩٤)
٢٥ - ماوراء الواقع	: دراسات في الظاهرة اللاواقعية
٢٦ - أنشودة للكثافة	: دراسات في ظاهرة الكتابة (١٩٩٥'
٢٧ - عصيان الحلم	: مختارات ودراسات في الشعر(١٩٩٥)
٢٨ - الخطاب المفقود	: مسرحية كاراجيالي (١٩٥٨)
٢٩ - الحرب والسلام	: ليو تولستوي (١٩٥٨)
٣٠ - الغجرية والفارس	: قصص رومانية (١٩٥٨)
٣١- شهر العسل المر	: قصص ايطالية (١٩٥٩)
٣٢ - فارالاكو	: رواية غينية اميل سيسيه (١٩٦٢)
٣٣ - انتيجون	: مسرحية جان أنوي (١٩٦٣)
٣٤ - مشروع الحياة	: دراسة فرانسيس جانسون (١٩٦٧،
٣٥ - ميديا	: مسرحية جان أنوي (١٩٦٨)
٣٦ - الوجه الآخر لأمريكا	: دراسة ميكائيل هارنجتون (١٩٦٨،
٣٧ - تشريح جثة الاستعمار	: دراسة جي دي بوشير (١٩٦٨)
٣٨ - الشوارع العارية	: رواية فاسكوبراتوليني (١٩٦٩)
٣٩ - نحو التحرر	: دراسة هربرت ماركوز (١٩٧٣)
٤٠ - حوريات البحر	: قصص أمريكية (١٩٧٩)
٤١ - الإسلام والاستعمار	: دراسة (١٩٨٥)
٤٢ - الأقنعة والرؤي	: قصص عالمية (١٩٩٥)

عيون القصة والرواية العربية



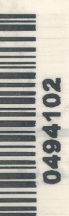
حيطان عالية

تأليف ادوار الخراط

دراسة محمد مندور

غالى شكرى

أستحقت بعض القصص والروايات العربية أهمية خاصة أو شهرة واسعة فى فترة معينة أو ناحية من نواحى العالم العربى ، فأستحقت أن تصبح « عيناً » من عيون ذلك الادب . وهذه السلسلة تقدم لك بعضها مع دراسة أو اكثر مناسبة .


Bibliotheca Alexandrina
0494102

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسك
ومكتبة المعارف ببيروت